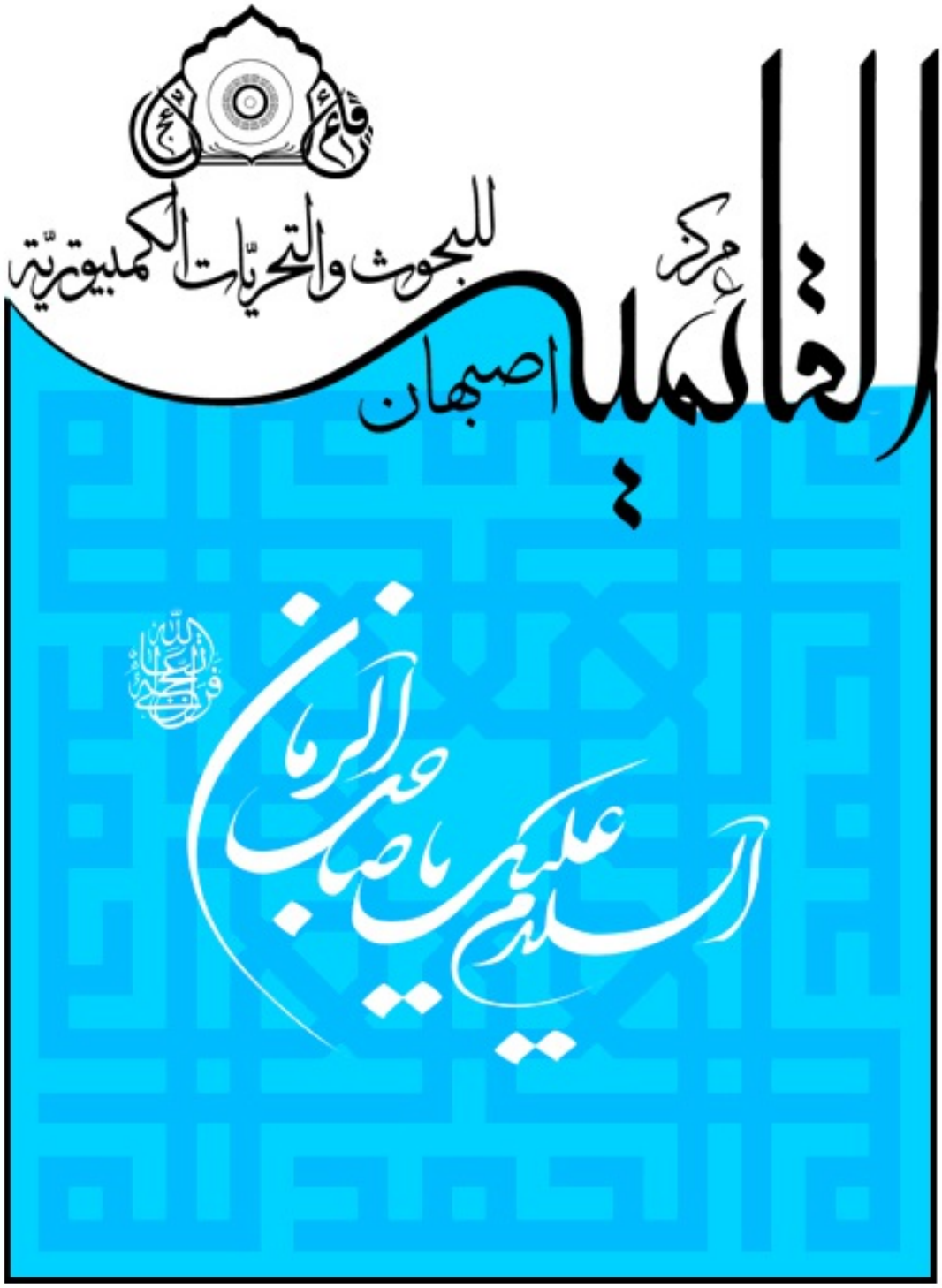

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

تفسیر
ملاحم المحکمات

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير ملاحم المحكمات

كاتب:

محمد السند

نشرت فى الطباعة:

باقيات

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
تفسیر ملاحم المحکمات ----- ۱۲
اشارة ----- ۱۲
[المدخل] ----- ۱۲
تفسیر سورة الحمد ----- ۱۳
اشارة ----- ۱۳
المقام الأوّل: أدلّة الجزئیّة ... ص: ۱۳ ----- ۱۴
الدلیل الأوّل ...: ص: ۱۳ ----- ۱۴
الدلیل الثانی ...: ص: ۱۴ ----- ۱۴
الدلیل الثالث ...: ص: ۱۵ ----- ۱۵
الدلیل الرابع ...: ص: ۱۵ ----- ۱۵
الدلیل الخامس ...: ص: ۱۹ ----- ۱۷
اشارة ----- ۱۷
تذییل ... ص: ۲۰ ----- ۱۷
المقام الثانی: أسباب نزول الفاتحة ... ص: ۲۲ ----- ۱۸
اشارة ----- ۱۸
نتف معانی سورة الحمد ... ص: ۲۳ ----- ۱۸
القراءة فی روایات أهل البیت علیهم السلام ... ص: ۲۴ ----- ۱۹
المقام الثالث: فضل سورة الفاتحة وأسمائها (موقعیّتها ...) ص: ۲۴ ----- ۱۹
اشارة ----- ۱۹
اعتراض وجواب ... ص: ۲۶ ----- ۲۰
مفاد البسملة اللغوی والأدبی ... ص: ۳۱ ----- ۲۱
(الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ ...) ص: ۳۴ ----- ۲۳

لطیفة بدیعة ... ص: ۳۶ ---- ۲۴
بحوث معرفیّة فی معانی البسملة ... ص: ۳۶ ---- ۲۴
قاعدة: تغایر الأسماء مع الذات ... ص: ۳۷ ---- ۲۴
قاعدة أنّ کلّ اسم فی الأصل اشتقاق وصفی ... ص: ۴۴ ---- ۲۷
قاعدة فی مراتب التوحید، ومراتب الصفات والأسماء ... ص: ۴۵ ---- ۲۸
قاعدة فی کون الأسماء توقیفیّة أو توقیفیّة المعارف ... ص: ۴۶ ---- ۲۸
النقطة الاولی: توقیفیّة الأسماء ... ص: ۴۶ ---- ۲۸
النقطة الثانیة: الاعتبار فی المعارف ... ص: ۴۷ ---- ۲۹
النقطة الثالثة: عموم المولویّة فی المعارف ... ص: ۴۷ ---- ۲۹
النقطة الرابعة ... ص: ۴۸ ---- ۲۹
النقطة الخامسة ... ص: ۴۹ ---- ۳۰
قاعدة ضابطة المثل والتمثیل ... ص: ۵۲ ---- ۳۱
الأسماء والتوسّل ... ص: ۵۵ ---- ۳۲
نظام الأسماء الإلهیّة فی عالم الخلقة ... ص: ۵۹ ---- ۳۴
إشارات اخری فی البسملة ... ص: ۶۰ ---- ۳۴
(الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ ...) ص: ۶۳ ---- ۳۶
معانی الحمد ... ص: ۶۳ ---- ۳۶
جامعیّة الحمد ... ص: ۶۶ ---- ۳۷
المقارنة بین البسملة والحمد ... ص: ۶۷ ---- ۳۷
حقیقة الحمد والحسن والقبح العقلیّین ... ص: ۶۸ ---- ۳۸
(رَبِّ الْعالَمِینَ ...) ص: ۶۹ ---- ۳۸
سرّ الخلقة ... ص: ۷۱ ---- ۳۹
مَالِکِ یَوْمِ الدِّینِ ...) ص: ۷۱ ---- ۳۹
(یَوْمِ الدِّینِ ...) ص: ۷۵ ---- ۴۱

(الدِّينِ ...) ص: ۷۹ ---- ۴۲
(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ...) ص: ۸۲ ---- ۴۳
التوحيد فی العبادة والاستعانة ... ص: ۸۳ ---- ۴۴
(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّآ لِّينَ ...) ص: ۹۳ ---- ۴۸
الهداية عنوان للإمامة ... ص: ۹۷ ---- ۴۹
(الصِّرَاطَ ...) ص: ۹۸ ---- ۵۰
الهداية والضلال ... ص: ۱۱۴ ---- ۵۶
والإيمان وظاهر الإسلام ... ص: ۱۱۴ ---- ۵۶
المغضوب عليهم والمرضیّ عنهم ... ص: ۱۱۵ ---- ۵۶
ظاهرة التمذهب فی عصر الرسالة ... ص: ۱۱۷ ---- ۵۷
الولاء والبراءة ... ص: ۱۱۸ ---- ۵۷
المنهج المعرفی والمنهج الجاهلی ---- ۵۸
اشارة ---- ۵۸
الحروف المقطّعة ... ص: ۱۲۱ ---- ۵۸
اشارة ---- ۵۹
(ض ذ لِکَ الْكِتَابُ ...) ص: ۱۲۷ ---- ۶۰
معانی الکتاب ... ص: ۱۲۹ ---- ۶۱
اشارة ---- ۶۱
(لَارَيْبَ فِيهِ ...) ص: ۱۳۱ ---- ۶۲
المعلَم الأوّل: تجنّب الریب ... ص: ۱۳۲ ---- ۶۲
اشارة ---- ۶۲
(هُدىً لِلْمُتَّقِينَ ...) ص: ۱۳۵ ---- ۶۴
المعلَم الثانی ... ص: ۱۳۵ ---- ۶۴
اشارة ---- ۶۴

(الّذِینَ یُؤْمِنُونَ بِالْغَیْبِ ...) ص: ۱۴۰ ---- ۶۵
المعلَم الثالث: الإیمان بالغیب ... ص: ۱۴۰ ---- ۶۵
المعلَم الرابع: الهدایة وافتراقها عن عموم العلم ... ص: ۱۴۶ ---- ۶۸
اشارة ---- ۶۸
الغیب والانتظار ... ص: ۱۴۹ ---- ۶۹
اشارة ---- ۶۹
(وَیُقِیمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ یُنفِقُونَ ...) ص: ۱۵۱ ---- ۷۰
المعلَم الخامس: فی نهج المعرفة القرآنیّ شرطیّة العبادة فی قوّة الإدراک والبصیرة ... ص: ۱۵۲ ---- ۷۰
تکامل المعرفة الدینیّة بین النقد التاریخی وتقلید السلف ---- ۷۳
اشارة ---- ۷۳
تفسیر أوّل للآیة: التحریف الأموی لمعنی الآیة ... ص: ۱۶۱ ---- ۷۳
اشارة ---- ۷۳
قواعد مسؤولیّة الموقف تجاه أعمال الامم ... ص: ۱۶۲ ---- ۷۴
القاعدة الاولی ...: ص: ۱۶۲ ---- ۷۴
القاعدة الثانیة ...: ص: ۱۶۳ ---- ۷۴
القاعدة الثالثة ...: ص: ۱۶۴ ---- ۷۵
القاعدة الرابعة ...: ص: ۱۷۸ ---- ۸۰
القاعدة الخامسة ...: ص: ۱۷۹ ---- ۸۱
القاعدة السادسة ...: ص: ۱۷۹ ---- ۸۱
القاعدة السابعة ...: ص: ۱۸۲ ---- ۸۲
تفسیر ثانٍ للآیة: بطلان التقلید وضرورة الفحص والتحقیق ... ص: ۱۸۶ ---- ۸۴
اشارة ---- ۸۴
عدم حجّیّة النهج السلفی ... ص: ۱۸۹ ---- ۸۵
توسعة معنی التقلید فی القرآن ... ص: ۱۹۰ ---- ۸۵

التدافع بين تفسيرى الآية ... ص: ۱۹۱ ---- ۸۶
وجوب التمحيص فى سيرة الأنبياء فضلًا عن غيرهم ... ص: ۱۹۱ ---- ۸۶
عدم حجّيّة سيرة الأنبياء إلّابالتمحيص ... ص: ۱۹۲ ---- ۸۷
بطلان التقليد للتفكيک فى حساب الأعمال ... ص: ۱۹۳ ---- ۸۷
والتفكيک فى الوظائف والمسؤوليّات ... ص: ۱۹۳ ---- ۸۷
جدليّة تكامل المعرفة الدينيّة وبطلان التقليد للسلف ... ص: ۱۹۴ ---- ۸۸
بلوغ بعض أصحابهم عليهم السلام ذورة المعرفة ... ص: ۱۹۴ ---- ۸۸
المنهج التجريدى عن التقليدى ... ص: ۱۹۶ ---- ۸۸
المعرفة الدينيّة لا تقف عند حد ... ص: ۱۹۷ ---- ۸۹
تفسير ثالث للآية: الفخر المذموم والممدوح ... ص: ۱۹۸ ---- ۸۹
تقييم هذا المعنى ... ص: ۱۹۹ ---- ۸۹
إبادة حقائق القرآن بتحريف معانيه ... ص: ۲۰۰ ---- ۹۰
التشدّد والترهّب والرياضات غير المأثورة ---- ۹۰
اشارة ---- ۹۰
التشدّد والترهّب والرياضات غير المأثورة ... ص: ۲۰۵ ---- ۹۱
الابتداع والسنن الحسنة ... ص: ۲۲۶ ---- ۹۹
الانفاق بين العدل والإحسان ---- ۱۰۲
اشارة ---- ۱۰۲
الأوّل: أسباب النزول ... ص: ۲۲۴ ---- ۱۰۲
الثانى: مقام عباد اللّه فوق الأبرار ... ص: ۲۳۶ ---- ۱۰۳
الثالث: الميزان فى الإنفاق ... ص: ۲۴۱ ---- ۱۰۵
اشارة ---- ۱۰۵
الاولى: تدلّ على مطلق الايثار ... ص: ۲۴۲ ---- ۱۰۶
الثانية: ما يدلّ على التوسّط فى الإنفاق ... ص: ۲۴۳ ---- ۱۰۶

قاعدة: العموم والخصوص فی الفضائل ... ص: ۲۴۹ ---- ۱۰۸
الجهة الثانیة: الإیثار وإقامة العدل ... ص: ۲۵۲ ---- ۱۱۰
مقام أصحاب الأعراف ---- ۱۱۱
اشارة ---- ۱۱۱
۱- مَن هم أصحاب الأعراف ...؟ ص: ۲۵۷ ---- ۱۱۱
۲- أصحاب الأعراف: أصحاب المعرفة، وهم أهل البیت علیهم السلام ... ص: ۲۶۱ ---- ۱۱۳
۳- من مقوّمات الإمامة: الشهادة علی الأعمال ومقام الأعراف ... ص: ۲۶۴ ---- ۱۱۴
۴- النبیّ صلی الله علیه و آله إمام الأئمّة ... ص: ۲۶۸ ---- ۱۱۵
۵- أهل البیت الحکّام وولاة الحساب یوم الدین بإذن اللّه ... ص: ۲۶۹ ---- ۱۱۶
اشارة ---- ۱۱۶
أصحاب الأعراف أئمّة أصحاب الجنّة، والمستکبرون فی الأرض أئمّة أصحاب النار ... ص: ۲۷۸ ---- ۱۲۰
إمامة الرسول الأعظم ---- ۱۲۰
اشارة ---- ۱۲۰
إمامة الرسول الأعظم صلی الله علیه و آله ... ص: ۲۸۳ ---- ۱۲۰
خلود القرآن الکریم ---- ۱۲۲
اشارة ---- ۱۲۲
خلود القرآن الکریم ... ص: ۲۹۳ ---- ۱۲۳
عمومیّة موارد أسباب النزول ... ص: ۲۹۴ ---- ۱۲۴
امومة مرجعیّة القرآن وشمولیّته ... ص: ۲۹۵ ---- ۱۲۴
لیلة القدر واستمرار نزول القرآن ... ص: ۲۹۹ ---- ۱۲۶
تکرار أو تکرّر السنن التاریخیّة ... ص: ۳۰۱ ---- ۱۲۷
البحث المنهجیّ فی قراءات النصّ والنصّ القرآنی ... ص: ۳۰۳ ---- ۱۲۸
نظام الإعلام سلطة وسلاح ---- ۱۲۸
اشارة ---- ۱۲۸

الإفک ... ص: ۳۰۸ ---------- ۱۲۸

المسؤولیّة تجاه الإشاعة وإعلام السوء ... ص: ۳۱۱ ---------- ۱۳۰

تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ---------- ۱۳۲

تفسير ملاحم المحكمات

اشارة

عنوان و نام پديدآور : تفسير ملاحم المحكمات/ محمد السند

مشخصات نشر : قم: باقيات، ۱۴۳۰ق.=۲۰۰۹م.=۱۳۸۸.

مشخصات ظاهری : ۳۲۵ص.

وضعيت فهرست نويسی : در انتظار فهرستنويسی (اطلاعات ثبت)

يادداشت : الطبعه الاولی

شماره كتابشناسی ملی : ۲۰۳۹۲۸۱

[المدخل]

والصلاة والسلام على أفضل المبعوثين بالكتاب المهيمن، والهدى المبين، محمّد وعلى آله المصطفين، ورثة الكتاب.

وبعد:

فقد وفّق سبحانه لنشرع فی بحوث ودروس التفسير مع ثلّة من الأفاضل منذ سنة ۱۴۲۷ ه. ق، وكان منوال البحوث بالابتداء بسورة الحمد ثمّ سورة البقرة، وهو النهج التفسيری التسلسلی المعتاد الذی قد يعبّر عنه بالتفسير التجزيئی مقابل التفسير الموضوعی الذی يعتمد على وحدة الموضوع والمفردة التفسيريّة فی جملة السور القرآنيّة ليستخلص الرؤية القرآنيّة المتكاملة حول ذلك الموضوع الموحّد، والذی قد يصطلح عليه ب التفسير المفسّر للقرآن واستعانته بالقرآن مع هداية السنّة الشريفة.

ولكنّا اعتمدنا نهجاً آخر فی ضمن النهج التسلسلی ليضفی على البحوث تنوّعاً وحيويّة أكثر، وتلبية لسجالات فكريّة ساخنة فی الساحة العلميّة والعامّة، وهو نهج تفسير الآيات المحكمات، وهو يغاير كلّاً من التفسير التسلسلی التجزيئی والتفسير الموضوعی، ويمتاز عنهما فی جملة من الخواصّ، وما رامه المفسّر الكبير العلّامة الطباطبائی فی تفسيريه: البيان والميزان من بلورته النهج التفسيری للآيات القرآنيّة والذی ترشد إليه روايات أهل البيت عليهم السلام هو أشبه بالتفسير الموضوعی، بينما الذی يتراءى من تعليم وبيانات أهل البيت عليهم السلام فی الروايات هو تفسير المحكمات، وامتيازاته باقتضاب الفارقة له عنهما هو:

أوّلًا: أنّ فيه يتوخّى الآيات المحكمات المهيمنة على بقيّة الآيات، فهو وإن اشترك

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۸

مع التفسير الموضوعی من ناحية وحدة المفردة، إلّاأنّه يختلف عنه من جهة توخّی الموضوعة ذات الاستعلاء والاشراف على بقيّة الموضوعات.

ثانياً: أنّ الآيات المحكمات لها امومة ومرجعيّة لبقيّة الآيات والسور وسائر الآيات الاخرى التی هی لها مناسبة ما مع معناها، وإن اختلفت موضوعاتها.

ثالثاً: ضرورة ملاحظة الكتاب كلّه كمنظومة واحدة ذات ائتلاف وانسجام وتناسق فی منهج تفسير المحكمات، وهذا بخلاف التفسير الموضوعی المرسوم، فإنّ الوحدة تلحظ فی نطاق ضيّق، وهو عنوان الموضوع فقط، وبيان هذه الملاحظة الوسيعة هو عبر النظر إلى تداعيات الآية المحكمة على بقيّة الآيات المحكمة، وكذا العكس، أی تداعی تلك الآيات على الآية، فالنظر فی الترابط والرابطة فيما بينهما، وعبر النظر أيضاً فی طبقات مراتب هذه المحكمات كهرم أو سلالم متدرّجة تهيمن على بعضها البعض.

وقد أشار جملة من الأفاضل إلى فائدة نشر هذه الملاحم فی المحكمات كحلقات حتّى يتسنّى فيما بعد جمعها فی إصدار واحد، عسى

أن تكون مورد فائدة فى مسيرة المعرفة بالقرآن العزيز.

كما أنّ هناك قواعد عديدة فى اصول علم التفسير أو ما قد يصطلح عليه فى العلوم القرآنيّة قد تمّ تنقيحها فى سلسلة ندوات مستمرّة عسى أن نوفّق لتحريرها فى القادم الآتى إن شاء اللّه تعالى.

۲۰ جمادى الثانى ۱۴۲۹ ه. ق

مولد الصدّيقة الشهيدة عليها السلام

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۹

تفسير سورة الحمد

اشارة

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۱

(الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ* الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ* مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ* إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ* اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّآ لِّينَ)

الحمد للّهمنزّل السبع المثانى والقرآن العظيم، الذى أرسل محمّداً شاهداً ورحمةً للعالمين، صلّى اللّه عليه وعلى آله المطهَّرين، الذين يَمَسُّون الكتاب وهو كلّه آيات بيّنات فى صدورهم، اوتوا رسوخ العلم بتأويله ويتلونه حقّ تلاوته.

وبعد، فإنّ سورة الفاتحة وامّ الكتاب والسبع المثانى والحمد ذات الأسماء الجامعة هى برمّتها من محكمات السور، وآياتها امّ محكمات الكتاب، فمن ثَمّ كانت مداراً للسور تحوم حولها، ومحكمها مركز محكمات الآيات، فإنّ الإحكام طبقات ودرجات شدّةً وضعفاً، فكما أنّ المتشابهات تعرض على المحكمات لاستبيان معانيها، فكذلك المحكمات تعرض على الأشدّ إحكاماً فيها والأشدّ على أشدّ الأشدّ، وهلمّ جرّاً إلى أن تصل إلى امّ المحكمات وهى امّ الكتاب كمحور مركزىّ للمحكمات، فمن ثَمّ كانت سورة الفاتحة عِدل الكتاب كلّه وفاتحته وامّه ومجمع الأسماء وأعظمها والصفات وجمعها وهو الحمد.

ولذلك كان الابتداء بتفسيرها لازماً، سواء فى المنهج التسلسلى أو الموضوعىّ أو نهج المحكمات، وقد احتوت على اصول العلوم والقواعد والمعارف القرآنيّة،

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۲

واستخرج من إشارات الألفاظ والتراكيب فيها جمل غير متناهية من الاسس ولا زالت قوافل التفسير الخاصّة بسورة الحمد تطالع الباحث القرآنىّ جيلًا بعد جيل، فهناك جهات جمّة غفيرة من البحث فى السورة، إلّاأنّا نقتصر على نبذة منها، وسنتدرك ما بقى فى ضمن ملاحم تفسيريّة اخرى للمحكات، إن شاء اللّه تعالى بالإشارة إلى مواضعها من آىالسورة.

وفى البدء نتعرّض إلى أهمّ جهة فى السورة وهى آية البسملة وهى فاتحة آيات سورة الفاتحة، وهى أعظم آية فى الكتاب، حيث جمع الكتاب فى سورة الحمد، وجمعت سورة الحمد فى آية البسملة، كما ورد فى الرواية الآتى ذكرها. فالبسملة اسُّ لُامّ الكتاب قد احتوت من مجامع أسرار الكتاب مقام جمع الجمع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)

إنّ جملة من القرّاء نسب إليهم أنّهم لا يقرؤون بالبسملة فى بدايات السور («۱»)، فهذا ممّا يخدش فى دعوى القطع بالجزئيّة، والجواب: إنّ الرسم القرآنى- كما مرّ- بنفسه دليل يقينىّ أخذه المسلمون يداً بيد. وهذا الدليل اليقينى لا يناهضه بعض القراءات. لأنّها- وكما هو الصحيح- ثبوتها ظنّى، فلا يدافع ما هو يقينى.

وقد يشكل بأنّ القراءات إذا كانت ظنّيّة فكيف يؤخذ بها وتلصق بما هو يقينى وهو القرآن الكريم، وهذا الكلام يشمل المأثور من قراءة أهل البيت عليهم السلام ولماذا لا تجعل القراءة المتداولة فى المصحف الشريف هى المتعيّنة دون

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۳

القراءات المظنونة؟

والجواب: إنّ القراءات رغم كونها ظنّيّة، فإنّ ما يعالج بها كيفيّة الاستظهار من آىالقرآن الكريم، والقطع بصدور هذه الألفاظ من الوحى لا ينافى كون عمليّة الاستظهار بما تشتمل عليه من تحديد المعنى الاستعمالى ومدارج المعنى التفهيمى ومراتب المعنى الجدّى؛ هى عمليّة ظنّيّة تعتمد على قواعد الأدب واللغة فى كيفيّة الاستظهار، فالقراءات بمثابة قرائن ظنّيّة، إذا تمّ اعتبار تلك الظنون فيعوّل عليها فى الاستظهار، ومنه يظهر أنّ القراءة الصوتيّة المتداولة بين المسلمين وإن كانت قطعيّة، إلّاأنّ كيفيّة تلك القراءة من مواضع الوصل والفصل وغيرهما لتحديد كيفيّة الإعراب والصلة ونحوها؛ ليست قطعيّة.

وبعبارة اخرى: هناك مساحة يقينيّة فى ألفاظ القرآن الكريم لا تتنافى مع وجود بعض المساحات الظنّيّة، ويكون منطلق المساحة الظنّيّة بعد المساحة اليقينيّة، ومن ثمّ بحث فى علم اصول الفقه عن القراءات فى ذيل حجّيّة ظهور القرآن وحجّيّة الظنون الخاصّة.

المقام الأوّل: أدلّة الجزئيّة ... ص: ۱۳

الدليل الأوّل ...: ص: ۱۳

التسالم بين المسلمين بنحو قطعىّ يقينىّ جيلًا بعد آخر على تدوين البسملة فى أوائل السور، وهذا التدوين والرسم القرآنى من أمتن منابع القطع بالمصحف الشريف بين المسلمين، ونظيره القراءة المحفوظة فى الصدور جيلًا بعد جيل ويداً بيد، فإنّهما أيضاً من المنابع القطعيّة اليقينيّة لألفاظ القرآن الكريم، فإنّ هذه الكتابة المنقوشة للمصحف الشريف، والقراءة المحفوظة فى صدورهم، كلّها قائمة على البدء بالبسملة فى أوائل السور، وبإزاء هذا الدليل اليقينىّ لا ترفع

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۴

اليد لأجل احتمالات اقتراحيّة لا تناهض قوّة هذا الدليل، ولا ترفع اليد عنه إلّا بدليل قوىّ بدرجته، ومن ثمّ وقع الإجماع القطعىّ بين الامّة على أنّ نسخ التلاوة لا يصار إليه إلّابدليل قطعىّ، وذلك نظير نسخ الأحكام فى الآيات، حيث لا يصار إليه إلّابدليل قطعىّ، وما أشبه دعوى ومقالة عدم قرآنيّة البسملة بنسخ التلاوة بل هى هى، ومن ثمّ نقل الفخر الرازى («۱») عن أبى حنيفة تخوّفه فى هذه المسألة، وأنّ الأوْلى السكوت عنها، والصحيح لزوم الإقرار بها والتعمية والإبهام، فإنّ مقتضى الأدلّة القطعيّة الأخذ بها لا الصدّ عنها.

وقد احتجّ ابن عمر كما فى رواية البيهقى على جزئيّتها بتدوينها فى المصحف الشريف.

وفى رواية «مستدرك الحاكم النيسابورى» («۲») أنّ المهاجرين استنكروا على معاوية عدم الجهر ببسم اللَّه الرحمن الرحيم فى السورة فى الصلاة بأنّه نقص من الصلاة.

الدليل الثانى ...: ص: ۱۴

التسالم بين المسلمين- قولًا وعملًا- على أنّ البسملة نزل بها الوحى فى مطلع سورة الحمد، وكذلك فى مطلع كلّ سورة، وهذا تسالم مورده وجود البسملة فى قناة الوحى فضلًا عن القرآن المدوّن والمحفوظ، والتكلّف باحتمالات مبتدأة ومقترحة لا تناهض هذا التسالم، لا سيّما أنّه صلى الله عليه و آله كان يتقيّد بحرفيّة ما فى قناة الوحى حتّى أنّ لفظة «قل» فى السور الأربع وغيرها، تقيّد بها صلى الله عليه و آله كما جاءت فى ألفاظ الوحى، لشدّة متابعته صلى الله عليه و آله لعين ما اوحى إليه.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۵

الدليل الثالث ...: ص: ۱۵

اتّفاق الإماميّة، حيث قال الشيخ فى «الخلاف» («۱»). دليلنا إجماع الفرقة، وقد بيّنا أنّ إجماعها حجّة، وقال فى «التبيان»: «عندنا آية من الحمد ومن كلّ سورة، بدلالة إتيانهم فى المصاحف بالخطّ الذى كتب به المصحف» («... ۲»).

وقد حكى الفقهاء فى مبحث القراءة من كتاب الصلاة كلمات جلّ المتقدّمين ودعواهم الإجماع على أنّها آية من كلّ سورة، وذلك ك «نهاية الإحكام» و «السرائر» و «جامع المقاصد» و «المعتبر» و «الذكرى» («۳»).

الدليل الرابع ...: ص: ۱۵

الروايات المستفيضة إن لم تكن متواترة عن أهل البيت عليهم السلام:

محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد، عن علىّ بن مهزيار، عن يحيى بن أبى عمران الهمدانى، قال: «كتب إلى أبى جعفر عليه السلام: جعلت فداك، ما تقول فى رجل ابتدأ ببسم اللَّه الرحمن الرحيم فى صلاته وحده فى امّ الكتاب، فلمّا صار إلى غير امّ الكتاب من السورة تركها، فقال العبّاسى: ليس بذلك بأس.

فكتب بخطّه يعيدها مرّتين: على رغم أنفه- يعنى العبّاسى-» («۴»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۶

محمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد، عن الحسين بن سعيد، عن القاسم بن محمّد، عن صفوان الجمّال، قال: «صلّيت خلف أبى عبداللَّه عليه السلام أيّاماً، فكان إذا كانت صلاة لا يجهر فيها جهر ببسم اللَّه الرحمن الرحيم، وكان يجهر فى السورتين جميعاً» («۱»).

وروى البيهقى عن أبى هريرة: «كان رسول اللَّه يجهر فى الصلاة ببسم اللَّه الرحمن الرحيم» («۲»).

علىّ بن إبراهيم، عن محمّد بن عيسى، عن يونس، عن معاوية بن عمّار، قال: «قلت لأبى عبداللَّه عليه السلام: إذا قمت للصلاة، اقرأ بسم اللَّه الرحمن الرحيم فى فاتحة القرآن؟

قال: نعم.

قلت: فإذا قرأت فاتحة القرآن، أقرأ بسم اللَّه الرحمن الرحيم مع السورة؟

قال: نعم» («۳»).

عن صفوان الجمّال، قال: «قال أبو عبداللَّه عليه السلام: ما أنزل اللَّه من السماء كتاباً إلّا وفاتحته بسم اللَّه الرحمن الرحيم، وإنّما كان يُعْرَف انقضاء السورة بنزول بسم اللَّه الرحمن الرحيم ابتداءً للُاخرى» («۴»).

عن أبى حمزة، عن أبى جعفر عليه السلام، قال: «سرقوا أكرم آية فى كتاب اللَّه: بسم اللَّه

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۷

الرحمن الرحيم» («۱»).

وفى صحيحة عمر بن اذينة، والأحول، وسدير الصيرفى، والسدّى، وهى كالمقطوع فى صدورها، عن أبى عبداللَّه عليه السلام فى رواية المعراج المعروفة:

«فلمّا فرغ من التكبير والافتتاح قال اللَّه عزّ وجلّ: الآن وصلت إلىَّ، فسمِّ باسمى، فقال: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)، فمن أجل ذلك جعل بسم اللَّه الرحمن الرحيم فى أوّل كلّ سورة.

ثمّ قال: احمدنى، فقال: (الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ)، وقال النبىّ صلى الله عليه و آله فى نفسه: شكراً.

فقال اللَّه تعالى: يا محمّد، قطعت حمدى، فسمِّ باسمى، فمن أجل ذلك جعل فى الحمد (الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) مرّتين.

فلمّا بلغ (وَلَا الضَّآ لِّينَ) قال النبىّ صلى الله عليه و آله: الحمد للَّهربّ العالمين شكراً، فقال اللَّه العزيز الجبّار: قطعت ذكرى، فسمِّ باسمى.

فقال: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)، فمن أجل ذلك جعل (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) بعد الحمد فى استقبال السورة الاخرى، فقال له: اقرأ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)» («۲»).

عن يونس بن عبدالرحمن، عمّن رفعه، قال: «سألت أبا عبداللَّه عليه السلام:

(وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِى وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) («۳»).

قال: هى سورة الحمد، وهى سبع آيات، منها: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)،

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۸

وإنّما سمّيت المثانى لأنّها تُثنّى فى الركعتين» («۱»).

عن أبى حمزة، عن أبى جعفر عليه السلام، قال: «كان رسول اللَّه يجهر ب (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) ويرفع صوته بها، فإذا سمعها المشركون ولّوا مدبرين، فأنزل اللَّه:

(وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً) («۲»)» («۳»).

عن عيسى بن عبداللَّه، عن أبيه، عن جدّه، عن علىّ عليه السلام، قال: «بلغه أنّ اناساً ينزعون (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)، فقال: هى آية من كتاب اللَّه، أنساهم إيّاها الشيطان» («۴»).

وبإسناده عن محمّد بن علىّ بن محبوب، عن العبّاس، عن محمّد بن أبى عمير، عن أبى أيّوب، عن محمّد بن مسلم، قال: «سألت أبا عبداللَّه عليه السلام عن السبع المثانى والقرآن العظيم، أهى الفاتحة؟

قال: نعم.

قلت: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) من السبع؟

قال: نعم، هى أفضلهن» («۵»)..

موثّقة هارون، عن أبى عبداللَّه عليه السلام، قال: «قال لى: كتموا (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) فنعم واللَّه الأسماء كتموها.

كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إذا دخل إلى منزله واجتمعت عليه قريش، يجهر ب (بِسْمِ اللَّهِ

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۹

الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) ويرفع بها صوته، فتولّى قريش فراراً، فأنزل اللَّه عزّ وجلّ فى ذلك:

(وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً) («۱»)» («۲»).

ولا يخفى لطف مفاد هذه الرواية، فإنّها تشير إلى أنّ هذه الآية من سورة الإسراء ناصّة على كون البسملة جزءً من القرآن، وغيرها من الروايات («۳»).

وقد يعترض بأنّ الترقيم فى بقيّة السور فى تدوين المصحف ليس على جعل البسملة آية مستقلّة.

والجواب: أوّلًا: إنّها مدوّنة فى أوائل السور، كما أنّها مفصولة فى ترتيب الجملة عن الآية التى تليها. غاية الأمر أنّ الترقيم لا يبعد أنّه حادث لا بمعنى أصل التعداد وإنّما بمعنى الفرز والترقيم.

ثانياً: إنّ غاية عدم الترقيم هو عدم استقلاليّتها لا عدم جزئيّتها للقرآن وللسور.

ويكفى فى إثبات استقلاليّتها الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، فإنّ فرز الآيات من قبيل البحث فى القراءات والوصل والفصل فى تراكيب الآيات.

الدلیل الخامس ...: ص: ۱۹

اشارة

إنّه قد تسولم علی أنّ ترکیب (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ) هو من الوحی النازل من القرآن الکریم، فهو لیس ترتیب وإنشاء بشری، بل ترکیب وَحْیانی، والأکثر عندهم أنّها من سورة الفاتحة، فإذا کرّرت فی بقیّة السور، فلا محالة یکون

تفسیر ملاحم المحکمات، ص: ۲۰

ذکرها هو ذکر لآیة قرآنیّة. غایة الأمر أنّه ذکر لآیة قرآنیّة من فاتحة الکتاب فی بقیّة السور.

وهذا یعزّز أنّها قرآنیّة أینما ذکرت. غایة الأمر أنّهم یدّعون أنّها اقتباس من سورة الفاتحة، وأنّها تُکرّر فی بقیّة السور وأنّها لیست منها.

وهذا الاحتمال فیه من التکلّف ما یدفعه مقتضی التکرار من کونها بعض من تلک السور، ومن ثَمّ تکون النیّة عند قراءتها فی مطلع کلّ سورة بنیّة تلک السورة لا بنیّة فاتحة الکتاب.

وهناک شواهد ودواعم کثیرة علی الجزئیّة یمکن أن یقف علیها المتأمّل والمتدبّر، کالتأکید علی الجهار بها إعلاناً وإعلاماً بها، وکذلک ما ذکر لها من فضل عظیم وقدر کبیر لا یتناسب إلّامع کونها آیة من القرآن العزیز، وکذلک ما ذکر لها من معانی عظیمة وشریفة دالّة علی امومة هذه الآیة لما اشتملت من امّهات الأسماء والصفات للآیات الاخری، لما اشتملت علیه من أسماء وصفات اخری.

تذییل ... ص: ۲۰

یظهر من الروایات الواردة فی سبب نزول قوله تعالی: (وَإِذَا ذَکَرْتَ رَبَّکَ فِی الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَی أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً) («۱») فقد مرّت موثّقة هارون عن أبی عبداللَّه علیه السلام أنّ قریشاً کانت تتحسّس من البسملة، والظاهر أنّها تعتبرها رمزاً للملّة.

وروی العیّاشی عن زرارة، عن أحدهما علیهما السلام، قال فی (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ) قال: هی أحقّ ما جُهر به فاجهر به، وهی الآیة التی قال اللَّه تعالی:

(وَإِذَا ذَکَرْتَ رَبَّکَ فِی الْقُرْآنِ وَحْدَهُ- (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ)- وَلَّوْا عَلَی

تفسیر ملاحم المحکمات، ص: ۲۱

أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً)».

کان المشرکون یستمعون إلی قراءة النبیّ صلی الله علیه و آله، فإذا قرأ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ) نفروا وذهبوا، فإذا فرغ منه عادوا وتسمّعوا».

وفی روایة العیّاشی عن زید بن علیّ، قال: «دخلت علی أبی جعفر علیه السلام فذکر (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ)، فقال: تدری ما نزل فی (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ)؟ فقلت: لا.

فقال: إنّ النبیّ صلی الله علیه و آله کان أحسن الناس صوتاً بالقرآن، وکان یصلّی بفناء الکعبة، فرفع صوته، وکان عتبة بن ربیعة وشیبة بن ربیعة وأبو جهل بن هشام وجماعة منهم یسمعون قراءته، قال: وکان یکثر قراءة (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ) فیرفع بها صوته.

قال: فیقولون: إنّ محمّداً لیردّد اسم ربّه تردداً، إنّه لیحبّه، فیأمرون مَن یقوم فیستمع إلیه ویقولون: إذا جاز (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ) فأعلمنا حتّی نقوم فنستمع قراءته، فأنزل اللَّه فی ذلک: (وَإِذَا ذَکَرْتَ رَبَّکَ فِی الْقُرْآنِ وَحْدَهُ- بسم اللَّه الرحمن الرحیم- وَلَّوْا عَلَی أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً)».

فيظهر من هذه الروايات شدّة تحسّس قريش من البسملة، كيف لا وهى شعار الملّة، وفاتحة الوحى النازل من السماء، والقصّة معروفة فى صلح الحديبيّة فى الكتاب الذى كتب بين النبيّ صلى الله عليه و آله وقريش، حيث مانعوا من كتابة «البسملة» إلى كتابة «بسمك اللّهمّ».

وفى بعض الروايات أنّ هذا التحسّس بقى فى جملة من قريش، حيث روى العيّاشى عن منصور بن حازم، عن أبى عبداللّه عليه السلام، قال: «كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله إذا صلّى بالناس جهر ب (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)، فتخلّف مَن خلفه من

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۲

المنافقين، فإذا جازها فى السورة عادوا إلى مواضعهم، وقال بعضهم لبعض: إنّه ليردّد اسم ربّه ترداداً، إنّه ليحبّ ربّه، فأنزل اللّه: (وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً)» («۱»).

فيظهر منها أنّ المنافقين كان لديهم نفس النفور الذى كان لدى قريش، وذكر الفخر الرازى فى تفسيره أنّ عليّاً عليه السلام كان يبالغ فى الجهر بالتسمية، فلمّا وصلت الدولة إلى بنى اميّة بالغوا فى المنع من الجهر سعياً فى إبطال آثار علىّ عليه السلام، فلعلّ أنساً خاف منهم، أى حينما سئل عن الجهر ب (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)، حيث اضطربت الرواية فى أقواله فيه.

وفى تفسير علىّ بن إبراهيم، عن ابن أبى اذينة، قال: «قال أبو عبداللّه عليه السلام:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) أحقّ ما جُهر به، وهى الولاية التى قال اللّه عزّ وجلّ:

(وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً)» («۲»).

وهذه الرواية تشير إجمالًا إلى منشأ تحسّس المشركين وقريش من البسملة، وإلى منشأ بقاء تحسّسهم تجاهها بعد إسلامهم أيضاً، وسيأتى فى معنى البسملة ما يمكن أن يكون تفسيراً لذلك.

المقام الثانى: أسباب نزول الفاتحة ... ص: ۲۲

اشارة

قد تعرّضت جملة من الآيات لسورة الحمد، منها ما مرّ من قوله تعالى فى سورة الإسراء: (وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً) («۳»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۳

وكذلك قوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) («۱»).

وقوله تعالى: (وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ) («۲»).

وقد ظهر ممّا مرّ من الروايات فى جزئيّة البسملة أنّ السورة نزلت فى مكّة، وأنّ النبيّ صلى الله عليه و آله كان يقرأ بها فى صلاته. ولا يبعد ظهور تلك الروايات أنّها نزلت فى أوائل البعثة، ولا سيّما أنّها تثنّى فى الصلاة.

وروى الكلينى فى «الكافى» عن فرات بن أحنف، عن أبى جعفر عليه السلام، قال: «سمعته يقول: أوّل كلّ كتاب نزل من السماء (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)» الحديث («۳»).

ومقتضى هذه الرواية أنّ أوّل آية نزلت فى القرآن الكريم هى البسملة.

نتف معانى سورة الحمد ... ص: ۲۳

ما روى فى «عيون أخبار الرضا عليه السلام» عن الاسترآبادى عن العسكرى، عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليهم السلام، قال: «قال

رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: قال اللَّه عزّ وجلّ: قسّمت فاتحة الكتاب بينى وبين عبدى، فنصفها لى، ونصفها لعبدى، ولعبدى ما سأل» («۴»).

وهذا بيّن أنّ فى سورة الحمد دلالة على آداب وناموس الدعاء بأن تبدأ فيه بالثناء على اللَّه عزّ وجلّ، ثمّ يسأل العبد مسألته، وسيأتى أنّ من أعاظم مسائل العبد الهداية إلى ولاية أولياء اللَّه والبراءة من أعدائه.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۴

القراءة فى روايات أهل البيت عليهم السلام ... ص: ۲۴

روى القمّى فى الصحيح الأعلائى عن حريز، عن أبى عبداللَّه عليه السلام: «أنّه قرأ (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ* صِرَاطَ مَنْ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَغَيْرِ الضَّآ لِّينَ)»، الحديث («۱»).

وقد أشار إلى ذلك الطبرسى فى «مجمع البيان» («۲»).

المقام الثالث: فضل سورة الفاتحة وأسمائها (موقعيّتها ...) ص: ۲۴

اشارة

روى السيّارى فى كتاب التنزيل والتحريف عن أبى عبداللَّه الحسين عليه السلام فى قوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِى وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) («۳»): (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) هو اسم اللَّه الأكبر، والسبع المثانى امّ الكتاب، يثنّى بها فى كلّ صلاة» («۴»).

وروى السيّارى عن علىّ بن الحكم، عن محمّد بن فضيل، عن سعد بن عمر الجلّاب، قال: «سألت أبا عبداللَّه عليه السلام عن قول اللَّه جلّ ذكره: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِى وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ)، قال: فاتحة الكتاب.

قلت: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) منها؟

قال: هى أفضلها لفضل منها (هى أفضل منها)» («۵»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۵

روى الصدوق فى «العيون» و «الأمالى» كما روى فى تفسير العسكرى عن المفسّر الاسترآبادى، عن العسكرى عليه السلام، عن أمير المؤمنين عليه السلام- فى حديث- قال: «قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) أهى من فاتحة الكتاب؟

فقال: نعم، كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقرأها ويعدّها آية منها، ويقول: فاتحة الكتاب هى السبع المثانى ... فضّلت ب (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)، وهى الآية السابعة منها» («۱»).

وروى الصدوق أيضاً فى «العيون» و «الأمالى» عن الاسترآبادى، عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «إنّ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) آية من فاتحة الكتاب، وهى سبع آيات تمامها (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)، سمعت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقول:

إنّ اللَّه عزّ وجلّ قال: يا محمّد، (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِى وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ)، فأفرد الامتنان علَىَّ بفاتحة الكتاب، وجعلها بأزاء القرآن العظيم، وأنّ فاتحة الكتاب أشرف ما فى كنوز العرش، وأنّ اللَّه عزّ وجلّ خصّ محمّداً وعترته بها ولم يشرك معه فيها أحداً من أنبيائه ما خلا سليمان، فإنّه أعطاه منها (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ).

ألا ترى أنّه يحكى عن بلقيس حين قالت: (إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ* إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) («۲»)» («۳»).

بيان: إنّ أهمّيّة بيان فضائل السورة أو أىّ سورة، هو لبيان موقعيّة تلك السورة التى تمتاز بها من بين بقيّة السور فى القرآن الكريم،

ولا سيّما أنّ كلّ سورة

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۶

ترسم وتأخذ موقعيّة من مواقع ومنازل القرآن الكريم بعد كون القرآن ذو منازل ومقامات تكوينيّة، وسيأتى تفصيل ذلك لاحقاً، والمتحصّل من الآيات والروايات السابقة عدليّة سورة الفاتحة لكلّ الكتاب العزيز، ممّا يشير إلى جمع الكتاب العزيز كلّه فيها، وهذا ما يشير إليه تسميتها بامّ الكتاب، أى أصله، ومن ثمّ لا يبعد أنّها تمثّل منزلة الكتاب العزيز فى موقع امّ الكتاب فى قوله تعالى:

(يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) («۱»)، فهى منزلة من ذلك الموقع، كما أنّ هذا يعطى أهمّيّة لموقعيّة الفاتحة كمحور مهيمن فى دلالتها ومؤدّياتها على سائر السور القرآنيّة، وكما أنّ المحكمات لها اومة على المتشابهات، وتعطف المتشابهات على المحكمات، وكذلك بقيّة السور، لا بدّ أن يعطف مؤدّاها على مؤدّى سورة الفاتحة كمحو لها، وهذا ممّا يعطى أهمّيّة الخوض فى مفاد هذه السورة أو معانيها ونتفها وإشاراتها ولطائفها.

كما أنّ ذلك الموقع مقدّر للبسملة أيضاً، فإنّه إذا كانت البسملة أفضل آيات السورة فيعطى ذلك ما اشتهر من أنّ ما فى الفاتحة مجموع فى البسملة. وهذا مؤكّد بما مرّ فى جزئيّة البسملة من كونها أعظم آية فى القرآن.

اعتراض وجواب ... ص: ۲۶

وقد يعترض بأنّه قد روى أنّ سورة الفاتحة ممّا اختصّ اللَّه بها نبيّه محمّداً وعترته، حيث أنّهم ورثوا الكتاب بعده، ولم يعط اللَّه أحداً من أنبيائه، إلّا سليمان، فأعطاه منها البسملة، وحينئذٍ إذا كانت البسملة جامعة لسورة الفاتحة، وسورة الفاتحة جامعة للقرآن، فقد اعطى القرآن لسليمان، لا سيّما

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۷

وأنّ القرآن ممّا اختصّ اللَّه به سيّد الأنبياء.

الجواب: إنّ لكلّ سورة وآية مدارج من البطون ومنازل ومواقع متعدّدة كثيرة، بل هذا هو حال الكثير من الأشياء، فضلًا عن القرآن الكريم، فإذا اعطينا منزلة من تلك المنازل النازلة فلا يعنى ذلك إعطاءه كلّ المنازل، ولا سيّما أعلاها، كما سيأتى فى سورة البقرة من الفرق بين تعليم اللَّه اللدنى الإيتائى الأسماء لآدم، وتعليم آدم الأسماء للملائكة الإنبائى، فإنّه فرق شاسع بين التعليم اللدنى للشىء، وبين الإنباء بذلك الشىء، ومن ثمّ لم يصل الملائكة إلى مقام آدم بعد إنبائهم بالأسماء.

روى الصدوق فى «ثواب الأعمال» عن البطائنى، عن أبى عبداللَّه عليه السلام، قال:

«إنّ اسم اللَّه الأعظم مقطّع فى امّ الكتاب» («۱»).

ورواها العيّاشى فى تفسيره («۲»).

وروى الصدوق فى «العيون» بإسناده إلى محمّد بن سنان إلى الرضا عليه السلام، قال:

«إنّ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) أقرب إلى اسم اللَّه الأعظم من سواد العين إلى بياضها» («۳»).

وروى الشيخ فى «التهذيب» بسنده عن الكاهلى، عن أبى عبداللَّه عليه السلام، عن أبيه عليه السلام، قال: «(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) أقرب إلى اسم اللَّه الأعظم من ناضر العين إلى بياضها» («۴»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۸

وروى العيّاشى عن سليمان الجعفرى، قال: «سمعت أبا الحسن عليه السلام- فى حديث- أنّه قال عليه السلام: «وأىُّ آية فى كتاب اللَّه أكرم من (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)» («۱»).

ولكن فى «بحار الأنوار» روى عن العيّاشى: «وأىُّ آية فى كتاب اللَّه أعظم؟

فقال: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)» («۲»).

وروى السيّد ابن طاووس فى «مهج الدعوات» بإسناده إلى محمّد بن الحسن الصفّار من كتاب فضل الدعاء، بإسناده إلى معاوية بن عمّار، عن الصادق عليه السلام، قال: «(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) اسم اللَّه الأكبر- أو قال: الأعظم-» («۳»).

وقد تقدّمت الإشارة إلى رواية «تفسير القمّى» عن ابن اذينة من كون البسملة هى الولاية، وسيأتى التعرّض لذلك فى معنى الآية.

بيان: وهذه الروايات اللاحقة أيضاً تدعم انطواء القرآن فى الفاتحة واومتها له، كما تدعم أفضليّة البسملة فى الفاتحة.

وروى الصدوق فى «الأمالى» بسنده عن الحسن بن علىّ عليه السلام، عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى ثواب من قرأ الفاتحة، قال: «قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: من قرأ فاتحة الكتاب أعطاه اللَّه بعدد كلّ آية نزلت من السماء فيجزى بها ثوابها» («۴»).

وفى «تفسير القمّى»: عن أبى بصير، عن أبى عبداللَّه عليه السلام: «إنّ قوله تعالى:

(وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ) («۱») إشارة إلى فاتحة الكتاب، حيث إنّها امّ الكتاب» («۲»).

وروى القمّى فى تفسيره فى الموثّق عن علىّ بن عقبة، عن أبى عبداللَّه عليه السلام، قال: «إنّ إبليس رنّ رنيناً لمّا بعث اللَّه نبيّه على حين فترة من الرسل، وحين انزلت امّ القرآن» («۳»).

وروى البرقى فى «المحاسن» بطرق عديدة عن أبى عبداللَّه عليه السلام، قال:

«إذا توضّأ أحدكم ولم يسمّ كان للشيطان فى وضوئه شرك، وإن أكل أو شرب أو لبس وكلّ شىء صنعه ينبغى له أن يسمّى عليه، فإن لم يفعل كان للشيطان فيه شرك» («۴»).

ورويت روايات متعدّدة أنّ نسيانها يوجب الحوبة.

وروى الشعرانى فى «لطائف المنن» عن علىّ بن أبى طالب رضى اللَّه عنه، وكرّم وجهه أنّه كان يقول: «لو شئت لأوقرت لكم ثمانين بعيراً فى معنى (الباء)» («۵»).

وروى القندوزى الحنفى فى «ينابيع المودّة»، قال ابن عبّاس: «أخذ بيدى الإمام علىّ ليلة فخرج بى إلى البقيع، وقال: اقرأ يابن عبّاس، فقرأت (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)، فتكلّم فى أسرار الباء إلى بزوغ الفجر» («۶»).

وروى هو أيضاً عن «الدرّ المنظوم»: «أنّ جميع أسرار الكتب السماويّة فى القرآن، وجميع ما فى القرآن فى الفاتحة، وجميع ما فى الفاتحة فى البسملة، وجميع ما فى البسملة فى باء البسملة، وجميع ما فى باء البسملة فى النقطة التى هى تحت الباء.

قال الإمام علىّ كرّم اللَّه وجهه: أنا النقطة التى تحت الباء» («۱»).

وروى عن جعفر الصادق رضى الله عنه أنّه قال: «البسملة تيجان السور» («۲»).

مفاد البسملة اللغوى والأدبى ... ص: ۳۱

فقيل فى الاسم أنّه من (السمة) و (الوسم) وهى العلامة، ومنه وسيم، وإلى هذا يشير ما رواه الصدوق فى «التوحيد» عن الرضا عليه السلام، قال: «سألت الرضا علىّ بن موسى عليه السلام عن (بِسْمِ اللَّهِ)، قال: معنى قول القائل (بِسْمِ اللَّهِ) أى السمو على نفسى سمة من سمات اللَّه عزّ وجلّ، وهى العبادة.

قال: فقلت له: ما السمة؟

فقال: العلامة» («۳»). («۴»)

وروى الصدوق عن العسكرى فى قول اللَّه عزّ وجلّ: (بِسْمِ اللَّهِ) «أى أستعين على امورى كلّها باللَّه الذى لا تحقّ العبادة إلّاله»... الحديث («۱»).

استدراك: «وقيل: الباء بمعنى الإلصاق أو المصاحبة، وقيل: إنّه متعلّق بأفتتح فجعل المقدّر بالباء أستعين أو أتبرّك.

وقيل: إنّه من (السمو) أى العلوّ والارتفاع على وزن (أفع)، لأنّ الاسم تنويه وذكر ورفعة، فإنّه إذا ذكر الاسم سبب رفعة للمسمّى بذكره وتنويهه.

ومن ثمّ يقال: (سَمَيْتُ).

ويحتمل أنّ أحدهما مقلوب من الآخر ... ومقتضى الأصل فى الاستعمال جواز إرادة كلّ من المعنيين كما أنّ مقتضى الفائدة فى الاستظهار استفادة كلا المعنيين لا سيّما فى باب التأويل، كما ورد نظير ذلك فى تعليم النبىّ الاستظهار من معنى (وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) («۲»)، حيث حمل معنى الخليل على كلّ من (الخَلّة والخُلّة)» («۳»).

أمّا لفظ الجلالة، قيل: إنّه علم للذات المقدّسة الجامعة لجمع الكمالات، المنزّه عن النقائص.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۳۲

وقيل: إنّه مشتقّ من ال (إله) وهو من الوله.

وقيل: إنّ (أله) من السكون أو الاحتجاب.

وروى الصدوق فى «التوحيد» عن العسكرى عليه السلام: «اللَّه قال هو الذى يتألّه إليه عند الحوائج والشدائد كلّ مخلوق عند انقطاع الرجاء من جميع من هو دونه، وتقطع الأسباب من كلّ من سواه» («۱»).

وفى رواية الكلينى عن الصادق عليه السلام، عن هشام بن الحكم أنّه سأل أبا عبداللَّه عليه السلام عن أسماء اللَّه واشتقاقها، اللَّه ممّا هو مشتقّ؟

قال: فقال لى: يا هشام، اللَّه مشتقّ من (إله) والإله يقتضى مألوهاً» ... الحديث («۲»).

وقيل: مشتقّ من (لاه) وهو الشىء المرتفع.

وقيل: وله من تحيّر.

وقيل: (لاه) بمعنى احتجب، وأَلِهَهُ: سكن إليه من ألهت فلاناً.

وروى الصدوق فى «التوحيد» بسنده عن الباقر، عن أبيه، عن أمير المؤمنين عليهم السلام، قال: «قال أمير المؤمنين: اللَّه معناه المعبود الذى يأله فيه الخلق ويؤله إليه واللَّه هو المستور عن درك الأبصار، المحجوب عن الأوهام والخطرات».

قال الباقر عليه السلام: «اللَّه معناه المعبود الذى أله الخلق عن درك ماهيّته والإحاطة بكيفيّته».

ويقول العرب: أله الرجل إذا تحيّر بالشىء فلم يحط به علماً.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۳۳

وله إذا فزع إلى شىء ممّا يحذره ويخافه، فالإله هو المستور عن حواسّ الخلق («۱»).

وروى الكلينى بسنده عن أبى الحسن موسى بن جعفر عليه السلام، قال: «سأل عن معنى: اللَّه، قال: استولى على ما دقّ وجلّ» («۲»).

ولكنّ المجلسى ذكر أنّ الخبر سقط منه شىء، لأنّ الكلينى رواه عن البرقى، والبرقى رواه بهذا السند بعينه فى «المحاسن» هكذا: «سئل عن معنى قول اللَّه:

(الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) («۳»).

قال: استولى على ما دقّ وجلّ» («۴»).

وعلى ما ذكره البرقى، فالرواية فى تفسير الاستواء على العرش.

ولكن روى العيّاشى عن الحسن بن خرّزاد، قال: «كتبت إلى الصادق عليه السلام أسأل عن معنى: اللَّه، قال: استولى على ما دقّ وجلّ» («۵»).

ولعلّه أيضاً سقط من الخبر عنده.

وأمّا القول باشتقاقه من الالوهيّة فالظاهر ليس قولًا مغايراً لما تقدّم، وكذا القول باشتقاقه من الوله، بل إنّ المعانى المتقدّمة لا يخفى تلازم بعضها مع البعض الآخر، كما أنّ ذكر الروايات للمعانى المتعدّدة بلفظ الجلالة بمقتضى المعنى اللغوى دالّ على ما مرّت الإشارة إليه من أنّ الأصل فى الاستعمال والاستظهار

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۳۴

فضلًا عن التأويل؛ جواز تعدّد المعانى بحسب ما للفظ من تعدّد معانى لغويّة، أو استقام المعنى على كلّ منهم.

(الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ...) ص: ۳۴

وروى الكفعمى فى «المصباح» عن الصادق عليه السلام: «الرحمن اسم خاصّ بصفة عامّة، والرحيم اسم عام بصفة خاصّة» («۱»).

وروى فى «تفسير العسكرى عليه السلام»، عن علىّ عليه السلام، قال: «الرحمن العاطف على خلقه بالرزق لا يقطع عنهم موادّ رزقه، وإن انقطعوا عن طاعته» ... الحديث («۲»).

وقال عليه السلام: «وتفسير قوله عزّ وجلّ: (الرَّحْمنِ) أنّ قوله: (الرَّحْمنِ) مشتقّ من الرحمة، سمعت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقول: قال اللَّه عزّ وجلّ: أنا الرحمن، وهى [من] الرحم شققت لها اسماً من اسمى، من وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته.

ثمّ قال علىّ عليه السلام: أوَتدرى ما هذه الرحم التى مَن وصلها وصله الرحمن ومَن قطعها قطعه الرحمن؟

فقيل: يا أمير المؤمنين، حُثّ بهذا كلّ قوم على أن يكرموا أقرباءهم ويصلوا أرحامهم (آباءهم).

فقال لهم: أيحثّهم على أن يصلوا أرحامهم الكافرين، وأن يعظّموا من حقّره اللَّه، وأوجب احتقاره من الكافرين؟

قالوا: لا، ولكنّه حثّهم على صلة أرحامهم المؤمنين.

قال: فقال: أوجب حقوق أرحامهم لاتّصالهم بآبائهم وامّهاتهم؟

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۳۵

قلت: بلى يا أخا رسول اللَّه.

قال: فهم إذن إنّما يقضون فيهم حقوق الآباء والامّهات».

ثمّ قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ الرحم التى اشتقّها اللَّه عزّ وجلّ من رحمته بقوله:

أنا الرحمن وهى الرحم، هى رحم محمّد صلى الله عليه و آله وأنّ من إعظام اللَّه إعظام محمّد صلى الله عليه و آله، وإنّ من إعظام محمّد صلى الله عليه و آله إعظام رحم محمّد، وأنّ كلّ مؤمن ومؤمنة من شيعتنا هو من رحم محمّد وأنّ إعظامه من إعظام محمّد صلى الله عليه و آله» («۱»).

وروى فى «التوحيد» بسنده عن العسكرى عليه السلام فى قول اللَّه عزّ وجلّ:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)، قال: «وقام رجل لعلىّ بن الحسين عليه السلام فقال: أخبرنى عن معنى (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)، فقال علىّ بن الحسين: حدّثنى أبى، عن أخيه الحسن، عن أمير المؤمنين عليهم السلام: أنّ رجلًا قام إليه فقال: يا أمير المؤمنين، حدّثنى عن معنى (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) ما معناه؟

فقال: إنّ قولك: اللَّه، أعظم اسم من أسماء اللَّه عزّ وجلّ وهو الاسم الذى لا يتسمّى به غير اللَّه، ولم يتسمَّ به مخلوق (... بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) أىاستعين على هذا الأمر باللَّه الذى لا يحقّ العبادة لغيره، المغيث إذا استُغيث، المجيب إذا دُعِىَ.

(الرَّحْمنِ) الذى يرحم ببسط الرزق علينا.

(الرَّحِيمِ) بنا فى أديانا ودنيانا وآخرتنا» («۲»).

وروى الصدوق فى «عيون الأخبار» بإسناده عن الرضا عليه السلام، أنّه قال فى دعائه:

«رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما» («۳»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۳۶

وفى جملة من الروايات: «إنّ الرحيم لا يوصف برقة، وإنّما يحدث الرحمة» («۱»).

لطيفة بديعة ... ص: ۳۶

إنّ المتحصّل من الروايات فى معنى اسم (اللَّه) واسم (الرحمن) وإن لم يكن نافٍ للعلميّة، إلّاأنّ كون اسم الجلالة علم لا ينفى أنّه فى أصل الوضع ملحوظ فيه المعنى الاشتقاقى، فاسم الجلالة وإن فرض فى أوّل وضعه أنّه علم للذات الجامعة لجميع الكمالات، إلّاأنّ ذلك لا يستلزم عدم المعنى الوصفى فى اللفظ، وعلى ضوء هذه الإشارة، بل اللطيفة الرقيقة يتنبّه إلى ملاحظة المعنى الوصفى فى هذا الاسم الشريف، مضافاً إلى معنى العلميّة، كما أنّه على ذلك لا يتقرّر ممّا هو عند كثير من الباحثين فى علم الأسماء من أنّ هذا الاسم الشريف هو أعظم الأسماء الإلهيّة.

فإنّ رتبة هذا الاسم الشريف كانت فى الطبقة الاولى من الأسماء، إلّاأنّ اسم (هو) ونحوه أعلى مرتبة، كما سيأتى فى الروايات الآتية فى البحث المعرفى، وكذلك الحال فى اسم (الرحمن)، فإنّه وإن بنى فيه على العلميّة، إلّاأنّ ذلك لا ينفى المعنى الوصفى فى الاسم، بل سيتّضح ممّا سيأتى أنّ هذا الاسم الشريف متفرّع رتبة على اسم الجلالة أو اللَّه.

بحوث معرفيّة فى معانى البسملة ... ص: ۳۶

بادئ ذى بدأ يطرح سؤال عن السرّ ووجه السبب فى افتتاح القرآن فضلًا عن عموم الامور والأفعال بالاستعانة باسم اللَّه.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۳۷

هل للابتداء بالاسم فى كتاب اللَّه كبداية، لا سيّما مع كلّ ما فى القرآن فى الفاتحة وكلّ ما فى الفاتحة هو فى البسملة، هل لذلك ارتباط فى فهم مجمل كتاب اللَّه، كما يشير إلى ذلك أمير المؤمنين عليه السلام فى أجوبته مع الرجل المشكّك بسبب ما زعمه وتخيّله من تناقضات القرآن.

فقال عليه السلام: وأمّا قوله: (هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً) («۱») فإنّ تأويله هل تعلم له أحداً اسمه اللَّه غير اللَّه تبارك وتعالى، فإيّاك أن تفسّر القرآن برأيك، حتّى تفقهه عن العلماء، فإنّه ربّ تنزيل يشبه كلام البشر وهو كلام اللَّه، وتأويله لا يشبه كلام البشر، كما ليس شىء من خلقه يشبهه، كذلك لا يشبه فعله تبارك وتعالى شيئاً من أفعال البشر، ولا يشبه شىء من كلامه كلام البشر.

فكلام اللَّه تبارك وتعالى صفته، وكلام البشر أفعالهم فلا تشبّه كلام اللَّه بكلام البشر فتهلك» («۲»).

قاعدة: تغاير الأسماء مع الذات ... ص: ۳۷

إنّ الافتتاح للقرآن الكريم بالاسم لا ريب أنّه يحمل فى طيّاته إشارة إلى أنّ الاسم هو فاتحة الخلقة الإلهيّة وفاتحه الظهور وفاتحه الكلام التكوينى وهو الكلمة الاولى، وأنّه الحجاب بين الذات الإلهيّة والخلق.

ومن ثمّ يكون التوجّه والتوصّل والتمسّك به وسيلة إلى الذات المقدّسة.

روى الكلينى بسنده عن الرضا عليه السلام قوله: «سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام: هل كان اللَّه عزّ وجلّ عارفاً بنفسه قبل أن يخلق

الخلق؟ قال: نَعَم.

تفسیر ملاحم المحکمات، ص: ۳۸

قلت: هل یراها ویسمعها؟

قال: ما کانَ مُحْتاجاً إلی ذلِکَ لأنَّهُ لَمْ یَکُنْ یَسْأَلُها وَلَا یَطْلُبُ مِنْها، هُوَ نَفْسُهُ وَنَفْسُهُ هُوَ، قُدْرَتُهُ نافِذَةٌ فَلَیْسَ یَحْتاجُ أنْ یُسَمّی نَفْسَهُ، وَلکِنِ اخْتارَ لِنَفْسِهِ أَسْماءً لِغَیْرِهِ یَدْعُوهُ بِها، لأَنَّهُ إذا لَمْ یُدْعَ بِاسْمِهِ لَمْ یُعْرَفُ، فَأَوَّلُ ما اخْتارَ لِنَفْسِهِ الْعَلِیُّ الْعَظِیمُ، لأَنَّهُ أَعْلَی الْأَشْیاءِ کُلَّها، فَمَعْناهُ اللَّهُ، وَاسْمُهُ الْعَلِیُّ الْعَظِیمُ هُوَ أَوَّلُ أَسْمائِهِ عَلا کُلِّ شَیْءٍ» («۱»).

بیانه: الحدیث الشریف یدلّ علی أنّ الذات الأزلیّة لا اسم لها فی ذاتها، وأنّ الاسم علامة وآیة ودلالة، والعلامة إنّما یحتاج إلیها لما هو غائب، وحیث أنّ ذاته حاضرة لذاته، فلم تکن غائبة عن ذاته کی یطلبها بالاسم بخلاف غیره من المخلوقات، فإنّها لا یمکنها معرفة الذات الإلهیّة بالذات، بل لا سبیل إلی معرفتها إلّابالاسم.

وإلی هذا یشیر قوله علیه السلام: «لأَنَّهُ إذا لَمْ یُدْعَ بِاسْمِهِ لَمْ یُعْرَفُ» وفی هذا برهان علی أنّ المعرفة بالباری لا تتمّ إلّابالأسماء، ویمتنع معرفة الذات بدون الأسماء، فالأسماء وسیلة المعرفة ومن دونها لا تتمّ المعرفة، لأنّ الذات الإلهیّة خارجة عن الحدود لا یحاط بها، فهی من البساطة التی تبهم علی غیرها من الذوات.

ثمّ إنّ فی هذه الروایة إشارة إلی أنّ الاسم ظهور للذات، وهذا الظهور بالإضافة إلی غیره تعالی کما أنّه تبیّن أنّ اسم کلّ شیء ظهور له، وظهوره تعالی یعلو کلّ ظهور.

والحاصل: أنّ دور الأسماء هو نفی حدّ التعطیل فی معرفة الذات الإلهیّة،

تفسیر ملاحم المحکمات، ص: ۳۹

کما أنّها ینفی بها حدّ التشبیه، کما سیأتی ذلک مفصّلًا فی بحث التوسّل بالأسماء.

وروی الکلینی بسنده عن إبراهیم بن عمر، عن أبی عبداللَّه علیه السلام، قال: «إنَّ اللَّهَ تَبارَکَ وَتَعالی خَلَقَ اسْماً بِالْحُروفِ غَیْرَ مُتَصَوَّتٍ، وَبِاللَّفْظِ غَیْرَ مُنْطَقٍ، وَبِالشَّخْصِ غَیْرَ مُجَسَّدٍ، وَبِالتَّشْبیهِ غَیْرَ مَوْصُوفٍ، وَبِاللَّوْنِ غَیْرَ مَصْبُوغٍ، مَنْفِیٌّ عَنْهُ الْأَقْطارُ، مُبَعَّدٌ عَنْهُ الْحُدُودُ، مَحْجُوبٌ عَنْهُ کُلِّ حِسٍّ مُتَوَهِّمٍ، مُسْتَتِرٌ غَیْرُ مَسْتُورٍ، فَجَعَلَهُ کَلِمَةً تامَّةً عَلی أَرْبَعَةِ أَجْزاءٍ مَعاً لَیْسَ مِنْها واحِدٌ قَبْلَ الْآخَرِ، فَأَظْهَرَ مِنْها ثَلاثَةَ أَسْماءٍ لِفاقَةِ الْخَلْقِ إلَیْها، وَحَجَبَ مِنْها واحِداً وَهُوَ الْاسْمُ الْمَکْنُونُ الْمَخْزونُ، فَهذِهِ الْأَسْماءُ الَّتی ظَهَرَتْ، فَالظّاهِرُ هُوَ اللَّهُ تَبارَکَ وَتَعالی، وَسَخَّرَ سُبْحانَهُ لِکُلِّ اسْمٍ مِنْ هذِهِ الْأَسْماءِ أَرْبَعَةَ أَرْکانٍ، فَذلِکَ اثْنا عَشَرَ رُکْناً، ثُمَّ خَلَقَ لِکُلِّ رُکْنٍ مِنْها ثَلاثِینَ اسْماً فِعْلًا مَنْسُوباً إلَیْها، فَهُوَ الرَّحْمنُ، الرَّحِیمُ، الْمَلِکُ، الْقُدُّوسُ، الْخالِقُ، الْبارِئُ، الْمُصَوِّرُ، الْحَیُّ، الْقَیُّومُ، لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ، الْعَلِیمُ، الْخَبِیرُ، السَّمِیعُ، الْبَصِیرُ، الْحَکِیمُ، الْعَزِیزُ، الْجَبّارُ، الْمُتَکَبِّرُ، الْعَلِیُّ، الْعَظِیمُ، الْمُقْتَدِرُ، الْقادِرُ، السَّلَامُ، الْمُؤْمِنُ، الْمُهَیْمِنُ، [الْباری]، الْمُنْشِئُ، الْبَدِیعُ، الرَّفِیعُ، الْجَلِیلُ، الْکَرِیمُ، الرّازِقُ، الْمُحْیی، الْمُمِیتُ، الْباعِثُ، الْوارِثُ.

فَهذِهِ الْأَسْماءُ وَما کانَ مِنَ الْأَسْماءِ الْحُسْنی حَتّی تَتِمَّ ثَلاثَمائَةٍ وَسِتِّینَ اسْماً فَهِیَ نِسْبَةٌ لِهذِهِ الْأَسْماءِ الثَّلاثَةِ، وَهذِهِ الْأَسْماءُ الثَّلاثَةُ أَرْکانٌ، وَحُجِبَ الاسْمُ الْواحِدُ الْمَکْنُونُ الْمَخْزُونُ بِهذِهِ الْأَسْماءِ الثَّلاثَةِ، وَذلِکَ قَوْلُهُ تَعالی: (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمانَ أَیّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنَی) («۱»)» («۲»).

تفسیر ملاحم المحکمات، ص: ۴۰

بیان ذلک: قوله علیه السلام: «خَلَقَ اسْماً بِالْحُروفِ غَیْرَ مُتَصَوَّتٍ» أیأنّ هذه الأسماء الإلهیّة لیس کما یتبادر فی الاستعمال العرفی أنّها عبارة عن الأصوات الملفوظة والمنطوقة أو المنقوشة، بل المراد أنّ هذه الأسماء هی أوائل المخلوقات التی أودعها من الکمال والعظمة، فکانت آیات عظیمة إلهیّة، ومن شدّة کمالها انطمست انّیتها الخلقیة، وتمحّضت فی الحکایة عن العظمة والقدرة فی الذات الإلهیّة، ومن ثمّ أخذت أحکام الحجب وسدنة الذات الإلهیّة، ومن ثمّ نفی عنها علیه السلام أحکام الجسمیّة والمادّة، بل وأحکام

الحدود والتناهى، كيف تحدّ وهى حواكى ومرائى الذات الإلهيّة.

كما يوصف هذا الاسم أيضاً بأنّه لا تدركه الأوهام؛ إذ هى لا يمكن أن تحيط به، كيف وهو بلا حدّ، ومن ثمّ فرّع على ذلك عليه السلام بأنّه مستتر غير مستور، أى أنّ استتاره واحتجابه عن إدراك الآخرين له، بسبب كونه مبعّد عنه الحدود، ومن ثمّ لا يدركه، مستتر عنهم بعظمته، إذ إدراك العقول إنّما يتمكّن من إدراك المحدود بعد كون العقول محدودة.

ثمّ بيّن عليه السلام أنّه تبارك وتعالى جعل هذا الاسم كلمةً تامّة، أىأنّ هذا الاسم بما يحكى من عظائم الصفات الإلهيّة كان خلقته ووجوده تكلّم من الذات الإلهيّة دالّ على المضمر الغائب فيها.

ثمّ أخذ عليه السلام فى بيان مراتب وطبقات الأسماء، فبيّن عليه السلام أنّ هذا الاسم جعل على أربعة أسماء معاً ذات رتبة واحدة، فأظهر منها ثلاثة، وهو اللّه تبارك وتعالى، وحجب منها واحداً فهو اسم مكنون مخزون بهذه الأسماء الثلاثة، ثمّ جعل وسخّر لكلّ اسم منها أربعة أركان، ثمّ خلق لكلّ اسم ثلاثين اسماً، وهذا المضمون من نظام ظهور الأسماء قد استفاضت به روايات أهل البيت عليهم السلام،

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۴۱

وإن لم يراعه أو تفطّن لنفسه سائر مَن كتب فى الأسماء من أهل الذوق المعنى، ثمّ أشار عليه السلام إلى أنّ الأسماء تؤدّى فى المآل إلى مسمّى واحد إلى الآية من سورة الإسراء.

حيث تشير الآية إلى أنّ التوجّه والنداء إلى اسم (اللّه) أو إلى اسم (الرحمن) سيّان، فإن كلّاً منهما من الأسماء الحسنى التى تؤول إلى الدلالة على الذات الإلهيّة المالكة لتلك الأسماء، كآيات وظهورات وعلامات لها.

فإنّهم يجعلون اسم (اللّه) أوّل ظهور الأسماء، ومنها تظهر بقيّة الأسماء، أو يجعلون أوّل الظهورات اسم (الأحد) ثمّ (الواحد) ثمّ (اللّه) ثمّ بقيّة الأسماء.

كما أنّ الرواية دالّة على أنّ اسم الرحمن هو اسم الاسم، أو اسم اسم الاسم، وعلى ذلك: فسواء كان الاسم من الرتبة الاولى أو الثانية أو بقيّة المراتب، فالحال سيان فى دعائها ودلالتها على الذات لأنّها كلّها ظهورات لها، وإن اختلفت مراتب الظهور.

وروى الكلينى أيضاً بسنده عن عبدالأعلى، عن أبى عبداللّه عليه السلام، قال: «اسْمُ اللَّهِ غَيْرُهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ وَقَعَ عَلَيْهِ اسْمُ شَيْءٍ فَهُوَ مَخْلُوقٌ ما خَلَا اللَّهَ، فَأَمّا ما عَبَّرَتْهُ الْأَلْسُنُ أَوْ عَمِلَتِ الْأَيْدى فَهُوَ مَخْلُوقٌ، وَاللَّهُ غايَةٌ مِنْ غاياتِهِ، وَالْمُغَيّى غَيْرُ الْغايَةِ، وَالْغايَةُ مَوْصُوفَةٌ، وَكُلُّ مَوْصُوفٍ مَصْنُوعٌ، وَصانِعُ الْأَشْياءِ غَيْرُ مَوْصُوفٍ بِحَدٍّ وَسِمَةٍ، لَمْ يَتَكَوَّنْ فَيُعْرَفُ كَيْنُونِيَّتُهُ بِصُنْعِ غَيْرِهِ، وَلَمْ يَتَناهَ إِلى غايَةٍ إِلّا كانَتْ غَيْرَهُ، لَايَزِلُّ مَنْ فَهِمَ هذَا الْحُكْمَ أَبَداً وَهُوَ التَّوْحِيدُ الْخالِصُ، فَارْعَوْهُ وَصَدِّقُوهُ وَتَفَهَّمُوهُ بِإِذْنِ اللَّهِ، مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَعْرِفُ اللَّهَ بِحِجابٍ أَوْ بِصُورَةٍ أَوْ بِمِثالٍ فَهُوَ مُشْرِكٌ، لِأَنَّ حِجابَهُ وَمِثالَهُ وَصُورَتَهُ غَيْرُهُ، وَإِنَّما هُوَ واحِدٌ مُتَوَحِّدٌ.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۴۲

فَكَيْفَ يُوَحِّدُهُ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ عَرَفَهُ بِغَيْرِهِ، وَإِنَّما عَرَفَ اللَّهَ مَنْ عَرَفَهُ بِاللَّهِ، فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ بِهِ فَلَيْسَ يَعْرِفُهُ، إِنَّما يَعْرِفُ غَيْرَهُ، لَيْسَ بَيْنَ الْخالِقِ وَالْمَخْلُوقِ شَيْءٌ وَاللَّهُ خالِقُ الْأَشْياءَ لَا مِنْ شَيْءٍ كانَ، وَاللَّهُ يُسَمّى بِأَسْمائِهِ، وَهُوَ غَيْرُ أَسْمائِهِ وَالْأَسْماءُ غَيْرُهُ» («۱»).

وقوله عليه السلام: «اسْمُ اللَّهِ غَيْرُهُ» يشير عليه السلام إلى تغاير الذات الأزليّة مع اسم (اللّه)، كما مرّ فى الأحاديث السابقة، ثمّ ينبّه أنّ المراد من هذا الاسم اسم الجلالة ليس هو ما تعبّر به الألسن، وينقش بعمل الأيدى، بل هو المشار إليه باللفظ والكتابة، أى هو المقصود والغاية المرادة من الاسم اللفظى أو المنقوش، فالمغيّا وهو الاسم اللفظى، والاسم المنقوش مغاير إلى اسم (اللّه) الغاية.

ويمكن أنّ ما أراده عليه السلام حينئذٍ من اسم اللّه الغاية، المفهوم الذهنى، وأنّه مصنوع، وموصوف بوصف، يصنعه الذهن، وهو يغاير صانع الأشياء، أو يراد من اسم اللّه الغاية هو الاسم الذى خلق أوّلًا فى الأسماء، والذى مرّ فى الروايات السابقة، وهو الاسم بوجوده التكوينى، وأنّ هذا الاسم حيث أنّه موصوف فهو مصنوع، أىمخلوق لأنّ الذات الأزليّة لا تحدّ بوصف؛ إذ كلّ موصوف مصنوع

وصانع الأشياء لا يوصف بوصف فيحدّ بذلك الوصف، إذ الوصف اسم من الأسماء كما مرّ فى حديث أنّ الاسم صفة لموصوف.

والـذات الأزليّة لا تتناهى إلى غاية من صـفة أو اسم إلّاوكانت تلك الغاية غير الذات الأزليّة، وهذا الاحتمال فى مفاد الرواية قريب من قول الأمير عليه السلام فى «نهج البلاغة»: «الَّذى لَيْسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ».

أى كلّ صفة لها حدّ فهى دون صفته، وحيث أنّ الصفات الكماليّة تغاير بعضها

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۴۳

البعض، فهى محدودة، وهى دون الصفة التى هو عليها.

وقال عليه السـلام: «أَوَّلُ الـدِّينِ مَعْرِفَتُهُ، وَكَمالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْـدِيقُ بِهِ، وَكَمالُ التَّصْـدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ، وَكَمالُ تَوْحِيدِهِ الْإِخْلاصُ لَهُ، وَكَمالُ الْإِخْلاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفاتِ عَنْهُ، لِشَـهادَةِ كُلِّ صِـفَةٍ أَ نَّها غَيْرُ المَوْصُوفِ، وَشَهادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَ نَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ، فَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ سُبْحانَهُ فَقَـدْ قَرَنَهُ، وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَـدْ ثَنّاهُ، وَمَنْ ثَنّاهُ فَقَـدْ جَزَّأَهُ، وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ، وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشارَ إِلَيْهِ، وَمَنْ أَشارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ» («۱»).

لا سيّما أنّه فى هذه الرواية قال عليه السلام أنّ هذا الحكم هو التوحيد الخالص، فالأسماء والصفات ظهورات وهى غيره.

وأمّا قوله عليه السـلام بعد ذلك: «مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَعْرِفُ اللَّهَ بِحِجابٍ أَوْ بِصُورَةٍ أَوْ بِمِثالٍ فَهُوَ مُشْرِكٌ»، أى يجعلها عين البارى أى بلحاظها بما هى هى، ودلّل عليه السلام على وقوع الشرك بالتغاير بينها وبين الذات بينما اللّه واحدٌ متوحّد بخلاف مَن ينظر بها إلى الذات، فقد عرف الذات بالذات، لأنّ النظرة الحرفية إلى الأسماء لا يكون المنظور حينه نفس الاسم، بل المنظور هو المحكىّ بالاسم.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۴۴

قاعدة أنّ كلّ اسم فى الأصل اشتقاق وصفى ... ص: ۴۴

ثمّ إنّ ممّا مرّ من حديث الرضا عليه السـلام أنّ كلّ اسم فهو صـفة لموصوف يفيد قاعدة مهمّة فى علم الأسـماء من أنّ كلّ اسم إلهىّ فى الأصل وإن كان عَلَماً فى أصل وضعه، إلّاأنّه مأخوذ فيه معنى الوصفيّة، وهذا ممّا يبرهن على القاعدة المتقدّمة من أنّ الأسماء دون الـذات الإلهيّـة، وقـد مرّ فى البحـث اللغـوى الأـدبىّ أنّ اسم (اللّه) وإن كـان علمـاً فى الأصـل، إلّـاأنّه لوحـظ فيه أيضـاً معنى الوصـفى الاشتقاقى من الوله أو من (أله) أو (لاه)، كما أشارت إلى ذلك الروايات.

وروى الصدوق فى «التوحيد» و «العيون» بسـنده عن علىّ بن موسـى الرضا عليه السلام، عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليهم السلام: «أنّه خطب الناس فى مسجد الكوفة- إلى أن قال عليه السلام-:

وَمُمْتَنِعٌ عَنِ الْإِدْراكِ بِما ابْتَدَعَ مِنْ تَصْـرِيفِ الذَّواتِ ...، وَمُحَرَّمٌ عَلى بَوارِعِ ثاقِباتِ الْفِطَنِ تَحْدِيدُهُ، وَعَلى عَوامِقِ ناقِباتِ الْفِكَرِ تَكْيِيفُهُ، وَعَلى غَوايصِ سابِحاتِ النَّظَرِ تَصْوِيرُهُ...

مُمْتَنِعٌ عَنِ الْأَوْهـامِ أَنْ تَكْتَنِهَهُ، وَعَنِ الْأَفْهـامِ أَنْ تَسْـتَغْرِقَهُ، وَعَنِ الْأَذْهـانِ أَنْ تُمَثِّلَهُ، قَـدْ يَئِسَتْ مِنِ اسْـتِنْباطِ الْإِحاطَـةِ بِهِ طَوامِـحُ الْعُقُـولِ، وَنَضَبَتْ عَنِ الْإِشارَةِ إِلَيْهِ بِالْاكْتِناهِ بِحارُ الْعُلُومِ، وَرَجَعَتْ بِالصِّغَرِ عَنِ السُّمُوِّ إِلى وَصْفِ قُدْرَتِهِ لَطائِفُ الْخُصُومِ...

وَلَا كَالْأَشْـياءِ فَتَقَعَ عَلَيْهِ الصِّفاتُ، قَدْ ضَلَّتِ الْعُقُولُ فِى أَمْواجِ تَيّارِ إِدْراكِهِ، وَتَحَيَّرَتِ الْأَوْهامُ عَنِ إِحاطَةِ ذِكْرِ أَزَلِيَّتِهِ، وَحَصَرَتِ الْأَفْهامُ عَنِ اسْتِشْعارِ وَصْفِ قُدْرَتِهِ، وَغَرِقَتِ الْأَذْهانُ فِى لُجَجِ بِحارِ أَفْلاكِ مَلَكُوتِهِ.

مُقْتَدِرٌ بِالْآلاءِ، وَمُمْتَنِعٌ بِالْكِبْرِياءِ، وَمُتَمَلِّكٌ عَلَى الْأَشْـياءِ، فَلَا دَهْرٌ يُخْلِقُهُ، وَلَا وَصْفٌ يُحِيطُ بِهِ، فَلَا إِلَيْهِ حَدٌّ مَنْسُوبٌ، وَلَا لَهُ مَثَلٌ مَضْـرُوبٌ، وَلَا شَيْءَ عَنْهُ

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۴۵

بِمَحْجُوبٍ، تَعالى عَنْ ضَرْبِ الْأَمْثالِ وَالصِّفاتِ الْمَخْلُوقَةِ عُلُوّاً كَبِيراً» («۱»).

قاعدة فى مراتب التوحيد، ومراتب الصفات والأسماء ... ص: ۴۵

بيان: وهذا الحديث دلالته بوضوح عن أنّ أوصاف العقول من كلّ المخلوقات هى دون ذاته، وهذا تفسير آخر لدونيّة الصفات عن ذاته، وعدم حدّ الذات الأزليّة بصفات، بأن يراد أنّ الذات مقدّسة عن الصفات المخلوقة فى العقول أو القلوب والفطن والأفكار، وهذا أحد محامل (توحيده نفى الصفات عنه) أو تفسير قول أمير المؤمنين عليه السلام أعلاه.

وهذا لا يتنافى مع التفسير السابق فى الروايات المتقدّمة التى ظاهرها أنّ الأسماء المخلوقة والصفات بوجودها فى عين الخارج دون الذات فضلًا عن الصفات الذهنيّة، وهذه مراتب من التوحيد، ولعلّه يشير إلى ذلك قوله عليه السلام:

«وَكَمالُ تَوْحِيدِهِ نَفْيُ الصِّفاتِ عَنْهُ» لا أصل التوحيد.

ويشير أيضاً قول الصادق عليه السلام كما مرّ «ذلِكَ التَّوْحِيدُ الْخالِصُ» فى مقابل التوحيد المشوب، بل قد ورد فى رواياتهم ما يدلّ على أنّ هذه الصفات الذهنيّة المخلوقة لا تحيط كنهاً بعينيّة الأسماء، ولا تحدّها، فكيف بالمسمّى والذات الأزليّة، كما سيأتى الإشارة من أنّ أهل البيت عليهم السلام هم الأسماء الحسنى، كما فى قول الرضا عليه السلام:

«فَمَنْ ذا الَّذى يَبْلُغُ مَعْرِفَةَ الْإِمام أَوْ كُنْهَ وَصْفِهِ. هَيْهاتَ هَيْهاتَ، ضَلَّتِ الْعُقولُ، وَتاهَتِ الْحُلومُ، وَحارَتِ الْأَلْبابُ، وَخَسِئَتِ الْعُيونُ، وَتَصاغَرَتِ الْعُظَماءُ، وَتَحَيَّرَتِ الْحُكَماءُ، وَتَقاصَرَتِ الْحُلَماءُ، وَحَصِرَتِ الْخُطَباءُ، وَجَهِلَتِ الْأَلِبّاءُ، وَكَلَّتِ الشُّعَراءُ، وَعَجَزَتِ الْأُدَباءُ، وَعَيِيَتِ الْبُلَغاءُ، عَنْ وَصْفِ شَأْنٍ مِنْ شَؤُونِهِ، أَوْ فَضيلَةٍ مِنْ فَضائِلِهِ،

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۴۶

وَأَقَرَّتْ بِالْعَجْزِ وَالتَّقْصيرِ، وَكَيْفَ يُوصَفُ بِكُلِّهِ، أَوْ يُنْعَتُ بِكُنِهِهِ، أَوْ يُفهم شَيْءٌ مِنْ أَمْرِهِ، أَوْ يُوجَدُ مَنْ يَقومُ مَقامَهُ، وَيُغْنى غِناهُ.

كيف وأَنّى وَهُوَ بِحَيْثُ النَّجْم عَنْ أَيْدى الْمُتَناوِلينَ، وَوَصْفِ الْواصِفينَ؟

فَأَيْنَ الاخْتِيارُ مِنْ هذا، وَأَيْنَ الْعُقولُ عَنْ هذا» («۱»).

قاعدة فى كون الأسماء توقيفيّة أو توقيفيّة المعارف ... ص: ۴۶

النقطة الاولى: توقيفيّة الأسماء ... ص: ۴۶

البحث فى توقيفيّة الأسماء مفاده بين المثبت له والنافى بحسب قالب العنوان المذكور هو فى كون الأسماء الإلهيّة لا بدّ أن يعينها ويرشد إليها ويوقفنا عليها الوحى.

بينما النافى لها يتبنّى إمكانيّة إدراك العقل أو القلب لتلك الأسماء، سواء كانت من الأسماء الامّ أم من طبقات الأسماء اللّاحقة، أىالاصول والأركان والفروع، وهل البحث يقتصر على الأسماء الإلهيّة أم يعمّ الصفات أيضاً؟ لا سيّما أنّ الفرق بين الأسماء والصفات هو بالاعتبار، بل هذا البحث هل يعمّ فى الحقيقة مطلق أبواب المعارف أم لا؟ إذ مجىء هذا البحث فى شؤون التوحيد، فكيف بمن دونه من المباحث.

وهذا الخلاف فى الحقيقة بعينه هو الخلاف الدائر بين الأخباريّين والاصوليّين فى أحكام الفروع، والتشريع المتعلّق بالأفعال من أنّه هل للعقل حكم ودور فى مساحة التشريع أم لا، وأنّ ما حكم به العقل يحكم به الشرع، وكذلك بالنسبة

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۴۷

إلى إدراكات القلب، ويتبيّن من ذلك أنّ مسألة تعدّد الأدلّة العقليّة والنقليّة التى هى طريق لاستكشاف الوحى، بحث دائر فى كلّ تلك المساحات وليس مقتصراً على الفروع، بل هو شامل للمعارف.

النقطة الثانية: الاعتبار فى المعارف ... ص: ۴۷

معنى التوقيفيّة هل هو بمعنى التعبّد أو المولويّة أو الإرشاد من الوحى من دون اعتبار تشريعىّ، ثمّ أىّ معنى يتقرّر للمولويّة فى المعارف، وهل الخلاف مقتصر على المولويّة والتعبّد أو أنّه يشمل صحّة الاستناد فى المعارف إلى الدلالة النقليّة والحجّة الظنّيّة، بل قد يتوسّع فى البحث فيقال: إنّ البحث هو تطرّق الاعتبار فى المعارف.

النقطة الثالثة: عموم المولويّة فى المعارف ... ص: ۴۷

إنّ مغزى تقرير التوقيفيّة والتعبّديّة فى المعارف يبتنى على أنّ مولويّة المولى، أى جانب الترغيب والترهيب منه، مؤثّر فى المعرفة، والصعوبة فى ذلك أنّ المعرفة إذا كانت من نمط الإدراك فأىّ دور للترويض النفسى الذى هو نوع من العمل الروحى يتصوّر له فى الإدراك، وهذا البحث قد حرّرناه مفصّلًا فى كتاب الإمامة الإلهيّة والعقل العملى (»

).

وملخّصه: أنّ المعرفة يقوم بها كلّ من العقل النظرى والعقل العملى، إلّاأنّ التصوّر يقوم به العقل النظرى، وأمّا التصديق والحكم فهو من شؤون العقل

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۴۸

العملى، والعقل العملى يقوم بعمل علمى، فإنّ فى العلم نمط من العمل أيضاً، والنفس ما لم تروّض وتهذّب بالترغيب والترهيب لا تستجيب إلى ما تدركه من تصوّرات ومقدّمات وقضايا، ومن ثمّ يأتى دور صاحب الترغيب والترهيب، وهو المولى، ومن ثمّ يتبيّن برهان ضرورة المولويّة فى حصول المعرفة التصديقيّة، وهذه إحدى الحيثيّات الواقعيّة لتأثير مقام الربوبى وهيمنته وقاهريّته ورحمانيّته فى حصول الكمال للبشر بالمعرفة.

وهناك حيثيّة اخرى وهى أنّ القدرة البشريّة فى إدراك الحقائق ذات وسع محدود، ومن ثمّ عرّفت الفلسفة بأنّها إدراك الواقعيّة بحسب وسع القدرة البشريّة، مع أنّ الواقعيّة لا تتضيّق بضيق الإدراك البشرى، وكان من اللازم لتكميل معرفة البشر من العناية الإلهيّة واللطف لإفاضة العلم عليه بما لا قدرة له عليه بنفسه، وهذه ضرورة اخرى للافتقار إلى الوحى ومتابعته، فمع وجود مساحة من الواقعيّة غائبة عن المخلوق، وهو ما يعبّر عنه بالغيب، بل إنّ ما غاب أعظم ممّا يشهده المخلوق بحسّه أو ما يشهده بوهمه وخياله أو يشهده بعقله أو ما يشهده بقلبه وسرّه، فإنّها بمنزلة قطرة فى محيطات لا متناهية، فلا بدّ له أن يذعن بهذا الفقر والافتقار الدائم للواقعيّة الأزليّة اللّامتناهية، وهذا معنى العبوديّة من المخلوق والمولويّة من قِبل الخالق.

النقطة الرابعة ... ص: ۴۸

ما ذكره علماء اصول الفقه عن كيفيّة العلاقة بين كاشفيّة العقل وهداية الوحى من وجوه متعدّدة بعينها، تتأتّى فى المعارف.

ومن تلك الوجوه أنّ مجال العقل فى البديهيّات والسعى إلى زيادة دائرتها عبر عمليّة تبديه النظريّات بالاستعانة بمدد الوحى فى المساحات النظريّة،

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۴۹

ومنها أيضاً كون العقل والقلب هو المتلقّى والمخاطب الأصلى ببيانات الوحى دون بقيّة مراتب الذات، مع أنّ العقل أو القلب يتلقّى من تلك البيانات بحسب سعته، مع أنّ العقول والقلوب تتفاوت فى السعة والاتّساع.

كما أنّه قد ذكر أنّ اليقينيّات فى الأدلّة العقليّة، أو فى الدلائل العقليّة، إنّما هى فى دائرة البديهيّات أو ما يقرب منها، وأمّا ما توغّل فى

الجانب النظرى، فإنّه يهبط عن اليقين إلى درجات الظنون النازلـة كلّما توغّل فى النظريّات، ومن ثمّ يكون للظنون النقليّة مصدر معرفى مهمّ.

والحاصل: أنّ ما ذكر من كيفيّة التوفيق بين الإدراكات العقليّة وأنوار هداية الوحى، ككون العقل قابل المستفيض وأنوار الهداية فائض منير، وغيرهـا من الوجوه كلّهـا بعينهـا تتأتّى فى رسم النسـبة بين إدراكات العقل والحاجـة إلى بيانات الوحى فى أبواب المعارف، وهو بعينه يرسم الحلّ فى قاعدة توقيفيّة الأسـماء، أى أنّ هناك مقدار من المساحة البديهيّة يدركها العقل والقلب من الأسـماء بنحو جملى إجمالى، وأمّا التفاصيل فتستدعى وتتوقّف على بيانات الوحى («۱»)، وربّما تكون تلك الموارد من الامّهات، كما هو الحال فى المعاد والرجعة وغيرها من الموارد الاخرى.

النقطة الخامسة ... ص: ۴۹

وما استدلّ على التوقيفيّة فى الأسماء جملة من الامور منها:

الأوّل: قوله تعالى: (سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ* إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ) («۲»)،

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۵۰

باعتبار أنّ الوصف عين الاسم، والآية تنزّه البارى تعالى عن توصيف المخلوقين، وقصر صـلاحيّة التوصـيف بالمخلَص- بالفتح- وهو فوق المخلِص- بالكسـر- أى المصـطفين من الأنبياء والرسل والأوصـياء والحجج، وهم الذين يتلقّون التوصـيف من قناة الوحى والعلم اللدنى والأوصاف هى الأسماء حقيقة والاختلاف بالاعتبار.

الثانى: ما بنى على أنّ الأوصاف بما لها من مفاهيم كمالها دون كمال الذات الإلهيّة، فإنّها جامعة لما فوق كمالات الصفات.

فإذا كان البرهان وبيان الوحى قائم على أنّ الصـفات التى تليق بذاته هى دون الذات الإلهيّة، لأنّ «فَمَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ، وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ، وَمَنْ ثَنَّاهُ فَقَدْ جَزَّأَهُ، وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ، وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشارَ إِلَيْهِ، وَمَنْ أَشارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ» («... ۱»).

فـإذا كـان هـذا حـال الأوصاف التنزيهيّـة، أىالأوصاف التوقيفيّـة، والتى جاءت فى لسان الوحى، فما ظنّك بحال الأوصاف النابعـة من قدرة درك البشر المحدودة، فإنّها أبعد عن أن تليق بجلاله تعالى، ومتى ما قرّر أنّ الأوصاف توقيفيّة، فالأسماء توقيفيّة أيضاً.

الثـالث: ومنهـا مـا رواه الصـدوق فى كتـاب «التوحيـد» بسـنده عن حنـان بن سـدير، قـال: «سـألت أبـا عبـداللّه عليه السـلام عن العرش والكرسىّ، فقال:

...إنّه قال تبارك وتعالى: (رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) («۲»)، وهو وصف عرش

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۵۱

الوحدانيّة، لأنّ قوماً أشـركوا كما قلت لك قال تبارك وتعالى ربّ العرش ربّ الوحدانيّة عمّا يصفون، وقوم وصفوه بيدين فقالوا: (يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ) («۱»)، وقومـاً وصـفوه بـالرجلين فقـالوا: وضع رجله على صـخرة بيت المقـدس، ومنهـا ارتقى إلى السـماء، وقوماً وصـفوه بالأنامـل، فقـالوا: إنّ محمّـد صـلى الله عليه و آله قـال: إنّى وجـدت برد أنـامله على قلبى، فلمثـل هـذه الصـفات قـال (رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ).

يقول ربّ المثل الأعلى عمّا به مثّلوه وللّه المثل الأعلى الذى لا يشبهه شىء، ولا يوصف ولا يتوهّم، فذلك المثل الأعلى.

ووصف الذين لم يؤتوا من اللّه فوائد العلم فوصـفوا ربّهم بأدنى الأمثال وشبّهوه بالمتشابه منهم فيما جهلوا به، فلذلك قال: (وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) («۲»)، فليس له شـبه، ولا مثل، ولا عِدل، وله الأسـماء الحسنى التى لا يسمّى بها غيره، وهى التى وصفها فى الكتاب فقال: (فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمائِهِ) («۳») جهلًا بغير علم، فالذى يُلحد فى أسـمائه بغير علم يشرك وهو لا يعلم ويكفر به، وهو يظنّ أنّه يحسن، فلـذلك قـال (وَمَـا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِـاللَّهِ إِلَّـا وَهُم مُّشْـرِكُونَ) («۴»)، فهم الـذين يلحـدون فى أسـمائه بغير علم

فيضعونها غير مواضعها.

يا حنان، إنّ اللَّه سبحانه وتعالى أمر أن يتّخذ قوم أولياء فهم الذين أعطاهم اللَّه الفضل، وخصّهم بما لم يخصّ به غيرهم، فأرسل محمّداً صلى الله عليه و آله، فكان الدليل على اللَّه بإذن اللَّه عزّ وجلّ حتّى مضى دليلًا هادياً، فقام من بعده وصيّه دليلًا هادياً على ما كان هو دلّ عليه من أمر ربّه من ظاهر علمه، ثمّ الأئمّة الراشدون عليهم السلام» («۵»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۵۲

قاعدة ضابطة المثل والتمثيل ... ص: ۵۲

ففى هذه الروايات إشارة إلى أنّ الآية الكريمة وهى قوله تعالى: (فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) («۱») إلى امتناع وصف مقام الوحدانيّة الإلهيّة.

وأنّ له تعالى المثل الأعلى الذى لا يشبهه ذلك المثل شىء ولا يوصف ذلك المثل ولا يتوهّم، وبيّن عليه السلام أنّ الذين ليس لهم علم لدنىّ من اللَّه عزّ وجلّ يصفون البارى بأدنى الأمثال، كما بيّن عليهم السلام أنّ من يضرب للَّهالمثل الأدنى فقد قال للَّه بالمِثل- بالكسر- وقال له بالتشبيه، بخلاف مَن يجعل للَّهالمثل الأعلى، فقد نفى المِثليّة عن اللَّه تبارك وتعالى، ولا يتمّ أعلائيّة المثل للَّهإلّاأن يكون ذلك المَثل لا يوصف ولا يشبّه ولا يحدّ، وبذلك يتبيّن ضابطة الأسماء الحسنى للبارى تعالى، وقد عيّنها عليه السلام، بالتى وصف بها نفسه بالقرآن الحكيم، وذلك توقيف منه تعالى للأسماء، وأنّ اللازم أن يُدعى بها لا بغيرها.

فمن وصف البارى تعالى بغيرها وسمّاه بها فقد ألحد فى الأسماء جهلًا بغير علم، فظنّوا أنّه يحسن وهو يسىء الوصف لتسميته البارى، ثمّ بيّن عليه السلام أنّه لذلك قال تعالى: (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُشْرِكُونَ) («۲»)، فهذه الآيات تبيّن ضرورة الوحى فى الهداية إلى المعارف الحقّة، وللتوقيف على الأسماء الحسنى.

الرابع: ومنها ما قرّر من أدلّة كثيرة على ضرورة الشريعة والوحى والحاجة إليه، وتلك الأدلّة وإن صاغها المتكلّمون على ضرورة الشريعة، أىفى مجال الفروع، لكن تلك الأدلّة المتعدّدة بعينها قائمة على ضرورة الدين، أىفى مجال

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۵۳

العقائد والمعارف فضلًا عن الآداب والمكارم.

بل الحاجة والضرورة فى المعارف أمسّ وأبين منها فى الفروع، لأنّ متعلّقها وموضوعها أمر خارج عن حيطة الحواسّ، فمن الغريب تخصيص تلك الأدلّة والوجوه بالفروع أو تخصيص واستنتاج النتيجة بها، وكان الذى أوهم ذلك هو وضوح لزوم حكم وإدراك العقل لمبدأ العقيدة كى يتمّ الإذعان بمؤدّى الوحى، إلّاأنّ الصحيح أنّ ذلك هو فى اسس العقائد دون التفاصيل المترامية، بل دون جملة من الضروريّات العقائديّة.

الخامس: أنّ للعقل مساحة بديهيّة ونظريّة، وهو ما تقرّر من أنّ دائرة إدراك العقل والأحكام العقليّة تنقسم إلى بديهيّات ونظريّات، وكلّ من الدائرتين على مراتب ودرجات، فإنّ البديهيّات ليست على درجة واحدة من البداهة، وكذلك الحال فى المسائل النظريّة، فتبدأ من البديهيّات الشديدة الوضوح إلى المتوسّطة إلى الأقل وضوحاً، وكذلك النظريّات، فإنّ منها ما يقرب من البديهيّات، ثمّ كلّما ابتعدت المسألة وترامت عن البديهيّات، ازدادت ولوجاً وإيغالًا فى النظريّة فى الابتعاد عن البديهيّات.

فإدراكات العقل متوزّعة على هذه الدرجات والأنماط، وقد حقّق أخيراً فى المباحث العقليّة أنّ الدليل النظرى فى المسائل النظريّة هو بدرجة الظنّ، وإن كان بصورة القطع والقالب اليقينى، وكذا مادّةً، ولا سيّما إذا تراها فى النظريّة مبتعداً عن البديهيّات، وعلى ذلك فالمساحة النظريّة اللّامتناهية تقصر إدراكات العقل عن استجلائها وإدراكها بتمامها، كما يعجز فى الوصول إلى معرفتها بدرجة اليقين، وهذا هو شأن العقل البشرى المحدود فى المعارف أيضاً، حيث إنّ اسس اصول العقائد يدركها العقل فى البداهة أو بشىء من التأمّل

والتدبّر، وأمّا تفاصيل

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۵۴

كلّ أصل فيحتاج إلى ترتيب مقدّمات وأدلّة ترشده إلى النتائج، ومن ثمّ تنبع الحاجة إلى تعليم الوحى وكشفه للعقل ما عجز، ولا يعنى هذا إقصاء العقل وإلغاءه، بل هو صاحب الدور الرئيسى، فإنّه هو الذى يقرأ تعاليم الوحى ويفهمها، وهو المخاطب فى الأصل بتلك التعاليم، فالوحى بمنزلة النور المضىء للطريق إلى الحقائق والعقل بمنزلة العين الباصرة لذلك.

ولك أن تقول: إنّ حجّيّة العقل بمعنى الفهم غير محدودة بحدّ، وهى على طوال المسير، وهو ما تقوم به القوّة العاقلة.

وأمّا حجّيّة العقل بمعنى ذات الدليل، وهو الذى يسمّى بالعلم، فالعلم نوره ذاتىّ وكاشفيّته ذاتيّة، غاية الأمر أنّ قدرة الإنسان بلحاظ القوى الإدراكيّة التى تستحصل مواد ومقدّمات العلم ومعطياته ونتائجه، كالقوّة المفكّرة والقوّة المتصرّفة، هى قوّة محدودة لمحدوديّة حواسّ الطبيعة الإنسانيّة، سواء حواسّه الظاهرة أو حواسّه الباطنة، ومن ثمّ احتاج الإنسان إلى قوّة الوحى الإلهى أو النبوّات والرسالات.

فالوحى ليس بديل العلم، إذ العلم حجّيّته ونوره ذاتىّ، وهو انكشاف تكوينى للحقائق والواقعيّات، سواء كان بقدرة الإنسان أو بقدّرة الوحى، كما أنّ الوحى لم يكن بديلًا عن فهم العقل وذوق القلب إذاً حجّيّة الفهم العقلى وذوق القلب حجّيّة مطلقة لا تعطّل بحال من الأحوال.

وإنّما الوحى قدره من ملكوت السماء تتمكّن منها النفس النبويّة أو الولويّة تكون مسعفاً ومكمّلًا للقصور الموجود فى قدرات قوى الإنسان الاعتيادى.

وعلى ذلك فيتبيّن أنّ حجّيّة العقل بمعنى الفهم والذوق غير مقيّدة، بل مطلقة، ولا تعطّل بحال، وهو بمنزلة العين الباصرة، كما أنّ حجّيّة العلم الذى هو بمنزلة

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۵۵

النور أيضاً مطلقاً، وإنّ العلم حقيقته واحدة، سواء استحصل من هذا المنبع أو ذاك، غاية الأمر أنّ قدرة الإنسان وقوّته محدودة فى استحصال العلم، فمن ثمّ لا بدّ له من مكمّل وهادى، وهو الوحى.

فتحصّل: أنّ الأوفق فى مسألة توقيفيّة الأسماء ومسألة توقيفيّة المعارف هو القول الوسط، أىلا يصار إلى التوقيفيّة المطلقة ولا إلى نفى التوقيفيّة مطلقاً، بل الصحيح فى دائرة البديهيّات العقليّة هى المبدأ بخلاف دائرة ومساحة النظريّات، فإنّه لا بدّ من الاستعانة بالوحى بضميمة محكمات العقل وهى البديهيّات، هذا مع عدم تعطيل العقل فى الفهم مطلقاً والقلب فى ذوق الحقائق.

الأسماء والتوسّل ... ص: ۵۵

إنّ هناك صلة وثيقة بين الأسماء الإلهيّة والتوسّل والتوجّه بها إلى الساحة الربوبيّة، كما قال تعالى: (وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا) («۱»).

فأفرد الضمير الراجع إلى الذات الإلهيّة، وجعل الضمير العائد للأسماء يفيد الجمع، وأنّ دعاءه تعالى والتوجّه إليه والقصد نحوه لا بدّ أن يستعان فيه ويتوسّل إليه بالأسماء، وأنّ هذه الأسماء هى مملوكة له تعالى، فذاته المسمّى وهى دوالّ عليه، وهذا ما يفيده دخول الباء فى البسملة على اسم اللّه فلم تكن أوّل آية فى كلّ سورة وفى مطلع الفاتحة وفى مطلع القرآن بصورة (باللّه) أىذكر لفظة الاسم للتنصيص والتأكيد على إرادة الاسم.

فإنّ استعمال لفظ الجلالة والأسماء الحسنى كما مرّ أنّ استعمالها تارةً يراد به المسمّى، كما هو المنسبق لاستعمالها، واخرى يراد من استعمالها نفس الأسماء،

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۵۶

فالاستعمال الأوّل آلي، والاستعمال الثاني موضوعي، لكن الآليّة والموضوعيّة ليست في اللفظ ولا في المعنى، بل فيما وراء المعنى من واقع الاسم ووجوده، فإنّه تارةً ينظر إليه كآية وعلامة لذات الإلهيّة، واخرى ينظر إليه بما هو هو.

وإرادة النحو الأوّل وتميّزها عن إرادة النحو الثاني في الآيات والسور، وما يذكر من شؤون وصفات للأسماء، أمرٌ بالغ الأهميّة.

ولأجل عدم الإيهام فقد نصّ في البسملة بتعلّق الاستعانة والتوسّل بالاسم، وهو حقيقة التوسّل بعدما عرفت من المباحث السابقة أنّ الأسماء في واقعها وجودات وآيات مخلوقة عظيمة دالّة على العظمة الإلهيّة.

وبذلك يظهر أنّ التوجّه إلى الذات الإلهيّة لا يمكن إلّابالتوسّل أو التوجّه إلى هذه الأسماء، فلولا الاسم لما أمكن التوجّه إلى الغيب المطلق، وكذلك يشير إلى ذلك قوله تعالى: (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَانَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) («۱»)، حيث اسند الدعاء إلى الاسم، وأنّ الدعاء والتوجّه إلى الاسم يؤدّي إلى التوجّه إلى اللّه، فعلّل دعاء أيّ من الأسماء في التسوية بأنّها مملوكةٌ له تعالى، وخاصّة به، ومن شؤونه المؤدّية إليه.

ففي الآية دلالة على أنّ الدعاء لا يتمّ إلّابالتوسّل بالأسماء، ودعاءه تعالى هو بدعاء أسمائه والتوسّل بها، كما أنّه في ذيل الآية الكريمة: (وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

أيأنّ الصدّ عن التوجّه والتوسّل بالأسماء إلى الذات الإلهيّة إلحاد في الأسماء وذلك بإنكار الصلة بين الأسماء والذات الإلهيّة وإنكار أنّ الأسماء الحسنى هي له

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۵۷

تعالى، إذ مقتضى الإقرار بأنّ الأسماء له تعالى هو التوجّه والتوسّل بها إليه، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُسْتَكْبِرُونَ) («۱»).

وكذلك يشير إليه قوله تعالى: (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً) («۲»).

وكذا قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَاتُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ) («۳»).

فبيّن الباري تعالى أنّ التصديق والخضوع للآيات والتوجّه والإقبال عليها لا الصدّ عنها هو فتح لأبواب السماء لصعود الدعاء والأعمال، فآياته العظيمة المخلوقة جعلها أبواباً لسماء رحمته وأبواباً للوقوف على ساحة قربه.

ومن ثمّ ندب للتوجّه والمجيء واللّواذ بنبيّه لأنّه أعظم أبوابه، كما قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) («۴»)، فجعله رحمةً لكلّ العالمين، فهو رحمة اللّه الواسعة وباب نجاتهم، كما وصفه بأشرف أسمائه في قوله تعالى:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِن أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) («۵»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۵۸

والاسم والآية والعلامة والدلالة من باب واحد في المعنى، وقد جعل اللّه الرسول الدليل عليه والداعي إليه والسراج المنير.

وكذلك أهل بيته من بعده، حيث قال تعالى: (إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) («۱»)، فصدارة القرآن بالبسملة، وكذلك كلّ السور يدلّ على أهميّة ودور التوسّل بالأسماء الإلهيّة والأبواب الإلهيّة في الهداية إلى ساحة التوحيد، وأنّه من دون التوسّل بها لا يتمّ إقامة معرفة التوحيد.

وذلك لأنّ الذات الإلهيّة من فرط العظمة والتعالي لا تقرّ بالحدود ولا بالنهايات، فلا يكتنفها شيء ولا يحيط بها ولا يحدّدها أمر، ومع هذا الحال فيمتنع سبيل المعرفة ويلزم التعطيل فيها.

إلّاأن يقام سبيل المعرفة والتوجّه إلى الذات الإلهيّة عبر الآيات التى هى الدلالات والعلامات.

فيتبيّن من ذلك ضرورة التوسّل بها والتوجّه إليها، فهى الركن الركين للإيمان، ومن ثمّ أنذر البارى تعالى المستكبرين والصادّين عن أسمائه وآياته، وأعظمها رسوله المصطفى باستحالة دخول الجنّة، واستحالة الغفران لهم، وامتناع فتح أبواب سماء الرحمة لهم.

وإلى هذا البرهان العقلى تشير بضعة المصطفى عليها السلام فى خطبتها: «واحمدوا اللّه الذى لعظمته ونوره يبتغى من فى السماوات والأرض إليه الوسيلة، ونحن وسيلته فى خلقه، ونحن خاصّته، ومحلّ قدسه، ونحن حجّته فى خلقه» («۲»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۵۹

وتتمّة الكلام ستأتى إن شاء اللّه فى ذيل تلك الآيات.

نظام الأسماء الإلهيّة فى عالم الخلقة ... ص: ۵۹

ومن البحوث الهامّة فى الاسم والأسماء الإلهيّة ما يرسمه القرآن الكريم فى جملة من الآيات من إسناد الفعل الإلهى إلى تلك الأسماء كأسباب فى نظام الخلقة، كما فى قوله تعالى: (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى* الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى* وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى* وَالَّذِى أَخْرَجَ الْمَرْعَى* فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى) («۱»).

فأسند هذه الأفعال بجملتها إلى الاسم الأعلى، إلى الربّ تعالى.

وكذا قوله تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن عَلَقٍ) («۲»).

فهنا الإسناد متمازج، وأنّ الإسناد إلى الاسم عينه الإسناد إلى الذات الإلهيّة.

وكذا قوله تعالى: (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ* وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) («۳»).

فهنا الجلال والإكرام وصف لوجه الربّ، وهو ما يتوجّه به تعالى، وهو الاسم، وهذا التوصيف فى هذه الآية فى قبال التوصيف فى آية اخرى فى نفس السورة (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) («۴»).

فالجلال والإكرام جعل وصف الربّ.

وكذا قوله تعالى: (أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ) («۵»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۶۰

فأسند الخلق إلى الأيدى الإلهيّة، فهنا وصفت الأسماء الإلهيّة التى أسند إليها الخلق فى آيات اخرى وصفت أنّها أيدى إلهيّة، فهى مظاهر قدرة اللّه وتصرّفه.

وقوله تعالى: (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا) («۱»).

وقوله تعالى: (وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ) («۲»).

وكذا قوله تعالى: (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) («۳»).

فأسند التنزيه لاسم الربّ، وكذلك الذكر لاسم الربّ، وكذلك ما مضى فى سورة الرحمن أسند التبارك لاسم الربّ.

وكذلك اسندت الاستعانة فى جملة من الآيات، كما فى آية البسملة، وكما فى قوله تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ) («۴»).

وقوله تعالى على لسان نوح: (وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا) («۵»).

وقوله تعالى: (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)، أى التسبيح والاستعانة بسم الربّ.

كما أنّه وصفت الأسماء تارةً بالاسم الأعلى، كما مضى فى سورة الأعلى، وتارةً بالعظيم كما فى الآية الأخيرة.

إشارات اخرى فى البسملة ... ص: ۶۰

منها: أنّ مجيء اسم الرحمن الرحيم بعد اسم الجلالة يفيد إفادة تامّة أنّ الحاكم

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۶۱

فى عالم الخلقة وأفعال الذات الإلهيّة هو ناموس الرحمة الإلهيّة.

فأفعال البارى تعالى كلّها مظهر رحمة، وأنّ هذا هو الأصل فيها المهيمن عليها، ومن ثمّ فإنّ غاية كلّ فعل إلهى هو الرحمة، كما مرّ فى البحث الروائى.

ويشير إليه قوله تعالى: (قُل لِمَن مَا فِى السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل للَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) («۱»).

وقوله تعالى: (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ) («

).

وكذا قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) («۳»).

وكذلك قوله تعالى: (فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) («۴»).

وكذا قوله تعالى: (أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ) («۵»).

وبيّن ذلك أيضاً البرهان العقلىّ أنّ الذات الأزليّة غنىّ بالذات، ومن غناه الذاتىّ يتقرّر معنى الجود، حيث يفيض ما يفيض من الكمال والجود والقدرة والنعم لا- لطمع غاية يستكمل بها، وهذا معنى الجود الحقيقىّ، فهو تعالى مصدر وجود كلّ ممكن- كما ورد فى الروايات- هو الجواد إن أعطى، وهو الجواد إن منع، وإن بسط، وإن أمسك فإمساكه وقبضه وتقديره ليس لنفاد الخير عنده، ولا لخوف

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۶۲

افتقار، وإنّما حكمه فى تدبير المخلوق، ومن ثمّ يتقرّر أنّ اسم الرحمن الرحيم مهيمن على بقيّة الأسماء الراجعة إلى صفات الفعل.

كما أنّ اسم اللَّه مهيمن على الأسماء الراجعة إلى صفات الذات، وأسماء الذات صفات الذات مهيمنة على الأسماء المشتقّة من صفات الفعل، أى‌غير خارجة عن مقتضاها بل إنّ تقرّرها مشتقّ تكويناً من أسماء الذات.

وعلى ضوء ذلك، فكلّ فعل هو بمقتضى الاسم الإلهى الفرع، لا- بدّ أن يكون متناسباً مع الاسم الإلهىّ الركن، ومتناسباً مع معناه ومقتضاه، ومن ثمّ تفسّر البطشة الإلهيّة والنقمة والعذاب بأنّ حكمتها وغايتها هى الرحمن، بمعنى أنّ العذاب والنقمة والجحيم هى بنفسها رحمة، سواء فى نظام مجموع الخلقة أو لنفس المداوى بذلك العذاب، كما سنبيّن بيان ذلك فى محلّه مفصّلًا.

فاقتران الأسماء الثلاثة فى البسملة التى مرّ أنّها جمع فيها الكتاب يشير إلى هيمنة هذه الأسماء على بقيّة الأسماء، كما أنّ مقتضى هيمنة اسم الجلالة (اللَّه) على بقيّة الأسماء هو أنّ أىّ فعل إلهىّ يصدر، لا بدّ أن يكون متناسباً مع اسم الجلالة بما له من معنى، أى‌متناسب مع الكمال الإلهىّ والصفات الذاتيّة العليا، كما أنّ كلّ الأسماء لا بدّ أن تكون كاسم اللَّه، وتبارك وتعالى متناسبة مع اسم الواحد والأحد.

وممّا يشير إلى نظام مراتب الأسماء ما فى آخر سورة الحشر من الترتيب الذكرىّ للأسماء، سواء بلحاظ طبقات الأسماء، أو بلحاظ مراتب الطبقة الواحدة.

فجعل اسم (هو) وهو الذى يشير إلى غيب الذات، مهيمن على اسم الجلالة (اللَّه)، كما انّ اسم الجلالة مهيمن على اسم الرحمن الرحيم، كما أنّ هذه الطبقة

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۶۳

مهيمنة على الطبقة الثانية وهى (الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ) («۱»)، وهذه الطبقتين تأثيراتها فى عالم

الملكوت كما أنّها مهيمنة على الطبقة الثالثة، وهى (الخالق البارى المصوّر) الحاكمة مقتضياتها على عالم المادّة الغليظة من دار الدنيا.

(الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ ...) ص: ۶۳

معانى الحمد ... ص: ۶۳

روى الصدوق فى «الخصال»: عن علىّ بن الحسين عليهما السلام، قال: «ومَن قال:

الحمد للَّهفقد أدّى شكر كلّ نعمة للَّهعزّ وجلّ عليه» («۲»).

ونظيرها: روى الكلينى فى صحيحة صفوان الجمّال، عن أبى عبداللَّه عليه السلام، قال: «قال لى: ما أنعم اللَّه على عبد بنعمة صغرت أو كبرت، فقال الحمد للَّهإلّاأدّى شكرها» («۳»).

بيان: الظاهر أنّ المراد أنّ بالحمد والتحميد يتأدّى ويتحقّق الشكر، لا أنّ حقيقة الحمد هى الشكر.

وفى رواية اخرى رواها الكلينى، عن أبى عبداللَّه عليه السلام أنّ شكر اللَّه حقّ شكره هو قول: الحمد للَّه («۴»)، ويظهر من هذه الرواية أنّ هذا القول هو أتمّ ما يمكن أن يؤدّى به الشكر، وإن كان لازم الإقرار بقول: الحمد للَّههو الالتزام ببقيّة مراتب

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۶۴

أداء الشكر القوليّة والفعليّة.

وروى علىّ بن إبراهيم فى تفسيره فى الموثّق عن أبى عبداللَّه عليه السلام، فى قوله (الْحَمْدُ للَّهِ)، قال: «الشكر للَّه»، وفى قوله: (رَبِّ الْعالَمِينَ)، قال: «خلق (خالق) المخلوقين» («۱»).

وصدر الحديث محمول على تأدية الشكر بالحمد.

وروى الصدوق فى «الخصال» عن أبى عبداللَّه عليه السلام، قال: «إنّ للَّهعزّ وجلّ اثنى عشر ألف عالم، كلّ عالم منه أكبر من سبع سماوات وسبع أرضين، ما يرى عالم منهم أنّ للَّهعزّ وجلّ عالماً غيرهم، وأنا الحجّة عليهم» («۲»).

وقد ذكر فى تعاريف الحمد لغةً أقوال كثيرة، فقد قال السيّد على خان المدنى فى «رياض السالكين»: «الحمد هو الثناء على ذى علم بكماله، ذاتيّاً كان كوجوب الوجود والاتّصاف بالكمالات والتنزّه عن النقائص، أو وصفيّاً ككون صفاته كاملة واجبة، أو فعليّاً ككون أفعاله مشتملة على حكمة، فأكثر تعظيماً له، وآثره على المدح الذى هو الثناء على الشىء بكماله ذا علم كان أو لا» («۳»).

أقول: ما ذكره السيّد من الفرق بين الحمد والمدح من أنّ الحمد أكثر تعظيماً من المدح، قد أشارت إليه الروايات:

وهو أنّ الحمد وصف للكمالات العظيمة ومعالى الفضائل بخلاف المدح، فهو أعمّ من هذه الجهة والحمد أخصّ، ومن ثمّ فالمحمود أعلى شأناً من الممدوح.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۶۵

والفارق الثانى: أنّ الحمد خاصّ بذى علم، بخلاف المدح فإنّه أعمّ.

وقد فرّق بينهما بالعلم دون الاختيار، وفى الجمع جعل الحمد نقيض الذمّ، والمدح نقيض الهجاء، والشكر نقيض الكفران.

والحمد قد يكون من غيرنعمة، والشكر يختصّ بالنعمة، وذكر أنّ الشكر هو اعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم، وأنّ الأصل فيه أن يكون فى القلب، وعلى ضوء هذه المقابلة فإنّ المدح إنشائىّ بالأصل وإن تضمّن الإخبار بالالتزام بخلاف الحمد، فإنّه إخبار فى الأصل، وإن تضمّن الإنشاء، كما أنّ من هذه التفرقة يظهر أنّ الحمد يكون بدواعى عقليّة بخلاف المدح، فإنّه يكون بعموم دواعى الإنشاء.

وفى «الكشّاف»: «الحمد والمدح أخوان، وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها. تقول: حمدت الرجل على إنعامه، وحمدته

على حسبه وشجاعته» («۱»).

وقيل: إنّ الحمد هو الثناء باللسان على الجميل الاختيارى («۲»).

وعلى أوسع تعاريف الحمد، فيكون هو الإخبار أو الوصف أعمّ من الذاتيّة أو فى مقام الأفعال.

وفى «مصباح الشريعة»: «أدنى الشكر رؤية النعمة من اللّه من غير علّة يتعلّق القلب بها دون اللّه عزّ وجلّ والرضا بما أعطى، وأن لا يعصيه بنعمته وتخالفه بشيء من أمره ونهيه بسبب نعمته» («۳»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۶۶

ثمّ إنّ لفظة الربّ قد استعملت فى القرآن بمعنى مطلق المدبر، كما فى سورة يوسف: (وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ) («۱»).

(فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ) («۲»).

جامعيّة الحمد ... ص: ۶۶

وحيث أنّ معنى الحمد يتضمّن معنى الشكر- كما مرّ-، ومعنى الشكر منطوٍ بالاعتراف بالنعم من المنعم فضلًا عن الاعتراف بالمنعم كما يتضمّن نحو تعظيم للمنعم، ومن ثمّ قيل فى تعريفه أيضاً: مقابلة الإحسان بالإحسان بالابتداء بالحمد للّه إشارة إلى وجوب الشكر الواجب للمنعم وهو يتضمّن الإقرار بالتوحيد بالذات والصفات والأفعال والإقرار بجملة الدين من الطاعة والعبوديّة له تعالى، حيث إنّ مقام الإحسان بعد الاعتراف بمقام العبوديّة للّه‌تعالى إنّما يكون لقيام العبد بخدمة وطاعة مولاه، ومن ثمّ قوبل الشكر بالكفر فى قوله تعالى: (إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً) («۳»)، وإلى ذلك تشير الآيات فى سورة لقمان أنّ أوّل أمر كان فى حكمة لقمان هو الشكر للّه، كما فى قوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ) («۴»).

وهذا الذيل إشارة إلى أنّ شكر العبد للبارى نفعه أيضاً راجع إلى العبد،

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۶۷

ولا ينتفع البارى منه بشيء لأنّه غنىّ حميد.

فالشكر كما ورد فى الروايات يقتضى شكراً.

ومن ثمّ كان مقام الحمد هو مقام الطائعين، وحال العصيان مقام سخط، ومن ثمّ قيل: إنّ الحمد يتضمّن الرضا، فمقام الحمد مقام جامع للدين كلّه، مبتدئه ومنتهاه، فهو مفتتح الامور وختامها، ولعلّ إليه الإشارة: (وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) («۱»).

ومن هنا يفهم معنى كون لواء الحمد لواء النبىّ وبيد علىّ عليه السلام.

وفيه إشارة إلى أنّ منهاج علىّ هو طريق النجاة، وهو باب مدينته، فلفظ (الْحَمْدُ لِلَّهِ) ذكر جامع لجملة ما فى القرآن الكريم.

المقارنة بين البسملة والحمد ... ص: ۶۷

فإنّه قد جعل مفتتح الأشياء البسملة، ويشير إليه أيضاً قوله تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ) («۲»)، فإنّه جعل مبتدأ القراءة مستعين ببسم الربّ، ثمّ جعلت القراءة مصاحبة بالتحميد والتوصيف له تعالى بالكمال: (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ)

وقد أخرج السيوطى فى «الدرّ المنثور» جملة من مصادرهم، قوله صلى الله عليه و آله:

«كلّ أمر ذو بال لا يبدأ فيه بحمد اللّه فهو أقطع» («۳»).

وهذه الرواية قد رويت مستفيضة فى البسملة، ولعلّ الاشتباه من الرواة، وعلى تقرير صحّة صدورها، ففيها إشارة إلى نحو تطابق بين

معنى البسملة

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۶۸

والحمد، وقد يقرّر بأنّ فى البسملة اعتراف ضمنىّ بإنعام اللَّه تعالى والتعظيم له.

وفى «نهج البلاغة»: «الْحَمْدُ للَّهِ الَّذى جَعَلَ الْحَمْدَ مِفْتاحاً لِذِكْرِهِ، وَسَبَباً لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ، وَدَلِيلًا عَلَى آلَائِهِ وَعَظَمَتِهِ» («۱»)، ولعلّ مفاده ما تقدّم.

حقيقة الحمد والحسن والقبح العقليّين ... ص: ۶۸

فإنّ واقعيّة الحمد تقتضى واقعيّة المدح، وهى تقتضى واقعيّة الحسن العقلىّ، ومن تعريف الحمد بأنّه النعت بالكمال يتقرّر تعريف المدح بأنّه الثناء بالجميل، والكمال، والكمال أمر واقعىّ وليس اعتبارىّ، فالوصف به مع مطابقة الواقع يكون كالصدق على خلاف الذنب، فإنّه الوصف بالنقص، ومنه يظهر زيف ما ادّعى من أنّ المدح والذمّ أمران اعتباريّان تتطابق عليهما آراء العقلاء ويتباينون عليهما كآداب المصالح العامّة، وكآراء محمودة، فإنّما الكمال والنقص واقعيّان بغضّ النظر عن الآراء والتوافقات العقلائيّة.

وكذلك الوصف بهما الذى هو حقيقة ماهيّة المدح والحمد، وماهيّة الذمّ والهجاء، ومن ثمّ يقال: مدح صادق ومدح كاذب، وكذلك بالذمّ والهجاء، أى يجعل واقع مدار لمطابقته وعدمها.

ومن ثمّ فإنّ صفة الحمد واسمه من الأسماء الحسنى له تعالى بغضّ النظر عن نشأة النظام الاجتماعى.

كما ورد فى دعاءه عليه السلام: «الْحَمْدُ للَّهِ الْأَوَّلِ قَبْلَ الْإِنْشاءِ وَالْإِحْياءِ، وَالْآخِرِ بَعْدَ فَناءِ الْأَشْياءِ» («۲»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۶۹

وبذلك تظهر المغالطة فى التفكيك بين المدح والحمد، وبين الكمال والملائم، أو بين الذمّ والنقص والمنافر، كما ارتكبه الأشعرى ووافقه عليه ابن سينا، ومن ذلك يظهر أيضاً أنّ الحمد عنوان لفطرة العقل، أو لإدراك فطرة العقل، ومن ثمّ يتطابق مع ما مرّ من وجوب شكر المنعم المستفاد من الحمد، إذ هو من مدركات العقل العملىّ، أو يمكن تقريره أنّه من مدركات العقل النظرى، فالابتداء بالحمد إشارة إلى أنّ مبدأ الإقرار بالدين هو بإدراك العقل للمنعم وإنعامه، ووجوب شكره وقبح الجحود، وأنّ كمال المخلوق فى شكر المنعم ونقصه وتردّيه فى الجحود والكفر.

(رَبِّ الْعالَمِينَ ...) ص: ۶۹

وقال تعالى: (وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا) («۱»).

وقد تقدّمت الرواية من أنّ العوالم التى خلقها اللَّه عزّ وجلّ اثنى عشر ألف عالم، كلّ منها أكبر من سبع سموات وسبع أرضين.

والرواية عن أبى عبداللَّه عليه السلام: «إنّ للَّهعزّ وجلّ اثنى عشر ألف عالم، كلّ عالم منهم أكبر من سبع سموات وسبع أرضين، ما يُرى عالم منهم أنّ اللَّه عزّ وجلّ عالم غيرهم، وأنا الحجّة عليهم» («۲»).

وروى الصدوق فى «التوحيد» عن أبى جعفر عليه السلام فى حديث: «لعلّك ترى أنّ اللَّه إنّما خلق هذا العالم الواحد أو ترى أنّ اللَّه لم يخلق غيركم، بلى واللَّه خلق ألف ألف وألف ألف آدم أنت فى آخر تلك العوالم واولئك الآدميّين» («۳»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۷۰

بيان: قد وردت لفظة العالمين فى قولهتعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) («۱»).

وقوله تعالى: (فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّماوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) («۲»).

وفى صفة القرآن: (وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) («۳»).

فالعالمين سواء حملت على الامم بحسب الأزمنة، أو على العوالم، فإنّ فى الآيات إشارة إلى أنّ البعثة لسيّد الرسل هى إلى الجميع، ومن هنا يكون مقام أوصيائه كذلك، وإليه الإشارة فى قوله عليه السلام: «وأنا الحجّة عليهم».

وهذا المقام من عموميّة بعثة الرسل من خواصّ سيّد الأنبياء، وبذلك يفضّل أوصياؤه.

ومن الموارد التى استعملت العالمين فى امم شعوب البلدان قوله تعالى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) («۴»)، فإنّ المراد امم بلدانهم، أى‌امم البلدان فى زمانهم بقرينة قوله: (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) («۵»).

وكذا قوله تعالى فى شأن مريم: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ) («۶»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۷۱

سرّ الخلقة ... ص: ۷۱

ثمّ إنّ تعقيب (الْحَمْدُ للَّهِ) بصفة (رَبِّ الْعَالَمِينَ)، ثمّ بعدها بصفة (الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)، ثمّ بعدها بصفة (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) بمثابة التعليل للحمد، ويمكن أن تُجعل صفة (رَبِّ الْعَالَمِينَ): بمعنى المبدءُ لعوالم الخلقة، و (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) إشارة إلى المنتهى، وأنّه إليه المعاد والمنتهى، وأنّ غاية خلقة الخلق مبدأ ومنتهى هو الرحمة والإنعام والجود والكرم وظهور صفاته صفة (الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) بهذا الفعل وهو الخلق.

نذكر صفة (الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) فى البسملة وهى الآية الاولى، وبعد الآية الثانية المتضمّنة للخلقة كأنّه بيان لكون هاتين الصفتين منشأ للخلقة ومنتهى وغاية لها، كما أنّه يحتمل فى ذكر (الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) أنّ الاولى صفة فى مرتبة الصفات الذاتيّة والأخيرتين فى مرتبة الصفات الفعليّة.

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ...) ص: ۷۱

إنّ من المرتكز فى عموم الأذهان أنّ الآية تشير إلى المعاد، وأنّه المراد بيوم الدين، أى‌يوم التداين والحساب، والمالك له يومئذٍ هو ربّ العالمين، كما فى قوله تعالى: (لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ* يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَايَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ* الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَاظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) («

).

ولكن فى سور عديدة أكّد على أنّ الملك مطلقاً هو للَّه‌تعالى، كما فى قوله تعالى: (وَقُلِ الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۷۲

وَلَمْ يَكُن لَهُ وَلِىٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً) («۱»).

وقوله تعالى: (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ) («۲»).

وقوله تعالى: (وَللَّهِ مُلْكُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) («۳»).

وقوله تعالى: (وَللَّهِ مُلْكُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) («۴»).

وقوله تعالى: (وَللَّهِ مُلْكُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ) («۵»).

وقوله تعالى: (لَهُ مُلْكُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) («۶»).

ففى هذه الآيات بيان أنّ الملك فى مطلق العوالم هو للَّه‌وهو برهان على أنّ المعاد إليه تعالى، لأنّه هو الذى بيده إعطاء العاقبة لكلّ

شيء، وإفاضة كلّ غاية على كلّ ذات بحسب صفاتها وأفعالها، فبراهين ودلائل المبدأ هى بنفسها مقتضية لكونه المنتهى، فليس ملكه منحصر بيوم القيامة.

وكذا قوله تعالى: (وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ) («۷»)، وهى أيضاً تبيّن أنّ المجازات وإيصال كلّ شيء إلى غايته هى بيده

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۷۳

تعالى، بدليل أنّ الملك مطلقاً له، نظير تعليل الشفاعة، وأنّها بيده، كما فى قوله تعالى: (قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ) («۱»).

إلّاأنّ فى جملة من الآيات تخصيص إسناد الملك يوم الدين إليه تعالى، وهذا ليس من تخصيص ملكه ليوم الدين، بل من تخصيص ملك يوم الدين به تعالى من قبيل حصر الصفة بالموصوف لا الموصوف بالصفة، كما فى قوله تعالى: (وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) («۲»).

وقوله تعالى: (حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ* الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ) («۳»).

وقوله تعالى: (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا* الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً) («۴»).

إلّاأنّه يقع الكلام فى وجه هذا التخصيص، فإنّ فى ذلك اليوم أيضاً قد أسند جملة من الأفعال إلى الملائكة، كما أنّ الشأن فى دار الدنيا وبقيّة العوالم أيضاً هو كونه تعالى مالك الملك، فأىّ وجه يبقى للتخصيص حينئذٍ؟

ولعلّ الوجه فى ذلك أنّ فى دار الدنيا حيث أنّها دار امتحان، فقد تتخلّف المشيئة الإلهيّة التكوينيّة عن الإرادة التشريعيّة بحسب المقايسة إلى ذات الفعل المحدود، فتختلف إرادة العبد عن الإرادة التشريعيّة الإلهيّة، وأمّا فى دار الآخرة

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۷۴

فلا مجال لذلك التغاير، وتكون إرادة العبد دائماً منطبقة مع الإرادة الإلهيّة، فضلًا عن المشيئة الإلهيّة، كما فى قوله تعالى: (بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ* لَايَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) («۱»)

وكما فى قوله تعالى: (نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) («۲»).

وكما فى قوله تعالى: (لَهُم مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) («۳»).

فهذا شأن أهل الجنّة بأنّ مشيئتهم وإرادتهم مرضيّة له تعالى، وأمّا أهل النار فإنّهم بتوسّط ما يجرى عليهم من ألوان العذاب فيوصفون بقوله تعالى: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ* عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ) («۴»)، ووصفوا بأوصاف اخرى، كما فى قوله تعالى:

(وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ* تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ) («۵»).

وكذا قوله تعالى: (لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ* مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَايَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ) («۶»)، فيوم الدين هو يوم اللقاء، وهو دار القرب الإلهى، وليس يجوز فيها العصيان والتمرّد على المشيئة الإلهيّة، وإن لم تنعدم إرادة المخلوق، كما يشير قوله تعالى لإبليس عندما عصى الأمر بالسجود، قال:

(فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا) («۷»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۷۵

ويستفاد من هذه قاعدة وسنّة كونيّة وهى أنّ العوالم كلّما قربت من الحضرة الإلهيّة كلّما كان التسليم للإرادة والمشيئة الإلهيّة أشدّ، فكلّما كان القرب أقرب كلّما كانت الطاعة أشدّ، وكلّما كانت أقلّ كان المقام أبعد، ومن ثمّ كان عالم الدنيا والأرض من أبعد العوالم عن الحضرة الإلهيّة وأهبطها وأدناها، فتوصيف عوالم القرب والزلفى الإلهيّة بأنّها عوالم الملك الإلهىّ، بهذا اللحاظ، أى أنّه يكون ظهور الملك الإلهىّ وتوحّد الإرادة الإلهيّة أجلى، ويشير إلى ذلك قوله تعالى:

(أَمْ لَهُم مُلْكَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ* جُندٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ) («۱»).

هذا، وقد روى فى «نور الثقلين» عن أهل البيت عليهم السلام كلّ من قراءة (مالك) وقراءة (ملك) («۲»)، وإن كانت الاولى أكثر روايةً، وأمّا القراءات العشر فالأشهر عندهم قراءة (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)، وقرؤوها أيضاً ب (ملك) يوم الدين، وهناك قراءات شاذّة اخرى نظير قراءة (ملك) بصيغة الفعل الماضى، و (مليك) بصيغة فعيل، وغيرها من القراءات الشاذّة.

(يَوْمِ الدِّينِ ...) ص: ۷۵

روى فى «الفقيه» رواية الفضل للعل عن الرضا عليه السلام أنّه قال: «(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) إقرار له بالبعث والحساب والمجازاة، وإيجاب ملك الآخرة له، كإيجاب ملك الدنيا» («۳»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۷۶

ويقع الكلام فى إطلاق وتسمية اليوم فى مقابل الليل على مشهد الحساب والبعث، وقد اطلق عليه اليوم فى موارد عديدة من الآيات والسور.

فسمّى باليوم الآخر: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ) («۱»).

وسمّى بيوم القيامة: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا أُولئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) («۲»).

و (يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ) («۳»).

واضيف اليوم إلى نعوت أحوال القيامة، كما اطلق اليوم على المشاهدة الحافلة بالأحداث العظيمة، كقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ) («۴»).

وقوله تعالى: (وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ) («۵»).

وقوله تعالى- فى مشهد غدير خم-: (الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) («۶»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۷۷

وكقوله تعالى: (يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ) («۱»).

وكقوله عن بدر: (يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ) («۲»).

وقوله تعالى: (يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ) («۳»).

وقوله تعالى: (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ) («

).

وقوله تعالى: (يَوْمَ خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ) («۵»).

وفى قوله تعالى: (وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ) («۶»).

وقوله تعالى فى طوفان نوح: (قَالَ لَاعَاصِمَ الْيَوْمَ مِن أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَحِمَ) («۷»).

وقوله تعالى فى شأن إبليس: (قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ* إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ) («۸»).

وقوله تعالى عن الرجعة: (وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لَايُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) («۹»).

وقوله تعالى: (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ) («۱۰»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۷۸

كما اطلق الليل على ليلة القدر، فاستظهر أنّ هناك نزول للمقادير والقضاء الإلهى فى ألواح القضاء، والقدر يُطلق عليه الليل بلحاظ عوالم الخلقة، واليوم يُطلق على العروج وما يتعاقب من العوالم عقب الآخر، كما يشير إليه قوله تعالى:

(تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَ لْفَ سَنَةٍ) («۱»).

وقوله: (وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) («۲»)، وتقييد اليوم عند ربك إشارة إلى مقام القرب الإلهى لذلك العالم، فهو أيضاً يسير إلى قوس العروج فى قبال النزول.

وقوله: (ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) («۳»).

وعلى ذلك تكون كلّ نشأة متأخّرة هى بمثابة اليوم للنشأة المتقدّمة التى هى بمثابة الليل، باعتبار أنّ النشأة المتقدّمة بما تحتوى من أحوال وأحكام ووقائع تكون بمثابة التقادير والقضاء فى التأثير على النشأة اللّاحقة، وكأنّما الآثار الحقيقيّة لكلّ نشأة إنّما تظهر فى النشئات اللّاحقة والمتعقبة لها، فكلّ نشأة بمثابة السكن بالقياس إلى آثار النشأة اللّاحقة، واللّاحقة معاش وانبعاث عن ليل النشأة السابقة، ولعلّ إليه يشير الحديث النبوى: «الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا» («۴»).

فكأنّ دار الدنيا منام ليلى، والموت والآخرة انتباه ويقظة ويوم متعقّب، وكذلك قوله تعالى: (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) («۵»)،

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۷۹

وكأنّما الحياة الدنيا كحياة الجنين فى الرحم يبعث منها إلى الحياة الحقيقيّة وهى الآخرة، وكما فى قول سيّد الشهداء الحسين بن علىّ عليهما السلام: «الدنيا حلوها ومرّها حلم» («۱»)، أى أنّ الإدراك الموجود فى هذه النشأة بالقياس إلى الإدراك الموجود فى عالم الآخرة إدراك ضعيف، كما أنّ الوصول إلى الأشياء بحقائقها ليس متحقّقاً فى هذه النشأة، بل الأشياء وجواهرها فى النشأة اللّاحقة أشدّ وجوداً وقوّة وكمالًا، والوصول إليها أتمّ وإدراكها أحدّ، وإلى كلّ ذلك الإشارة فى قوله تعالى:

(لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِن هذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) («۲»).

فمن ثمّ يمكن تلخيص هذا المعانى بأنّ اليوم يستعمل فى المشهد الأقوى والأتمّ الحافل بالأهميّة فى قبال الليل، حيث يستعمل فى الحال الممهّد والذى يُعدّ لما بعده. وعلى ضوء ذلك وعلى ما يقرّر من أنّ الجنّة والنار مخلوقتان بالفعل كما هو المأثور فى روايتهم عليهم السلام، ويمكن أن يستظهر من بعض الآيات. بمقتضى ذلك كلّه يقدر أنّ نشأة يوم الدين قائمة بالفعل، إنّما الخلق يسيرون إليها بالانتقال من عالم ونشأة إلى اخرى، وهى نشأة من نشئات الملكوت، وبالتالى فيقرّر ما مرّ سابقاً من أنّ نشئات القرب الإلهى أشدّ مظهراً للولاية الإلهيّة وأكثر تجلّياً للمشيئة والإرادة الربّانيّة، أو لظهور الملك الإلهى.

(الدِّينِ ...) ص: ۷۹

فى «تفسير القمّى» صحيحة أبى‌بصير عن أبى عبداللّه عليه السلام فى حديث (مَالِكِ

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۸۰

يَوْمِ الدِّينِ)، قال: «يوم الحساب، والدليل على ذلك قوله: (وَقَالُوا يَاوَيْلَنَا هذَا يَوْمُ الدِّينِ) («۱») يعنى يوم الحساب» («۲»).

وقد مرّ رواية «الفقيه» أنّ يوم الدين يوم الحساب، وقد ورد الدين واستعماله فى الآيات والسور، كما ذكر له اللغويّون معانى عدّة، وهى منطوية فيه بنحو ما، منها الحساب والجزاء والعادة والخضوع والانقياد قبال المقرّرات والتشريع، ودان نفسه: أى أذلّها واستعبدها (إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ) («۳»)، أى غير مملوكين، وقيل: غير مجزيّين، ودان الرجل: إذا عزّ، أو إذا ذلّ، أو إذا أطاع، أو إذا أعطى، أو إذا اعتاد خيراً أو شرّاً، أو إذا أصابه الدَّين، والدِّين- بالكسر- اسم مصدر، والدَّين مصدر، ويقرب المعنى فى المقام من قوله تعالى: (فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ* أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ) («۴»)، حيث تفسّر من جهة مآلى الامور أنّها كلّها بيده تعالى، سواء فيما يقع فى

دار الدنيا أو صيرورة الامور فى العوالم الاخرى إليه تعالى، فلا يخرج عن حاكميّته وسلطانه وقهره شىء، ومن ثمّ فالمعاد مظهر من مظاهر توحّيده فى القدرة والسلطان والحكم، لا سيّما وأنّ اصول الدين كلّ أصل منها مظهر من مظاهر التوحيد كما سيأتى بيانه فى ذيل السورة، فإنّ المعاد توحيد للّه‌فى الغاية والمنتهى، كما هو توحيد فى الحاكميّة والمالكيّة والقاهريّة والقدرة والسلطان، بل إنّ فى هذه الآية إشارة إلى أحد براهين المعاد، وكذا نظيراتها من الآيات التى سبق الإشارة إليها، وهى أنّه ما دام أنّ القدرة والقيمومة هى للّه‌تعالى، فلا بدّ من كون الغاية هى العلّة الفاعليّة، فبداهة خالقيّة

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۸۱

اللّه تعالى وفيّاضيّته وقدرته تستلزم كونه الغاية، أى‌تستلزم المعاد إليه.

وببيان آخر، أنّ حاكميّته تعالى لها وجوه متعدّدة من سلطانه التكوينى وقيوميّته، ومن كونه مشرّعاً، وعن كونه قاضياً تكويناً وتشريعاً، وسائساً كذلك، فثبوت هذه الصفات له تعالى بعينها تستلزم إطلاقها وعمومها ودوامها يستلزم الدين والهداية والحساب والمجازاة التكوينيّة بألوانها ودرجاتها بيده تعالى، وكما يكون مفيض الكمال ومبدأ الفيوضات منه تكون غاية تكامل المخلوقات بالاقتراب من كماله بتوسّط تلك الفيوضات، ومن ثمّ اشير فى سورة التين إلى وجه التصديق وعدم التكذيب بيوم الدين إلى أنّه تعالى أحكم الحاكمين، وكذلك فى سورة الفاتحة، حيث أنّه اضيف مالك إلى يوم الدين من إضافة الدليل إلى الدعوى، وهى مالك إلى القول والمعتقد وهو يوم الدين، فصفة مالك هى بنفسها برهان المعاد، فمن يستبين ويتبيّن لديه إطلاق مالكيّة اللّه وحاكميّته وسيطرته وقدرته على كلّ المخلوقات والعباد، يستبين لديه أنّه رقيب عليهم، ولا يفلت من قدرته وسيطرته أحدٌ منهم بأىّ عمل من أعماله، ومآل ونتائج أعمالهم وأحوالهم وصفاتهم إليه تعالى، لأنّه لا يخرج عن سيطرته وقت من الأوقات ولا عالم من العوالم، ولا أجل من الآجال ولا قدر من الأقدار.

وقد اشير إلى هذا البرهان فى سُور وآيات عديدة بألفاظ مختلفة، وانطلاقاً من صفات وأسماء متعدّدة منشعبة من وصف واسم القدرة للتدليل على المعاد ويوم الحساب، وصيغة هذا البرهان لمّيّة كما هو واضح، بخلاف جملة من صياغات البراهين الاخرى التى اعتمدها الفلاسفة ممّا مشار إليها فى الآيات والسور بالأحاديث انطلاقاً من الأعمال أو سير النفوس بأطوار وتكاملها، فإنّها أشبه بالبراهين الإنّيّة.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۸۲

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ...) ص: ۸۲

روى الطبرسى فى «الاحتجاج» عن النبىّ صلى الله عليه و آله: «(إِيَّاكَ نَعْبُدُ) أى‌واحداً، لا نقول كما قالت الدهريّة: إنّ الأشياء لا بدو لها، وهى دائمة، ولا كما قالت الثنويّة الذين قالوا: إنّ النور والظلمة هما المدبّران، ولا كما قال مشركو العرب: إنّ أوثاننا آلهة، فلا نشرك بك شيئاً، ولا ندعو من دونك إلهاً، كما يقول هؤلاء الكفّار، ولا نقول كما تقول اليهود والنصارى: إنّ لك ولداً، تعاليت عن ذلك علوّاً كبيراً» («۱»).

وروى فى «الفقيه» عن الفضل، عن الرضا عليه السلام: «(إِيَّاكَ نَعْبُدُ) رغبةٌ وتقرّبٌ إلى اللّه تعالى ذكره، وإخلاص له بالعمل دون غيره، (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) استزادة من توفيقه وعبادته، واستدامة لما أنعم اللّه عليه ونصره» («۲»).

وروى العيّاشى عن بعض أصحابنا، قال: «اجتمع أبو عبداللّه عليه السلام مع رجل من القدريّة عند عبدالملك بن مروان، فقال القدرى لأبى عبداللّه عليه السلام: سل عمّا شئت.

فقال له: اقرأ سورة الحمد.

قال: فقرأها، فقال الأموىّ (وأنا معه): ما فى سورة الحمد علينا، إنّا للّه‌وإنّا إليه راجعون، قال: فجعل القدرىّ يقرأ سورة الحمد حتّى بلغ قوله تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)، فقال له جعفر: قف، مَن نستعين، وما حاجتك للمعونة؟! إنّ الأمر إليك، (فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ

وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) («۳»)» («۴»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۸۳

وروى فى «مجمع البيان»، قال: «قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: إنّ اللَّه تعالى منّ علَىَّ بفاتحة الكتاب (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) إخلاصاً للعبادة، (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) أفضل ما طلب به العباد حوائجهم» («۱»).

والعبادة فى اللغة هى الذلّة والانقياد والخضوع والطاعة، كما فى قوله تعالى:

(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِى آدَمَ أَن لَّاتَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ) («۲»)، وقيل هى أعلى مراتب الخضوع والتعظيم وضرب من الشكر على اصول النعم.

وعن الراغب فى مفرداته، قال: «إنّ العبوديّة إظهار التذلّل، والعبادة أبلغ منها لأنّها غاية التذلّل ولا يستحقّها إلّامَن له الإفضال، وهو اللَّه تعالى» («۳»).

وهل العبوديّة فى مقابل الربوبيّة أو مقابل الالوهيّة أو غيرهما كمقابلتها بالمولى ذى الولاية.

التوحيد فى العبادة والاستعانة ... ص: ۸۳

ثمّ إنّ تقديم الضمير المفعول للفعل يفيد الحصر، وحينئذٍ فالآية مسوقة لحصر العبادة، وكلّ أنواعها للَّه‌تعالى، وكذلك حصر الاستعانة به بأنواع الاستعانات، إلّاأنّ الكلام يقع فى كيفيّة الأنواع، العبادات والاستعانات، وقد يقال بأنّ هذه السورة بتضمّنها لهذه الآية من حصر العبادة باللَّه تعالى وهو توحيد العبادة وحصر الاستعانة للَّه، وهو توحيد الاستعانة، تعبير عن إتجاه الإسلام فى

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۸۴

رفض الوسطاء بين اللَّه والإنسان، هؤلاء الوسطاء الذين أفتعلتهم المذاهب، فتعلّم السورة البشر أن يرتبط باللَّه بدونما واسطة وتبلور هذا الارتباط الوثيق بين اللَّه والإنسان وبين الخالق والمخلوق دونما واسطة، وإن كان نبيّاً مرسلًا أو ملَكاً مقرّباً، ومن ثمّ صار لهذه السورة الصدارة فى الكتاب العزيز، وهذا المضمون يحرّر الإنسان عن أىّ موجود من الموجودات ويربطه باللَّه وحده.

ولو تحرّك الإنسان فى دائرة استنطاق الأسباب إنّما يتحرّك بدائرة أمر اللَّه تعالى وهو مسبّب الأسباب.

والصحيح: أنّ العبادة للَّه‌تعالى هى على أنماط بقدر ما للعبادة من معانى، فمنها الطاعة والخضوع والانقياد والتذلّل والتأليه والتوجّه وغيرها، وهذه الأنماط منها ما قد فصّله البارى فى كتابه، فجعل من بنود طاعته طاعة رسوله، فإنّ اقتران طاعة اللَّه مع طاعة الرسول فى موارد كثيرة عديدة للتأكيد على أنّ طاعة اللَّه لا تنفكّ، بمعنى أنّ طاعة اللَّه لا يمكن أن يتفرّد بها عبد من دون أن تقترن بطاعة الرسول صلى الله عليه و آله، فجعل اللَّه تعالى طاعة رسوله طاعة له، فقال: (مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) («۱»).

ولذلك جعل طاعة اولى الأمر مقرونة بطاعة الرسول وطاعته تعالى، فقال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ) («۲»)، فلا تتمّ طاعة اللَّه تعالى إلّاباستكمال طاعة رسوله واولى الأمر.

فتوحيده تعالى بالطاعة وهى نمط من العبادة لا يتمّ إلّابطاعة من نصبهم اللَّه سفراء بينه وبين خلقه، بل لو تمرّد عاصٍ على طاعة الرسول واولى الأمر من أهل بيته، لمّا وحّد اللَّه فى الطاعة ولا كان موحّداً للَّه‌فى هذا النمط من العبادة، وكذلك

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۸۵

الحال فى الانقياد والاتّباع، لأنّ الطاعة تتضمّنهما.

وكذلك الحال فى التعظيم، فإنّه تعالى قد أمر بتعظيم رسوله وجعل تعظيمه من تعظيم اللَّه، كما قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ

بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَاتَشْعُرُونَ* إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى) («۱»).

وقال تعالى: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِن أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) («۲»).

وغيرها من الآيات الدالّة على عظائم صفات النبيّ صلى الله عليه و آله، فمَن رفع صوته فوق صوت النبيّ صلى الله عليه و آله فقد حبط إيمانه، ومن صغّر قدر الرسول صلى الله عليه و آله واستهان بمقامه فقد تعدّى على ساحة الربوبيّة، والأمر الإلهى بتعظيم الرسول صلى الله عليه و آله.

وكذلك الحال فى ما ذكره القرآن الكريم من مدائح وفضائل دالّة على تعظيم أهل بيت النبيّ صلى الله عليه و آله، فلا يتمّ تعظيم اللّه عزّ وجلّ إلّابتعظيم من عظّمه اللّه، فتعظيم اللّه الذى هو ضرب من العبادة لا يتمّ إلّابتعظيم اللّه وتعظيم كلّ مَن ندب اللّه إلى تعظيمه، فتوحيد اللّه فى هذا النمط من العبادة لا يتمّ إلّافى ذلك، فلا يمكن التفريق بين اللّه ورسله، كما يقول القرآن: (وَيُرِيدُونَ أن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ) («۳»).

وكذلك الحال فى التوجّه إلى اللّه، فإنّه كما أمر اللّه بالتوجّه إليه كما فى قوله على

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۸۶

لسان نبيّه إبراهيم: (إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ) («۱»).

وقوله تعالى: (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ) («۲»).

وقوله تعالى: (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) («

»)، فإنّ التوجّه يعنى الاتّجاه بالوجه والتواجه إلى وجه اللّه تعالى، وهذا التلازم ذاتى معنى التوجّه، فالمتوجّه- بالكسر- يتّجه إلى جهة المتوجّه- بالفتح- ويواجه وجهه.

وكذلك أمر اللّه بالتوجّه إلى نبيّه بغية التوجّه إليه، فقال: (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً) («۴»)، فاشترط تعالى التوبة والإياب إليه بالتوجّه إلى رسوله، ومن ثمّ يحصل التوجّه إلى اللّه والاستغفار.

وقال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُسْتَكْبِرُونَ) («۵»)، فذكر تعالى لزوم المجيء إلى رسول اللّه لحصول أوبتهم إلى اللّه تعالى.

وقال تعالى: (وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِى كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ) («۶»)، فذكر تعالى أنّ الغاية من الأمر بالاتّجاه إلى قبلة بيت

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۸۷

المقدس ثلاث عشر سنة، الغاية من هذا التوجّه والعبادة هو طاعة اللّه وطاعة رسوله واتّباعه، لكى يعلم مَن يتمرّد على طاعة الرسول وينقلب على عقبيه، كما ورد نظير ذلك فى قوله تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) («۱»).

حيث أنذر اللّه تعالى من ينبذ طاعة الرسول بعد وفاته، ويقول: مَن كان يعبد محمّداً فمحمّد قد مات، ومَن كان يعبد اللّه فإنّ اللّه حىّ لا يموت، ففكّك بين طاعة الرسول وطاعة اللّه، ووصف حالة المسلمين عند وفاة الرسول من الانشداد والتعلّق الشديد برسول اللّه بأنّها عبادة للرسول، وهى عبادة طاعة وليس عبادة تأليه وعبادة حبّ، فكان ذلك التفكيك بين الطاعتين شعاراً استهلّ به تلك المسيرة، ولذلك ندب اللّه عزّ وجلّ بالتوجّه إلى أهل بيت النبيّ صلى الله عليه و آله فى قوله تعالى: (قُل لَاأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى) («۲»).

وقال تعالى: (قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِن أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ) («۳»).

وقال تعالى: (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا) («۴»)، فكانت مودّة أهل البيت والتوجّه إليهم سبيل إلى اللَّه تعالى.

فهذه دعوى من القرآن إلى مودّة أهل البيت عليهم السلام وولايتهم، وأنّه بالتوجّه إليهم هو اتّخاذ سبيل إلى اللَّه تعالى، والتوجّه نمط من العبادة فلا يتمّ توحيد اللَّه تعالى

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۸۸

فى هذا النمط من العبادة إلّابالتوجّه إلى النبيّ صلى الله عليه و آله وأهل بيته، لأنّهم الأبواب التى نصبهم اللَّه لعباده، كما مرّ فى الآيات.

ويشير إلى ذلك كلّه قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَاتُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ) («۱»).

وكذلك فى العبادة (بمعنى التولّى لصاحب الولاية)، فإنّه تعالى قد بيّن أنّ ولايته تعالى تنشعب وتتنزّل إلى ولاية رسوله وأوصيائه من أهل بيته عليهم السلام، وحصر هذه الولاية بهم، فقال تعالى: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ* وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ) («۲»)، فتوحيد اللَّه فى الولاية التى هى ضرب من العبادة لا يتمّ إلّا بتولّى اللَّه ورسوله وأمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب وولده الطاهرين.

ولا يخفى أنّ هذه الضروب من العبادة وتوحيد اللَّه فيها من الطاعة والانقياد والتعظيم والتوجّه والتولّى إنّما هى ثابتة بالذات للَّه‌تعالى، وثابتة بالتّبع لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى المرتبة الثانية، وثابتة لأوصيائه من أهل بيته فى المرتبة الثالثة، وهذا الثبوت له ولأهل بيته كأبواب وآيات إلهيّة، وسبلٌ إليه تعالى، وليسوا أنداداً من دونه تعالى، لأنّ الندّ ومَن يكون من دون اللَّه هو الذى يصدّ عن سبيل اللَّه ويكون جبتاً أو طاغوتاً، وأمّا من يصفه اللَّه تعالى بأنّه باب رحمته وسبيلًا إليه، كما مرّ فى الآيات السابقة، فهؤلاء هم وجه اللَّه والسبيل إليه، وصراط هدايته، والأدلّاء عليه، والهادين إلى رضوانه، وهم الذين يسوقون عباده إلى عبادته.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۸۹

وأمّا العبادة بمعنى التأليه والربوبيّة والخضوع الخاصّ للخالق المستحقّ لُاصول النعم بالذات، فهى خاصّة به تعالى، وإن كانت كيفيّتها بدلالة هداية النبيّ وأهل بيته، وبطاعتهم فى كيفيّة الخضوع للَّه‌تعالى.

وعلى ضوء ذلك يتبيّن أنّ الدين الحنيف ليس قائماً على نفى الوسائط وعلى نفى الارتباط بها، بل هو قائم على إقامة تلك الوسائط، كآيات ودلالات وأبواب منها يتّجه إلى الساحة الربوبيّة، وأنّ بدونها لا تفتّح أبواب السماء، وأنّها الأسماء الإلهيّة التى يدعى بها البارى تعالى، كما مرّت الإشارة إلى ذلك فى البسملة، والمقالة السابقة قد حصل فيها الخلط بين الوسائط التى تصدّ عن سبيل اللَّه من الجبت والطاغوت، والوسائط التى هى طرق إلى اللَّه والآيات الدالّة على رضوانه ونعيمه.

فخلطوا بين أبواب الجحيم وأبواب الجنان، وبين الصراط المستقيم وصراط الجحيم، وإلّا كيف ينفى الصراط وهو من ضروريّات الدين.

ثمّ إنّ الحال فى التوحيد فى الاستعانة باللَّه تعالى، كما مرّ فى التوحيد فى العبادة، وحصرهما به تعالى أى‌أنّ المراد منها أنّ المستحقّ للعبادة بكلّ معانيها بالذات هو البارى تعالى، وأمّا غيره تعالى فثبتت له بعض المعانى كالطاعة والاتّباع والتولّى بالتبع، ولا ينافى ذلك التوحيد بعدما كانت تلك الموارد أبواباً وطرقاً إليه تعالى، فكلّها مظاهر توحيد اللَّه فى العبادة، فى قبال الموارد التى تصدّ عن سبيل اللَّه وعن التأدية إليه.

كذلك الحال فى التوحيد فى الاستعانة، فإنّ العون منه تعالى بالذات، وهو الغنىّ المطلق وغيره فقير إليه تعالى مهما تعاظم خلقه، ولكن بتبع اللَّه تعالى وإغنائه وإقداره للمكرّمين تكون الاستعانة بهم بالتّبع هى من مظاهر الاستعانة به

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۹۰

تعالى، وتوحيده بالاستعانة فى قبال الاستعانة واللواذ بأعدائه تعالى، ومن لم يأذن، كقوله تعالى: (وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ) («۱»).

وكقوله تعالى: (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَاآتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ) («۲»).

وكقوله تعالى فى شأن يوسف ويعقوب: (اذْهَبُوا بِقَمِيصِى هَذا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيراً) («۳»).

وكقوله تعالى: (هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ) («۴»).

والاستعانة نحو من التولّى والولاية، ومن ثمّ فسّرت الولاية بالنصرة والمحبّة فى بعض معانيها، كما فى قوله تعالى: (وَمَا لَكُم مِن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ) («۵»).

وقوله تعالى: (وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِى الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ) («۶»).

فيبيّن اللَّه تعالى من خلال هاتين الآيتين أنّ من يجوز تولّيه واتّخاذه وليّاً يسوغ استنصاره والاستعانة به بحدود ما جعل اللَّه له من ولاية، كما قال تعالى: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ* وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ) («۷»)، والتى قد نزلت

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۹۱

فى علىّ بن أبى طالب.

فمن نهى تعالى عن ولايته وتولّيه ينهى عن الاستعانة والاستنصار به، كقوله تعالى: (لَاتَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ* فَتَرَى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ) («۱»).

فهؤلاء الذين فى قلوبهم مرض كانوا يجعلون ولاءهم السياسى لليهود والنصارى بغية الاستنصار والاستعانة والاستغاثة بهم إذا تصدّع كيان المسلمين، فمن ثمّ الآيات تزجرهم عن ذلك، وتبيّن أنّ مركز الولاء والتولّى هو للَّه، ومن بعده للرسول، ومن بعده لأمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه السلام، وأنّ اللَّه ورسوله ووصيّه هم الذين يحتمى بهم ويستنصر بهم ويستغاث ويلاذ بهم، لأنّ الرسول صلى الله عليه و آله ووصيّه عليه السلام أبواب اللَّه التى يلتجأ إليها، وهو التجاء إلى اللَّه تعالى، فأبواب الاستعانة باللَّه كما بيّنها اللَّه تعالى، وهى من توحيده فى الإستعانة لها مظاهر متعدّدة.

وكقوله تعالى فى الطرف الآخر: (وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ* لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ) («۲»)، أى أنّ تولّى أولياء من دون اللَّه ومن دون من أمر اللَّه بولايتهم هو استعانة واستنصار بمن لا يضرّ ولا ينفع، وهو خلاف توحيد اللَّه تعالى فى الاستعانة.

وكذا قوله تعالى: (يَوْمَ لَايُغْنِى مَوْلىً عَن مَوْلىً شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ) («۳»)،

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۹۲

فبيّنت أنّ من مقتضيات التولّى والولاية الاستنصار والاستعانة، إلّاأنّ ولاية الباطل لا توجب نفعاً ولا تركها يوجب ضرراً بخلاف ولاية الحقّ.

وكقوله تعالى: (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَايَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنصُرُونَ) («۱»)، والآية فى سياق آيات قبلها: (أَيُشْرِكُونَ مَالَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ* وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ) («۲»).

وقد مرّ أنّ المراد ب (مِن دُونِهِ) كلّ شىء يصدّ عن سبيل اللَّه من الجبت والطاغوت من البشر أو الحجر، وهذا بخلاف ما يكون سبيلًا إلى اللَّه ودالّاً وهادياً إليه تعالى، وأمر بتولّيه ووصاله والمسارعة فيه، لأنّه يؤدّى إلى اللَّه تعالى، فلا يكون من اللَّه بل سبيلٌ إليه وباب إلى رحمته وصراط إلى جنانه، ومن ثمّ كان أئمّة أهل البيت يدعون إلى الجنّة وأئمّة الضلال يدعون إلى النار، فقال تعالى عن

النمطین:

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) («۳»).

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ) («۴»).

وعن مَن هو دون اللّه قال تعالی: (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ) («۵»).

تفسیر ملاحم المحکمات، ص: ۹۳

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّآ لِّينَ ...) ص: ۹۳

القراءات («۱») حکی فی «الکشّاف» عن علیّ وابیّ (اهْدِنَا) (ثبّتنا- وقرأ عبداللّه- أرشدنا) («۲») انتهی.

والظاهر أنّها لیست قراءة بل هی تفسیر.

وفی «الدرّ المنثور»: عن ابن عبّاس، أنّه قال: «اهدنا السراط المستقیم، وکذلک عن عبداللّه بن کثیر، وعن الفرّاء قال: قرأ حمزة: زراط، قال الفرّاء:

الزراط- لغةً- لعذرة وکلب وبنی عین» («۳»)، وهذه لیست من القراءات التی یعوّل علیها، وذکر فی «التبیان» أنّه فی ما روی عن أهل البیت علیهم السلام قراءة صراط من أنعمت علیهم، وذکره عن غیرهم أیضاً («۴»).

وقد ورد فی روایات أهل البیت علیهم السلام روایات مستفیضة فی تفسیر الصراط

تفسیر ملاحم المحکمات، ص: ۹۴

بولایتهم علیهم السلام، ففی «معانی الأخبار» بإسناده إلی جعفر بن محمّد علیهما السلام، قال: «قول اللّه عزّ وجلّ فی الحمد (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) یعنی محمّداً وذرّیّته علیهم السلام» («۱»).

کذا فی «معانی الأخبار»: «أنّ الصراط المستقیم أمیر المؤمنین» («۲»).

وفی «معانی الأخبار» عن تفسیر العسکری علیه السلام فی قوله: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)، قال: «أدم لنا توفیقک الذی به أطعناک فی ماضی أیّامنا حتّی نطیعک کذلک فی مستقبل أعمارنا، والصراط المستقیم هو صراطان: صراط فی الدنیا، وصراط فی الآخرة.

فأمّا الطریق المستقیم فی الدنیا فهو ما قصر عن الغلوّ، وارتفع عن التقصیر واستقام، فلم یعدل إلی شیء من الباطل، وأمّا طریق الآخرة طریق المؤمنین إلی الجنّة الذی هو مستقیم، لا یعدلون عن الجنّة إلی النار ولا إلی غیر النار سوی الجنّة» («۳»).

وفی «معانی الأخبار» وصحیح ثابت الثمالی عن سیّد العابدین علیّ بن الحسین علیهما السلام: «نحن أبواب اللّه، ونحن الصراط المستقیم» («۴»).

وفی «تفسیر علیّ بن إبراهیم»: عن أبی بصیر، عن أبی عبداللّه علیه السلام: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) قال: «الطریق معرفة الإمام» («۵»).

وفیه أیضاً صحیح حمّاد: عن أبی عبداللّه علیه السلام فی قوله: (الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) قال: هو أمیر المؤمنین علیه السلام ومعرفته، والدلیل علی أنّه أمیر المؤمنین قوله: (وَإِنَّهُ فِي

تفسیر ملاحم المحکمات، ص: ۹۵

أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ) («۱»)، وهو أمیر المؤمنین علیه السلام فی امّ الکتاب والصراط المستقیم» («۲»)، وذیل الروایة الظاهر أنّه من کلام القمّی باعتبار أنّ أحد أسماء الفاتحة هو امّ الکتاب.

وفی «تفسیر فرات الکوفی»: بسنده عن محمّد بن الحسین، عن أبیه، عن جدّه، قال: «قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله فی قوله عزّ وجلّ: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ): دین اللّه الذی نزل به جبرئیل علی محمّد صلی الله علیه و آله (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ) شیعة علیّ الذین أنعمت علیهم بولایة علیّ بن أبی طالب علیه السلام لم تغضب علیهم ولم یضلّوا» («۳»).

وروى الصدوق فى «إكمال الدين»: عن أبى جعفر عليه السلام ...: «ونحن الطريق الواضح، والصراط المستقيم إلى اللّه عزّ وجلّ، ونحن من نعمة اللّه على خلقه» («۴»).

بيان: وما فى الروايات من تعدّد تفسير الصراط متطابق فى المآل لأنّ تفسيره بدين اللّه ينطبق أيضاً على ولاية النبىّ وأهل بيته، لأنّ اسس الدين فى قول تعالى:

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ) («۵»)، ومفاد الآية جملة الدين كلّه، كما فى قوله تعالى: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ)... («۶»)، ومن ثمّ ينطبق على معرفة علىّ وولايته عليه السلام.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۹۶

وهاهنا جملة من المحاور التى لا بدّ من التعرّض لها، وهى الهداية والصراط والذين انعم عليهم.

وتقريب المعنى إجمالًا أنّ سورة الفاتحة وهى امّ الكتاب قد مرّ أنّها عِدل القرآن كلّه فيما منّ اللّه عزّ وجلّ على نبيّه بقوله: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِى وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) («۱»).

وقد مرّ أيضاً فى الروايات أنّ من فضائل هذه السورة أنّ القرآن جمع فيه كلّه، وعلى ضوء ذلك فلا بدّ أن تكون اصول الدين قد بيّنت فيها برمّتها، وقد مرّ أيضاً فى صدر السورة بيان مقامات التوحيد والصفات والمعاد، وأمّا النبوّة فقد مرّ فى (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) أنّ توحيد العبادة والتوحيد فى الاستعانة لا يتمّ إلّا بالإقرار بطاعة وولاية الرسول صلى الله عليه و آله واتّباعه والانقياد والتسليم إليه وتعظيمه والتوجّه إليه وبه إلى اللّه، إذ لا تقبل الطاعة والعبادة إلّابدلالة وهداية الرسول صلى الله عليه و آله فيما أتى به عن اللّه من تشريعات وفرائض وسنن، ورغم أنّ ظاهر الإسلام يتمّ بذلك لم تكتف بمجرّد ذلك، بل بيّنت أنّ طريق النجاة فى الآخرة مرهون ومتوقّف على ما يزيد على ذلك، وهو الاهتداء بسلوك الصراط المستقيم اهتداءاً بثلّة وصفهم اللّه بثلاث صفات: الاولى أنّهم منعم عليهم، والثانية أنّهم لم يغضب اللّه عليهم، والثالثة أنّه لم يضلّهم.

وبذلك تبيّن السورة أنّ فى هذا الدين هناك ثلّة هداة لا بدّ من اتّباعهم والائتمام بهم كى يفوز المسلمون بالنجاة فى الآخرة، وبهذا المفاد للسورة بيان يفيد أنّ الدين لا يقتصر على ظاهر الإسلام من الشهادتين، بل هناك درجة من الدين أعمق، وهى الهداية باتّباع الهادين من هذه الامّة، وهم الأئمّة عليهم السلام، لأنّ من أركان

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۹۷

معنى الإمامة فى اللغة الهداية، فإنّ المأموم يتبع الإمام ويقتدى به، فتبيّن السورة حقيقة هامّة وهى أنّ هناك درجتان فى التديّن بالدين الحنيف:

الاولى: ما يتمّ به انتحال النسبة بالإسلام من الإقرار بالتوحيد والنبوّة والمعاد.

والثانية: هى درجة الإيمان الحاصلة من الاهتداء والاقتداء والتولّى بالهداة الذين أنعم اللّه عليهم، وهذا تعليم لكلّ مسلم إذا قرأ هذه السورة المباركة فى صلوات يومه عشر مرّات أو أكثر، أن يفحص عن طريق الهداية والنجاة، ولا يكتفى بظاهر الإقرار باللسان، لتصدق عليه نِحلة الإسلام، بل لا بدّ أن يسعى لينتهج نهج الإيمان.

وهذا تأكيد فى أعظم سورة فى الكتاب العزيز على خطورة الاهتداء باتّباع الهداة (أى تولّى أئمّة دعاة إلى الرضوان)، ومن ثمّ يتبيّن مدى خطورة الإمامة فى اصول الاعتقاد الإيمانيّة.

الهداية عنوان للإمامة ... ص: ۹۷

ثمّ إنّ عنوان الهداية قد قرن فى آيات وسور عديدة بالإشارة للإمامة، كقوله تعالى: (إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) («۱»).

وقوله تعالى: (أَفَمَن يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمْ مَن لَايَهِدِّى) («۲»).

فتشير الآية إلى أنّ الهادى الذى يستحقّ الاتّباع هو الذى تكون هدايته من ذاته من لدن اللّه تعالى، والاتّباع هو عبارة اخرى عن الائتمام، ومن ثمّ مرّ أنّ الهداية من المعانى الذاتيّة لمعنى الإمامة.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۹۸

وكذا قوله تعالى: (وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى) («۱»).

وتبيّن الآية أنّ المغفرة والنجاة مشروطة بالهداية زيادة على أصل الإيمان والعمل الصالح، وهى تتطابق مع مفاد الذى مرّت الإشارة إليه من هذه السورة.

(الصِّرَاطَ ...) ص: ۹۸

الملاحظ فى الروايات الواردة عنهم عليهم السلام أنّ جُلّها يفسّر (الصِّرَاطَ) بالنبىّ وأهل بيته الأئمّة عليهم السلام، ويفسّر (الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) بمن أقرّ بولايتهم وطاعتهم، فمضافاً إلى ما مرّ فى الروايات فقد روى فى «تفسير العسكرى عليه السلام».

ورواه فى «معانى الأخبار» أيضاً عنه الشيخ الصدوق رحمه الله، قال الإمام عليه السلام:

«صراط الذين أنعمت عليهم» أى‌قولوا: اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم بالتوفيق لدينك وطاعتك، وهم الذين قال اللّه تعالى: (وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً) («۲»).

وحكى هذا بعينه عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: ثمّ قال: «ليس هؤلاء المنعم عليهم بالمال وصحّة البدن، وإن كان كلّ هذا نعمة من اللّه ظاهرة. ألا ترون أنّ هؤلاء قد يكونون كفّاراً أو فسّاقاً، فما ندبتم إلى أن تدعوا بأن ترشدوا إلى صراطهم، وإنّما امرتم بالدعاء بأن تُرشدوا إلى صراط الذين أنعم اللّه عليهم بالإيمان باللّه والتصديق برسوله وبالولاية لمحمّد وآله الطيّبين» («۳»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۹۹

وفى الرواية إشارة إلى أنّ ما فى الآية من سورة النساء تطابق مع ما فى ذيل سورة الفاتحة من أنّ النعمة المنعم بها عليهم هى طاعة اللّه وطاعة الرسول، وأنّ بطاعة اللّه وطاعة سيّد الرسل انعم على جميع النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وهذا مقام عظيم لسيّد الأنبياء، لا- سيّما وأنّ لفظ (النَّبِيِّينَ) فى آية النساء محلّى ب (ال) وبصيغة الجمع، ويفيد العموم والاستغراق، وأنّ ذلك هو الموجب لرضا اللّه عليهم، وأنّ ذلك هو رأس الهداية لديهم، فضلًا عن الصدّيقين والشهداء والصالحين.

وهذا المعنى يتطابق مع ما فى آية آل عمران: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَ لِكُمْ إِصْرِى قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِنَ الشَّاهِدِينَ) («۱»)، وسيأتى بيان لطائف هذه الآية فى موضعه.

وجُلّ الروايات الواردة فى تفسير من أنعمت عليهم هى فى من آمن باللّه وصدّق الرسول وصدّق بالولاية ولأهل بيته عليهم السلام، وفى بعضها بلفظ شيعة علىّ عليه السلام.

نعم، فى ثلاث روايات يستظهر منها أنّ الذين أنعمت عليهم هم أهل البيت عليهم السلام، وإن كانت غير آبية عن التأويل والحمل على مفاد سائر الروايات من كون الصراط هو ولاية اللّه ورسوله وأهل بيته، والذين أنعم عليهم هم الذين أقرّوا بولايتهم.

منها ما رواه الكراجكى بسنده عن الفضيل بن يسار، عن أبى جعفر عليه السلام، قال:

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۰۰

«تلا هذه الآية- وهو ينظر إلى الناس-: (أَفَمَن يَمْشِى مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِى سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) («۱»)، قال: يعنى واللّه عليّاً والأوصياء عليهم السلام» («۲»)، وهى وإن احتملت تفسير من يمشى سويّاً، ولكن محتملة أيضاً لتفسير الصراط المستقيم.

وكذا ما رواه الصدوق فى «معانى الأخبار»: بإسناده إلى جعفر بن محمّد عليهما السلام، قال: «قول اللّه عزّ وجلّ فى الحمد (صِرَاطَ

الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) يعنى محمّداً وذرّيّته عليهم السلام» («۳»).

وهذا وإن كان ينسبق إلى تفسير (أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ)، ولكنّه لا يأبى أن يكون تفسيراً للصراط.

وروى الكراجكى أيضاً: بسنده عن أبى جعفر عليه السلام فى قوله تعالى: (هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) («۴»)، قال: «هو أمير المؤمنين عليه السلام يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم» («۵»).

وهذه وإن كانت أظهر الثلاثة، إلّاأنّها أيضاً لا دلالة فيها على كون الذين أنعم عليهم هم أهل البيت عليهم السلام وأنّ الصراط غيرهم، إلّابنحو التلازم، وعلى أىّ تقدير يستخلص من مجموع الروايات بما تتضمّن من الإشارة إلى مجموعة ومنظومة من الآيات المتعرّضة إلى الصراط المستقيم وإلى سبيل اللَّه وسبله، كما يأتى

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۰۱

البحث عنها أنّ النبىّ وأهل بيته عليهم السلام هم الصراط الأقوم، والسبيل الأعظم إلى اللَّه تعالى، بل وأنّ الصراط بقرينة أنّه طاعة اللَّه وطاعة رسوله وطاعة اولى الأمر من أهل بيته، وهو ولاية اللَّه وولاية الرسول وولاية أهل البيت، فهو على مراتب ودرجات، ومنه يظهر أنّه بمقتضى سؤدد خاتم النبيّين على جميع الأنبياء، فيكون هو الصراط لهم، وأنّ طاعته وولايته منهاجٌ وسبيلٌ لهم، كما مرّ فى آية النساء.

وحيث أنّ ولاية أهل بيته تتبع ولايته صلى الله عليه و آله، كما فى آية الولاية («۱») وآية الطاعة («۲»)، فهم يتّبعون رسول اللَّه فى الرتبة، ومن ثمّ يصحّ أن يقال: إنّ أهل البيت عليهم السلام هم الصراط، وهم على صراط اللَّه ورسوله، كما أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله على صراط اللَّه، أىعلى طاعة اللَّه وولايته، ومن ثمّ يتوجّه تفسير دعاء النبىّ وأهل البيت عند قراءته هذه الآية، ومن هذا المقطع من السورة يتبيّن وجود هداة لهذه الامّة فى كلّ زمن إلى يوم القيامة يهدون الامّة إلى النجاة، وأنّ هدايتهم عاصمة من الضلال، كما أنّها عاصمة من السخط الإلهى، ولا محالة يكون هؤلاء الهداة هم معصومين فى جانب العلم وفى جانب العمل.

فالآيتان من آخر سورة الحمد تؤكّدان على أصل الإمامة، وأنّ الإمام الهادى هو الصراط الذى نصبه اللَّه لهذه الامّة ولكلّ جيل منها فى كلّ زمان يهتدون بهديه وسيرته ونهجه وطريقته إلى سلوك الصراط المستقيم، ومن ثمّ ورد فى الروايات تفسير الصراط المستقيم هو معرفة الإمام، وهى فى كلّ زمان.

فسورة الفاتحة تؤكّد على أنّ فى كلّ زمن إذا ابتليت الامّة بالفتن والمنعطفات

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۰۲

الخطيرة من وجود هادى لهذه الامّة إلى صراط اللَّه وسبيله، ومن ثمّ تكون هذه السورة المباركة تحثّ عموم المسلمين على البحث والفحص عن معرفة ذلك الإمام كى يعتصموا بالتمسّك به وباتّباعه عن الوقوع فى الغضب والسخط الإلهىّ، وعن الوقوع فى الضلال كى يُحبَوا بنعمة الهداية الإلهيّة، فمفاد الآيتين دالّ على أن لا تخلو الأرض من حجّة إلى يوم القيامة.

وإذا كان هذا الأصل بهذا المثابة من الخطورة، فلا محالة تدلّ الآيتان على كونه من اصول الاعتقاد الإيمانيّة لِما هو مقرّر من أنّ النجاة هو بالإيمان لا بصرف الإقرار بالإسلام لساناً.

ثمّ إنّه قد ورد الصراط فى جملة من الآيات الاخرى، كقوله تعالى: (قُلْ إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً) («۱»).

وقوله تعالى: (مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) («۲»).

وقوله تعالى: (لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) («۳»).

وقوله تعالى: (قَالَ هَذا صِرَاطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ) («۴») (وفى قراءة أهل البيت عليهم السلام لفظ علىٌّ ليس حرف جرّ وضمير متكلّم) بل اسم علم لابن أبى طالب عليه السلام («۵»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۰۳

وقوله تعالى: (فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى) («۱»).

وقوله تعالى: (وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ) («۲»).

وقوله تعالى: (احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ* مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ) («۳»).

وقوله تعالى: (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ* صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّماوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ) («۴»).

وهذه صفات متعدّدة للصراط، تارة يقسم إلى الصراط المستقيم وإلى صراط الجحيم، واخرى يضاف إلى البارى تعالى، وثالثة يوصف بالسوىّ، ورابعة يفسّر بالدين القيّم، وخامسة يضاف الصراط إلى علىّ عليه السلام، كما أنّه فى مجمل الآيات توصيفه بأنّه الطريق الذى يؤدّى إلى اللّه تعالى، وأنّ مصير الامور إليه تعالى.

وأمّا صلة الصراط بسبيل اللّه، لا- سيّما وأنّ السبيل اضيف إليه كما اضيف الصراط إليه، وأنّ السبيل يؤدّى إلى اللّه تعالى كما أنّ الصراط يؤدّى إليه، ففى جملة من الآيات كقوله تعالى: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) («۵»).

وقوله تعالى: (وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا) («۶»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۰۴

وقوله تعالى فى وصف الرسول: (يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ) («۱»).

وقوله تعالى: (وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ) («۲»).

وقوله تعالى: (قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) («۳»).

وقوله تعالى: (فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّآتِهِمْ) («۴»).

وقوله تعالى: (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) («۵»).

وقوله تعالى: (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا* يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلًا) («۶»).

وقوله تعالى: (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا) («۷»)، وهذه الآية بضميمة ما ورد من قوله تعالى: (قُل لَاأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) («۸»)، فتكون الآيتان ناصّتين على أنّ السبيل إلى اللّه مودّة

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۰۵

قربى النبىّ صلى الله عليه و آله وولايتهم.

وقوله تعالى: (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً) («۱»)، وظاهر هذه الآية أنّ هناك سبيلين:

۱- سبيل الشاكرين، وهو إلى الجنّة.

۲- سبيل الكافرين، وهو إلى النار.

ومثلها قوله تعالى: (مِن نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ* ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ) («۲»)، ومقتضى هذه الآية والسابقة عليها أنّ معرفة اللّه وولايته ومعرفة الرسول وولايته وولاية قربى الرسول أهل بيته عليهم السلام مركوزة فى فطرة الإنسان.

وقوله تعالى فى شأن مؤمن آل فرعون (حزقيل): (وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ) («۳»).

وقوله تعالى: (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ) («۴»).

وقوله تعالى: (وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُولئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ) («۵»)، وظاهر هذه الآية وصف سبيل اللّه بالاستقامة، كما وصف الصراط بالاستقامة.

وكذلك قوله تعالى: (الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) («۶»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۰۶

وكذلك قوله تعالى: (قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) («۱»).

وقوله تعالى: (وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً) («۲»)، وفى هذه الآية دلالة على أنّ مجرّد الإقرار بالشهادتين لساناً من دون اتّباع سبيل المؤمنين لا يضمن النجاة فى الآخرة، وأنّ من شرائط النجاة فى الآخرة اتّباع سبيل المؤمنين، ولا يمكن أن يكون هذا الشرط من أحكام الفروع، بل لا بدّ أن يكون من الأركان واصول الإيمان، وهذا ما مرّ استفادته من الآيتين الأخيرتين من هذه السورة.

وقد مرّ أنّ مودّة قربى النبىّ صلى الله عليه و آله هى السبيل إلى اللّه تعالى، فسمّاهم فى آية النساء بالمؤمنين، كما سمّاهم مرّة اخرى بالمؤمنين فى قوله تعالى: (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) («۳»)، والقرينة على إرادة أهل البيت عليهم السلام من آية رؤية الأعمال، وأنّهم شاهدون لأعمال العباد، ما ورد فى آخر سورة الحجّ من قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* وَجَاهِدُوا فِى اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِن حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) («۴»)، فبيّنت الآية أنّ الشهداء على الناس

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۰۷

هم من ذرّيّة إبراهيم عليه السلام، وهم الذين سمّاهم المسلمين فى دعوته فى سورة البقرة بأن يكون من ذرّيّته امّة مسلمة («۱») وهى التى دعا لها بأن تكون الإمامة فيها («۲»)، فالشهداء على أعمال الناس سمّاهم بالمؤمنين، والمراد بذلك ليس عموم المؤمنين، بل أئمّة المؤمنين من قربى النبىّ صلى الله عليه و آله الذين هم محلّ دعوة النبىّ إبراهيم فى ذرّيّته.

وكقوله تعالى: (وَكذلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ) («۳»).

وقوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ الطَّاغُوتِ) («۴»).

فيلاحظ أنّ السبيل قد ورد بأوصاف متعدّدة، منها ما فى الآية ۶۹ من سورة العنكبوت المتقدّمة أنّ للهداية سبل لا- سبيل واحد، وكذلك ما فى سورة إبراهيم، وكذلك ما فى آية المائدة.

نعم، قد يفرد السبيل إليه تعالى فى مقابل السبل التى لا- تؤدّى إليه، كما فى آية الأنعام، والملاحظ أنّه إذا اضيفت الذات الإلهيّة بالضمير المفرد، أفرد السبيل، وإذا اضيفت إلى ضمير الجمع (الذى قد يفسّر بالتعظيم، وقد يفسّر بالجنود الإلهيّة) تكون بصيغة الكثرة، ولا يخفى المناسبة حينئذٍ من كون كلّ جند إلهى باب إليه تعالى، كما أنّ ما فى سورة إبراهيم من إضافة كثرة السُّبل إلى المؤمنين قد يفيد ما اشتهر من أنّ الطرق على عدد أنفاس الخلائق، ولكنّ المراد حينئذٍ

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۰۸

ليس ما يبنى عليه بعض الصوفيّة من أنّ عابد الوثن سبيله ذلك، بل ظاهر الآية فى وصف المؤمنين الذين آمنوا باللّه ورسوله والمعاد ودين الإسلام؛ أنّ هؤلاء لكلّ منهم سبيل، وتكثّر السبل بتكثّر الجنود المقرّبين إليه تعالى هو الظاهر من قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَاتُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذلِكَ نَجْزِى الْمُجْرِمِينَ) («۱»)، فإنّه وصف ارتباط بين الآيات والحجج الإلهيّة وأبواب السماء وأنّ للسماء الإلهيّة أبواب.

كما أنّ السبيل قد يضاف إليه تعالى، وقد اضيف إلى السلام، والظاهر أنّ المراد منه دار السلام، وتارة اضيف إلى ضمير الغائب العائدة إلى الذات الإلهيّة، ورابعة اضيف إلى النبىّ صلى الله عليه و آله، وخامسة وصف السبيل بالمعيّة للرسول صلى الله عليه و آله، كما أنّ السبيل اطلق على الفطرة الإلهيّة المودعة فى الإنسان، الهادية له إلى طريق الفلاح، كما فى آية الدهر: (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً) («۲»)، كما أنّ فى تلك الآية اطلق على غرائز الشهوة ونحوها أنّها سبيل وهداية إلى الدركات، نظير قوله تعالى: (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) («۳»)، وفى آية عبس أيضاً بيّن أنّ سبيل الهداية مركوز فى فطرة الإنسان (مِن نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ* ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ) («۴»)، ومن هنا يظهر من مجموع النمطين من الآيات نوع ارتباط بين الفطرة الروحيّة والقلبيّة كسبيل هادٍ، ومن الرسول وأهل بيته كسبيل هاد

إلى اللَّه تعالى كما مرّ

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۰۹

إطلاق السبيل على مودّة أهل البيت عليهم السلام، أىأنّ هداية الرسول صلى الله عليه و آله وأهل بيته للمؤمنين لا تقتصر على السنن الظاهرة، بل تتّصل بسلوك الروح منازل الكمال.

ثمّ عُرّفت الهداية بالإمامة والإمام فى بُعدها الملكوتى، بأنّه رائد وهادى النفوس إلى المنازل المعنويّة، وبذلك يفسّر قولهم عليهم السلام: «نور الإمام فى قلوب المؤمنين أضوء من الشمس المضيئة بالنهار، وهم واللَّه ينوّرون قلوب المؤمنين، ويحجب اللَّه عزّ وجلّ نورهم عمّن يشاء فتظلّم قلوبهم.

واللَّه يا أبا خالد، لا يحبّنا عبد ويتولّانا حتّى يطهّر اللَّه قلبه، ولا يطهّر اللَّه قلب عبد حتّى يسلّم لنا ويكون سلَماً لنا، فإذا كان سلماً لنا سلّمه اللَّه من شديد الحساب، وآمنه من فزع يوم القيامة الأكبر» («۱»).

وإلى ذلك اشير إلى ارتباطٍ بين الفطرة العقليّة فى الإنسان (أىالعقل النظرى مع النبوّة والرسالة)، كما فى قوله تعالى: (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) («۲»)، فجعل الارتباط بين فطرة الإنسان ودين اللَّه.

وكما فى جملة من الآيات من وصف الرسول بالمذكّر، ووصف القرآن بالذّكر، وكما فى قوله عليه السلام: «وَواتَرَ إِلَيْهِمْ أ نْبِياءَهُ، لِيسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بالتَّبْلِيغِ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ العُقُولِ».

وكذلك إلى ارتباطٍ بين العقل العمليّ (كهادٍ فى باطن الإنسان محدود) مع الإمام، باعتبار أنّ العقل النظرى هو مجرّد إراءة من دون أن يكون سير وطيٌّ للسبيل والطريق، بينما العقل العملى هو الذى يكون فيه طيٌّ للطريق

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۱۰

وسيرٌ على الصراط.

ومن ثمّ كان العقل العملى هداية إيصاليّة للمطلوب، كما فى قوله تعالى:

(أَفَمَن يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمْ مَن لَايَهِدِّى إِلَّا أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) («۱»).

ومرّة اضيف السبيل إلى المؤمنين، وأنّه منطبق على ولاية أهل البيت بقرينة الآيات التى مرّت، وأنّه من الأركان واصول الإيمان، كما أنّه مرّ فى:

(وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُولئِكَ فِى ضَلالٍ بَعِيدٍ) («۲»).

(الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) («۳»).

(قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ) («۴») وصف السبيل بالاستقامة نظير وصف الصراط بالاستقامة.

ويتحصّل من ذلك: أنّ السبيل تارة يُطلق على نفس الصراط، سواء كان صراط الهداية للخير أو صراط الشرّ (صراط جهنّم)، واخرى يطلق على السبل المؤدّية إلى الصراط، ولعلّه بلحاظ مراتب الصراط، فإنّه كلّما تتعالى درجاته تتوحّد سياقاته، وكلّما تتنزّل درجاته تكثر سبله، كما مرّ أنّ لكلّ نفس سبيل يؤدّى بها إلى الصراط، كما أنّ الأوصياء عليهم السلام كلّ منهم سبيل أعظم يؤدّى إلى صراط النبوّة والتوحيد، وقد ورد فى الزيارة: «أَنْتُمُ السَّبِيلُ الْأَعْظَمُ، وَالصِّراطُ الْأَقْوَمُ» («۵»)،

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۱۱

ممّا يشير إلى الدرجات فى الصراط والسبل أنّ منها قيّم ومنها أقوم، ومنها عظيم ومنها أعظم.

وقد عبّر عن سنن المعصومين بالطريقة فى قوله تعالى: (وَأَ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَاءً غَدَقاً) («۱»)، (وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً* وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً) («۲»)، والطريق والطريقة قد ورد فى آيات عديدة، كما فى قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً* إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذلِكَ

عَلَى اللَّهِ يَسِيراً) («۳»).

فهاهنا اطلق على صراط جهنّم (طريق جهنّم).

وقوله تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ) («۴»)، والطرائق جمع طريقة، فاستعملت الطرائق على أبواب السماء، وقد مرّ الارتباط بين أبواب السماء وحجج اللَّه تعالى الذين هم آياته الذين يُصدّق ولا يكذب بهم، ويتوجّه إليهم ولا يعرض عنهم، فى الآية ۴۰ من سورة الأعراف.

وقوله تعالى: (وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً) («۵»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۱۲

وقوله تعالى: (إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً) («۱»)، وفى هاتين الآيتين اشير إلى أنّ لكلّ ذى روح طريقة للهداية وطريقة للغواية، نظير ما مرّ فى السبيل.

وفى قوله تعالى: (قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ) («۲»)، فوصف الطريق بالمستقيم نظير ما مرّ فى الصراط والسبيل.

ويتبيّن من ذلك أنّ الطريق والطريقة يشار بها إلى السلوك والاتّباع والهداية بحسب أعمال البدن وأحوال الروح وأفعال القلب، وأنّها بلحاظ الوصول والإيصال للمطلوب، وأنّ الطريقة مرتبطة بالهداية والهادى والاتّباع للهداة، وأنّ هذه الهداية بمعنى الإيصال والحركة نحو المطلوب، وليست بمعنى مجرّد الإراءة، ومن ثمّ كانت الطريقة مرتبطة بالإمام، وبالتطابق بين الطريق والطريقة والصراط والسبيل؛ يتبيّن تفسير الطريقة والاستقامة عليها فى سورة الجنّ بولاية علىّ عليه السلام.

ويقرب منه قوله تعالى: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا) («۳»)، والطريف فى تطابق هذه المعانى من الصراط والسبيل والطريقة والحبل، أنّ طرفاً منه بيد اللَّه وهو غايته، وطرف منه بيد الإنسان، فمبدأه مركوز فى فطرة الإنسان ومنتهاه عند اللَّه.

ومثل قوله تعالى: (فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۱۳

الْوُثْقَى لَاانفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) («۱»)، وعلى أىّ تقدير، فالملحوظ فى معنى كلّ من الصراط والسبيل والطريقة والحبل والاستمساك بالعروة الوثقى أنّه يرتبط بالسير والعمل والحركة، ولا يقتصر على ظاهر البدن، بل يرتبط بأعمال الروح وأفعال القلب، ورقىّ وترقّى روح الإنسان وسيرها فى منازل الملكوت.

ومن ثمّ يؤدّى فى المنتهى إلى ما هو باطن الدنيا وهو عالم الآخرة، ولأجل ذلك يستعرض القرآن الكريم جملة من مقامات ولاية أهل البيت عليهم السلام، مرتبطة بأحوال الآخرة كما فى شهادتهم لأعمال العباد، ووصفهم بالشهداء، كما فى قوله تعالى: (هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِن حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) («۲»)، وغيرها من الآيات الواردة فى الشهداء.

وكقوله تعالى: (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) («۳»).ومن ثمّ سيأتى فى السور العديدة أنّهم المهيمنون على مقام الأعراف، يميّزون بين أهل الجنّة وأهل النار، وأنّهم الموازين القسط، ويوكل إليهم من قِبل اللَّه تعالى مقامات مهمّة فى الحشر والنشر، وكما مرّ أنّ قبول الأعمال مشروط بولايتهم، وهو المستفاد من سورة الحمد أيضاً، حيث اشترطت النجاة بالاهتداء إلى الصراط المستقيم وأصحابه، من دون كفاية الإقرار بالتوحيد والمعاد والنبوّة فى ظاهر اللسان.

مضافاً إلى تعقّب طلب الهداية والاهتداء بالهداة، وأنّ ذلك به النجاة إثر الإقرار بتوحيد اللَّه فى العبادة، والاستعانة فى الآية (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)، وهذا معاضدٌ لما مرّ من أنّ التوحيد فى العبادة والاستعانة إنّما هو بطاعة من أمر اللَّه

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۱۴

بطاعته والانقياد له، وأنّ توحيد اللّه فى الاستعانة إنّما يتمّ بالتوجّه بمن أمر اللّه بالتوجّه به إلى اللّه تعالى، وأنّ صراط التوحيد هو بالاهتداء والاتّباع للهداة الهادين لهذه الامّة.

الهداية والضلال ... ص: ۱۱۴

والإيمان وظاهر الإسلام ... ص: ۱۱۴

ثمّ إنّ هذه السورة- وهى امّ الكتاب- تجذّر ميزاناً ومفهوماً عقديّاً واعتقاديّاً مهمّاً، وهو تمييز أهل الملّة والنحلة الواحدة، إلى أهل هداية وأهل ضلال، وأهل الرضا الإلهىّ وأهل الغضب والسخط الإلهىّ، حيث بيّنت أنّ مَن انتسب وانتمى إلى الملّة والنِّحلة الإسلاميّة بالإقرار بالتوحيد والنبوّة والمعاد، لساناً، والتزم بالطقوس والرسوم فى دين الإسلام، إنّما يتّصف بكونه من أهل الهداية إذا اقتدى واهتدى وائتمّ بالهادين أصحاب الصراط المستقيم، وإلّا فإنّه سوف يكون من أهل الضلال، أى‌ممّن ضلّ عن طريق الجنّة والنجاة، وضلّ سعيه فى الآخرة، وتفرّقت به السبل عن سبيل اللّه وعن السبيل الذى جعله اللّه مسلكاً إلى رضوانه، كما مرّ بإفصاح من القرآن وهى مودّة وولاية قربى النبىّ صلى الله عليه و آله.

والسورة تؤكّد على أنّ المراد من المودّة ليس صرف المحبّة، بل الاتّباع والانتهاج واتّخاذ سننهم وسيرتهم سبيلًا متّبعاً، وليس مجرّد المحبّة لأنّ اللّه قد وصف المودّة لهم بالسبيل إليه كما مرّ فى الآيتين (آية الشورى ۲۳، وآية الفرقان ۵۷).

وإثبات نهج الهداية ونهج الضلال فى هذه الامّة تثبته آيات فى سور عديدة، كقوله تعالى: (وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِيناً) («۱»)، كما أنّ التفرقة

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۱۵

بين ظاهر الإقرار بالدين لساناً واعتناقه بحقيقة الإيمان بهذا التصنيف والتقسيم تثبته آيات فى سور عديدة، كقوله تعالى: (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ) («۱»)، كما يأتى الإشارة إليها فى محلّها إن شاء اللّه.

وأنّ النجاة هو بالإيمان لا- بصرف ومجرّد الإقرار بالإسلام فى ظاهر اللسان، هذا المفاد هو الآخر مقرّر فى جملة من السور، كقوله تعالى: (وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى) («۲»).

المغضوب عليهم والمرضىّ عنهم ... ص: ۱۱۵

ولا يخفى أنّ هذه السورة الشريفة أيضاً تشير إلى تصنيف فى هذه الامّة ولأهل هذه الامّة والملّة، أنّ من اتّبع الصراط المستقيم منهم وائتمّ بأصحاب الصراط، فهو من المرضىّ عنهم، وأنّ هناك من الامّة من يعند ويعاند اتّباع ذلك الصراط، فهو من المغضوب عليهم، كما أنّ هناك فئة ثالثة وهى التى ليس لديها لجاج وخصام مع أصحاب الصراط المستقيم الهادين له، ولكنّها لم تهتدِ ولم تعرف صراط الحقّ المستقيم وأهله، والذى يفصح عن هذا التقسيم الثلاثى أنّ الآيتين الأخيرتين فى السورة أوردت عنوان الهداية لمن اهتدى وعرف الصراط المستقيم وسلكه، وأنّه يوجب رضى الربّ، ويقابله من عرف صراط الحقّ المستقيم، إلّا أنّه لم يتّبعه، وعَنَده وعدل عنه إلى غيره، فهذا اقيمت عليه الحجّة بالمعرفة،

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۱۶

فيشتدّ جزاء العقوبة عليه، كما أنّه يقابله مَن لم يعرف الصراط والسبيل إلى اللّه تعالى بعد دخوله فى الإسلام، فهو ضالّ عن الهداية، وهو ممّن فيه المشيئة الإلهيّة، ويكون من (المرجون لأمر اللّه)، فهذا تقسيم ثلاثىّ فى هذه السورة.

وبالجملة: فإنّ كثيراً من المفسّرين ذكروا أنّ المراد بأصحاب الصراط المستقيم المنعوتين بأنّهم منعمٌ عليهم، وأنّهم غير مغضوب عليهم

ولا ضالّين، هم جميع الامّة الإسلاميّة، وكلّ مَن تشهّد الشهادتين، مع أنّ صدر السورة كما مرّ تبيّن أنّ من أقرّ بالشهادتين أى‌بالتوحيد والمعاد والنبوّة، فإنّ اللازم عليه بحسب ذيل السورة أن يطلب الهداية، ولا يكتفى بمجرّد اعتناق ظاهر الإسلام وبصرف الإقرار بالشهادتين، ممّا يدلّ بوضوح أنّ النجاة فى الآخرة مرهونة بصفة الإيمان وبشرائط تزيد على أصل صفة ظاهر الإسلام، وقد بيّنت الآيات الكثيرة أنّ للإيمان مراتب كما أنّ للهداية مراتب، كما فى قوله تعالى: (وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً) («۱»).

ومنه يعلم أنّ الهداية المطلوبة فى ذيل سورة الحمد هى درجة تزيد على أصل الاهتداء إلى ظاهر الإسلام من الإقرار بالتوحيد والنبوّة والمعاد لساناً، ولا يمكن حمل طلب الهداية فى ذيل السورة على أصل اعتناق الإسلام، بل على طلب المزيد من الهداية، وهى التى علّقت النجاة عليها، وأنّ النجاة لا تحرز بمجرّد الاعتناق فى الظاهر للإسلام، وأنّ الهداية فى تلك الدرجة اللّاحقة لا بدّ أن تكون من الاصول الاعتقاديّة فى الإيمان، حيث علّق عليها أصل النجاة فى الآخرة، ولعلّه لا اختلاف بين مذاهب المسلمين فى أنّ النجاة متوقّفة على الإيمان، ولا يكفى فيها الاعتناق فى الظاهر للإسلام، وإنّما الخلاف واقع فى تحديد وتعداد الامور المأخوذة فى اصول الإيمان.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۱۷

وكقوله تعالى: (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) («۱»).

وقوله تعالى: (وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) («۲»).

فجملة هذه الآيات تكشف عن أنّ الانتماء إلى النِّحلة الإسلاميّة بمجرّده لا يوجب الهداية المطلوبة للنجاة ولسلوك الصراط المستقيم ما لم ينضمّ إلى ذلك الاتّباع والاهتداء بهداة هادين فى هذه الامّة، كما هو مفاد هذه السورة.

وممّا يوضّح أنّ أهل النجاة فى الامّة الإسلاميّة إنّما هم خصوص من اهتدوا إلى الصراط المستقيم، واتّبعوا الهداة أصحاب الصراط، مضافاً إلى ما تقدّم، أنّ فى العديد من الآيات والسور التعرّض إلى تقسيم المسلمين إلى أقسام متعدّدة، منهم المسلم غير المؤمن، ومنهم المؤمن، ومنهم المنافق، ومنهم المستضعف، ومنهم المرجون لأمر اللّه، ومنهم أهل الضلال فى مقابل أهل الهداية، ومنهم مَن غضب اللّه عليه، ومنهم من رضى عنه، وغيرهم من الأصناف التى استعرضتها الآيات حول صفات المسلمين الذين كانوا فى عهده صلى الله عليه و آله.

ظاهرة التمذهب فى عصر الرسالة ... ص: ۱۱۷

فهذا التصنيف والتقسيم فى القرآن الكريم يشير إلى حقيقة مهمّة، وهى أنّ ظاهرة المذهبيّة العقائديّة والتمذهب العقائدى قد نشأ فى عهد الرسالة الأوّل فى عهد الرسول صلى الله عليه و آله، بل سيأتى فى سورة البقرة فى آية: (فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ) أنّ ذلك نشأ- كما فى سورة المدّثّر- فى أوائل بعثة الرسالة، رغم أنّ ظاهر الإسلام يحتضن الجميع، ويكفل للجميع حقوق المواطن الإسلامى، كما يقرّر على

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۱۸

الجميع الوظائف والمسؤوليّات المشتركة ونظام التعايش المثمر فى رحاب ظاهر الإسلام.

الولاء والبراءة ... ص: ۱۱۸

هذا، وقد بيّن فى آيات عديدة حرمة تولّى مَن غضب اللّه عليه، ولزوم التبرّى منه وهى الموالاة والبراءة لما فى قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسوا مِنَ الْآخِرَةِ كَما يَئِسَ الْكُفَّارُ مِن أَصْحَابِ الْقُبُورِ) («۱»).

وقوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَا هُم مِنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ) («۲»).

وقد وصف من غضب اللّه عليه بأنّه أضلّ عن سواء السبيل من الضالّ، كما فى قوله تعالى: (قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِن ذلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ) («۳»).

وكذلك وصف أهل النفاق من ملّة الإسلام بأنّهم مغضوب عليهم، كما فى قوله تعالى: (وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً) («۴»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۱۹

وكقوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ...* أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) («۱»).

وكقوله تعالى: (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَايَلِتْكُم مِن أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) («۲»).

وكقوله تعالى: (وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) («۳»).

وكقوله تعالى: (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ* اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ* ذلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوْا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ) («۴»)، فهذه الآيات تبيّن أنّ بعض مَن هو من فئات المسلمين لا يحمل صفة الإيمان، بل صفة النفاق، أى أنّهم يظهرون الحقّ ويبطنون الباطل، وأنّ تمرّد هذه الفئة ليس فى الإقرار باللّه تعالى كما يشهد له قوله تعالى: (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) («۵»)، وإنّما إباؤها وجحودها لمقام الرسول صلى الله عليه و آله

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۲۰

وولايته، فلم تكن تسلم قلباً لطاعة الرسول صلى الله عليه و آله وكانوا يجدون فى قلوبهم حرجاً من الاتّباع لولايته، ونظيرهم فئة اخرى، وهم الذين فى قلوبهم مرض كقوله تعالى: (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَرَضٌ أَن لَن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ) («۱»).

الطبرسى فى «مجمع البيان» عن سعيد بن جبير، قال: «قلت لابن عبّاس:

سورة التوبة، فقال: تلك الفاضحة.

قال: ما زال ينزل حتّى خشينا ألّايبقى منهم أحد إلّاذكر، وسمّيت أيضاً بالمدمدمة والمهلكة والحافرة لأنّها حفرت عمّا كانوا يسترونه، والمثيرة لأنّها أثارت مخازيهم ومقابحهم، وسورة العذاب» («۲»).

وقد ذكر الطبرسى فى «مجمع البيان»، قال: عن عاصم بن زرّ بن حبيش، عن حذيفة، قال: يسمّونها سورة التوبة، وهى سورة العذاب («۳»).

بل فى سورة البراءة تعداد لعشر فئات أو يزيد قد ذكرتهم السورة بقوارع فاضحة، ومن ثمّ سمّيت السورة- كما عن ابن عبّاس- بأسماء عديدة كالفاضحة والمبعثرة لأنّها تبعثر عن أسرار المنافقين («۴»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۲۱

المنهج المعرفى والمنهج الجاهلى

اشارة

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۲۳

(الم* ذ لِكَ الْكِتَابُ لَارَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ* وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ* أُولئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَّبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) («۱»)

الحروف المقطّعة ... ص: ۱۲۱

اشارة

(الم) والذى يظهر من جملة من الروايات- نظير ما رواه الصدوق فى أوائل «معانى الأخبار» - أنّ لها جملة من المعانى:

الأوّل: أنّها حروف لأسماء إلهيّة، كما فى رواية «معانى الأخبار»: بسنده عن سفيان الثورى، عن الصادق عليه السلام، قال: «قلت له: ما معنى قول اللَّه عزّ وجلّ:

(الم)؟

قال عليه السلام: أمّا (الم) فى أوّل البقرة فمعناه: أنا اللَّه الملك، وأمّا فى أوّل آل عمران فمعناه: أنا اللَّه المجيد» ... الحديث («۲»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۲۴

الثانى: إنّها حروف للاسم الأعظم، فقد روى فى «المعانى»: بسنده عن أبى بصير، عن أبى عبداللَّه عليه السلام، قال: (الم) هو حرف من حروف اسم اللَّه الأعظم المقطّع فى القرآن الذى يؤلّفه النبيّ صلى الله عليه و آله والإمام، فإذا دُعى به اجيب» («۱»).

الثالث: إنّها حروف أبجد لحساب تواريخ وتواقيت لملاحم وأحداث مستقبليّة، فقد روى القمّى فى تفسيره، عن الخثعمى، عن أبى جعفر عليه السلام، قال:

«سمعته يقول: (حم* عسق) («۲») عدد سنيّ القائم (عج)» («۳»).

وروى عن الباقر عليه السلام ...: «وليس من حروف مقطّعة ينقضى أيّام إلّاوقائم من بنى هاشم عند انقضائه» («۴»).

الرابع: إنّها رمز وإشارة بينه تعالى وبين حبيبه محمّد صلى الله عليه و آله، ففى «مجمع البيان»، قال: «وروت العامّة عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: إنّ لكلّ كتاب صفوة، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجّى» («۵»).

وروى العيّاشى عن أبى لبيد، عن أبى جعفر عليه السلام، قال: «يا أبا لبيد، إنّ لى فى حروف القرآن المقطّعة لعلماً جمّاً» («۶»).

وروى القمّى فى تفسيره عن الخثعمى، عن أبى جعفر عليه السلام: «وعلم كلّ شىء فى (عسق)» («۷»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۲۵

الخامس: إنّها إشارة إلى الحروف العربيّة التى نزل بها القرآن الكريم.

السادس: إنّ جملة منها من أسماء النبيّ صلى الله عليه و آله، وقَسَمٌ بتلك الأسماء، وهى التى ذكر بعدها الكتاب والقرآن، ففى دعاء السجّاد يوم الفطر:

«وَقُلْتَ جَلَّ قَوْلُكَ لَهُ حينَ اخْتَصَصْتَهُ بِما سَمَّيْتَهُ مِنَ الْأَسْماءِ: (طه* مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى) («۱»).

وَقُلْتَ عَزَّ قَوْلُكَ: (يس* وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ) («۲»).

وقُلتَ تَقَدَّسَتْ أَسْماؤُكَ: (ص وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ) («۳»).

وَقُلْتَ عَظُمَتْ آلاؤُكَ: (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) («۴»).

فَخَصَصْتَهُ أَنْ جَعَلْتَه قَسَمَكَ حينَ أَسْمَيْتَهُ، وَقَرَنْتَ الْقُرْآنَ بِهِ، فما فى كِتابِكَ مِنْ شاهِدِ قَسَمٍ وَالْقُرْآنُ مُرْدَفٌ بِهِ إِلَّا وَهُوَ اسْمُهُ، وَذلِكَ شَرَفٌ شَرَّفْتَهُ بِهِ، وَفَضْلٌ بَعَثْتَهُ إِلَيْهِ، تَعْجَزُ الْأَلْسُنُ وَالْأَفْهامُ عَن وَصْفِ مُرادِكَ بِهِ، وَتَكِلُّ عِنْ عِلْمِ ثَنائِكَ عَلَيْهِ، فَقُلْتَ عَزَّ جَلالُكَ فى تَأْكيدِ الْكِتابِ وَقَبُولِ ما جاءَ بِهِ: (هذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ) («۵»).

وَقُلْتَ عَزَزْتَ وَجَلَلْتَ: (مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِن شَىْءٍ) («۶»).

وَقُلْتَ تَبارَكْتَ وَتَعالَيْتَ فى عامَّةِ ابْتِدآئِهِ: (الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ) («۷»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۲۶

وَ: (الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ) («۱»).

وَ: (الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ) («۲»).

وَ: (الر تِلْکَ آيَاتُ الْکِتَابِ الْمُبِينِ) («۳»).

وَ: (الم* ذ لِکَ الْکِتَابُ لَارَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ) («۴»)، وَفی أَمثالِها مِنْ سُوَرِ الطَّواسينِ وَالْحَواميم فی کُلِّ ذلِکَ بَيَّنْتَ بِالْکِتابِ مَعَ الْقَسَمِ الَّذی هُوَ اسْمُ مَنِ اخْتَصَصْتَهُ لِوَحْيِکَ، وَاسْتَوْدَعْتَهُ سِرَّ غَيْبِکَ» («۵»).

ولا يخفی أنّ فی کلامه عليه السلام بيان لجملة من مقامات النبیّ صلی الله عليه و آله، منها: القسم بأسماء النبیّ صلی الله عليه و آله، ومنها: أنّه قرن به القرآن لا العکس، ومنها: أنّه صدّر اسمه علی الکتاب، وفی هذا إعلاء لمقام النبیّ علی الکتاب، ومنها: أنّه وصف النبیّ بالکتاب الناطق بخلاف المصحف.

السابع: إنّها أسماء لحقائق کونيّة ملکوتيّة، کما روی فی (ص) أنّه نهر فی الجنّة («۶»)، مع أنّه اسم من أسماء النبیّ، کما مرّ فی السابق، وفی (ق) أنّه جبل

تفسير ملاحم المحکمات، ص: ۱۲۷

محيط بالدنيا من زمرّد أخضر وخضرة السماء من ذلک الجبل («۱»)، وفی رواية «معانی الأخبار» (ن) اسم نهر فی الجنّة، وهو اسم ملک («۲»).

الثامن: إنّه يشار بهذه الحروف إلی تشابه صفات بعضها لبعض صفات اللَّه تعالی، کما ورد فی رواية الثعلبی فی تفسيره مسنداً إلی الرضا عليه السلام عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن قوله: (الم)، فقال: «فی الألف ستّ صفات من صفات اللَّه عزّ وجلّ» («۳»).

(ض ذ لِکَ الْکِتَابُ ...) ص: ۱۲۷

والمعروف عند اللغويّين أنّه اسم إشارة للبعيد، وقد استعمل فيه حرفان للبعد اللام والکاف، ومن ثمّ ذکروا أنّ لفظ (ذاک) للبعد المتوسّط، وأمّا لفظ (ذلک) فللبعد البعيد أو الأبعد.

وما ذکره جملة من المفسّرين («۴») من استعمال ذلک للمشار إليه القريب، وذکروا جملة من الشواهد والاستعمالات، فکلّها مخدوشة عند التأمّل والتدبّر وغير خارجة عن معنی البعد، مضافاً إلی تنصيص اللغويّين علی ذلک (أیاستعمالها للبعيد).

وقد وقع الکلام فی معنی البُعد فی الکتاب المشار إليه فی الآية علی وجوه:

۱- ما ورد فی «التفسير المنسوب إلی الإمام العسکری عليه السلام» من أنّ الکتب السابقة من التوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وغيرها قد أنبأت بخاتم الأنبياء وبنزول القرآن الکريم عليه، فذلک الذی قد أنبئت به الرسل والکتب السابقة هو

تفسير ملاحم المحکمات، ص: ۱۲۸

هذا الکتاب، وهو القرآن الکريم («۱»)، وعلی ضوء هذا المعنی يکون معنی (لَارَيْبَ فِيهِ) هو التأکيد علی أنّ ما أنبأت به الرسل هو نفس هذا القرآن الکريم، وهذا المعنی متّجه ومتّسق مع ترتيب لفظ الآية.

۲- أن تکون الإشارة إلی المقام الغيبیّ المکنون فی القرآن الکريم الذی اشير إليه بقوله تعالی: (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ کَرِيمٌ* فِی کِتَابٍ مَکْنُونٍ* لَايَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ* تَنزِيلٌ مِن رَبِّ الْعَالَمِينَ* أَفَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُدْهِنُونَ) («۲»)، فتشير هذه الآية من سورة الواقعة إلی وجودٍ علویّ ملکوتیّ للقرآن الکريم فی کَنٍّ لا يرقی إليه البشر إلّا المطهّرون، وأنّ المصحف الشريف بسوره وآياته تنزيل من ذلک الموقع، فللقرآن الکريم منزلتان ومقامان أو منازل ومقامات کما يظهر من سور اخری، جملة منها علويّة، وبعض منها نازلة فی متناول أيدی الناس، ثمّ تؤکّد الآيات أنّ هذا الحديث عن تعدّد مقامات القرآن الکريم لا يداهن فيه ولا يستراب، فهناک نحو تطابق بين هذه الآيات من سورة الواقعة والآية فی المقام.

وبالجملة ما يشير إلی وجود مقامات علويّة غيبيّة للقرآن الکريم آيات کثيرة، کقوله تعالی فی سورة المعارج: (وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم

مُحِيطٌ* بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ* فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ) («۳»)، والتوصيف بالمجيد والمجد يقارب التوصيف بالكرامة، وهما وصفان للمقام الغيبى للقرآن، كما أنّ المحفوظ معنىً يقرب من المكنون، فهو وصف له بلحاظ ذاك المقام.

ومنها: ما فى جملة من السور العديدة من وصف القرآن بالكتاب المبين،

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۲۹

وأنّه احصى فيه كلّ شىء، وغير ذلك من الآيات التى ستأتى لاحقاً.

وهذا المعنى أيضاً متين ومستقيم، وإن كان لا يروق بمذاق جملة من المفسّرين الذين يستوحشون منه إثبات المقام الغيبىّ للقرآن بعيد المنال يختصّ به ثلّة من هذه الامّة الموصوفين بالمطهّرين، وهذا ممّا يقطع الطريق أمام منهج حسبنا كتاب اللَّه، ولا يخفى تناسب هذا المعنى مع تصوير، وسبق هذه الآية بالحروف المقطّعة التى مرّ أنّ من أظهر معانيها أنّها أسماء لمقامات النبىّ صلى الله عليه و آله، فيتناسب ذلك المقام العلوىّ للقرآن مع ذلك المقام الغيبىّ للنبىّ، وأنّه ينحدر من مقام غيبىّ أعلى منه للنبىّ صلى الله عليه و آله، كما يستشفّ ذلك من إشارة السجّاد عليه السلام فى دعائه ويتطابق مع ما سيأتى من تفسير الكتاب بعلىّ عليه السلام.

إنّ الإشارة للتعظيم والتفخيم والإكبار، أىلأجل الإشارة إلى علوّ معانى وفخامة علوم القرآن وخطورة وصاياه، فكأنّه كالبعيد عن منال الطالبين، فلا يدرك دقائق ورقائق وإشارات حكمه بمجرّد بادرة النظر، بل يحتاج إلى إمعان وتدبّر وتعمّق، وهذا التفسير وإن اختلفت صوره عن السابق، إلّاأنّه يؤوّل إليه بنحو ما، ثمّ لا يخفى أنّ الإشارة على ما تقدّم من المعانى، على درجات، فمنها قلبيّة عقليّة، ومنها ذهنيّة، ومنها حسّيّة.

معانى الكتاب ... ص: ۱۲۹

اشارة

منها: ما قد ورد فى روايات عديدة أنّ الكتاب علىّ عليه السلام، كما فى «تفسير القمّى» («۱»)، كما قد وردت روايات عنه عليه السلام أنّه الكتاب المبين («۲»)، وسيأتى فى

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۳۰

مباحث لاحقة أنّ القرآن والعترة فى الوجود العلوىّ والغيبىّ وجود واحد، عُبّر عنه بحبل اللَّه الممدود، طرف منه بيد اللَّه وطرف منه بيد الناس، وأنّ تعدّدهما فى الوجود النازل من المصحف الشريف وأبدانهم الطاهرة لا يتنافى مع وحدة الحبل الممدود من اللَّه، وهذا معنى من معانى أنّهما لن يفترقا.

ويشير إلى ذلك: (وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) («۱»)، مع أنّه قد قال تعالى: (وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً) («۲»)، وهناك آيات عديدة اخرى يظهر منها التطابق، نوكلها إلى محلّها المناسب.

وعلى ضوء هذا المعنى يُفسّر المتّقين فى الآيات بشيعة علىّ وأهل البيت عليهم السلام، حيث أنّهم اتّقوا أنواع الكفر والجحود، وسلّموا وأذعنوا وأخبتوا للحقّ، فاتّقوا الذنوب الموبقات، أىاستوفوا ما ينبغى أن يتّقى منه، فأقاموا فى أنفسهم تمام الحدّ وحدود التقوى، واتّقوا إظهار أسرار المعارف عن غير أهلها.

ومنها: ما مرّ إليه الإشارة إلى المصحف الشريف، ثمّ إنّ المصحف لا يقتصر على الألفاظ بل له معانى، ولمعانيه معانى، وإلى طبقات عديدة ومدارج من المعانى، وللمعانى بحور ومحيطات، فالإشارة لا تقتصر على ألفاظه الشريفة، بل تشمل صفاته ومعانيه، وكم حافظ لألفاظ القرآن جاهل بمعانيه، وكم من حافظ لبعض معانيه وجاهل بما وراء ذلك من الطبقات.

ومنها: ما فى «تفسير العيّاشى» من تفسير الكتاب بكتاب علىّ عليه السلام («۳»)، ولعلّه

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۳۱

المراد به المصحف الذى جمعه عليه السلام، والذى قد دوّن فيه أسباب النزول والتأويل، وأنّ ترتيب سوره وآياته بحسب النزول.

فالقرآن فيه مفسّر تنجلى فيه كلّ المتشابهات، وهو محفوظ مصون عند أهل البيت، بل يتوارثونه ومودع عند الإمام المهدى.

وقد وصفه غير واحد من الصحابة بأنّ فيه علماً جمّاً، وتأوّه غير واحد منهم من عدم استقباله عندما عرضه عليهم فلم يكترثوا به.

ولا يخفى أنّ الكتاب لا يقتصر معناه على الرسم المنقوش فى الورق من الصحائف، كما أنّ التدوين لا يقتصر على الرسم بالدواة، كما أنّ الكلمة والكلام لا تقتصر على الحروف المصوّتة، كما فى قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ) («۱»)، وسيأتى البحث فيه مفصّلًا.

(لَارَيْبَ فِيهِ ...) ص: ۱۳۱

وقد تعدّدت الاحتمالات فى إعراب (لَارَيْبَ فِيهِ) إلى وجوه عديدة:

فمنها: كون العامل فى الجار هو مادة «ريب».

ومنها: أنّ العامل فى الجار (هُدىً)، كما أنّ (لَارَيْبَ فِيهِ) قد تجعل صفة للكتاب، وقد تجعل صفة ل (هُدىً)، أىلا ريب فى اشتماله على الهدى.

وقيل: إنّ (فِيهِ) للتعليل، كما فى (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ) («۲»)، أى بسبب القرآن ينتفى الريب، وتكون بمعنى الباء كما فى (يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ) («۳»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۳۲

و (لَارَيْبَ فِيهِ) كما فى «البحر المحيط» قلق النفس، والشكّ بتهمة («۱»)، قيل: إنّ الريب أسوء من الشكّ فى صفة اضطراب النفس كما فى «مجمع البيان» («۲»)، ويشير إلى ذلك وصف الشكّ بالمريب فى عدّة آيات («۳»).

ثمّ إنّه قد ذُكرت وجوه إعراب كثيرة فى آية (لَارَيْبَ فِيهِ) تارة بجعل (ذٰلِكَ) خبر ل (الم)، ولكن هذا الاحتمال مخالف لما مرّ من أنّ الإشارة إلى مقام نبوىّ يقرن به ذلك الكتاب.

وتارة يعرب (ذٰلِكَ) مبتدأ، وخبره إمّا (الْكِتَابُ) أو (لَارَيْبَ فِيهِ)، أو (فِيهِ هُدىً)، أو (هُدىً)، والمعنى على جملة هذه التقادير مآله واحد، ثمّ إنّ فى هذه الآيات إشارة إلى جملة من معالم نهج المعرفة عند القرآن الكريم فى قبال نهج الجهل والجاهليّة.

المعلَم الأوّل: تجنّب الريب ... ص: ۱۳۲

اشارة

حيث أنّ نفى الريب يختلف معناه بحسب اختلاف معنى (فِيهِ)، فعلى التعليل يكون معنى (لَارَيْبَ) أنّ من يهتدى بنور الكتاب، ويستمسك بتعاليمه وأنواره ينتفى عنه الريب والاضطراب والحيرة، ويتّصف بالطمأنينة والحكمة المورثة للسكينة، فيكون الكتاب علاجاً للريب الذى هو الاضطراب والحيرة والترديد، فإنّ الملاحظ فى الآيات الكريمة عموماً ذمّ الريب والشكّ، وجعله من

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۳۳

صفة الجاهلين والكفّار، وكذلك الحال فى الشكّ، ولم يوصف أهل التقوى واليقين بهاتين الصفتين، ولا يخفى أنّ الشكّ والريب ليسا صفتين تعبّران عن درجة العلم أو الإدراك، كالاحتمال والظنّ واليقين والوهم، بل هما صفتان تعبّران عن الحالة العمليّة فى جنبة النفس، نظير القطع والاطمئنان والسكينة، فهما من الصفات العمليّة للنفس.

وبذلك يظهر أنّ الشكّ ليس كما درج عليه المناطقة أو الفلاسفة أو فى اصطلاح العلوم المختلفة من تساوى الاحتمالين أو تقاربهما فى النسبة، بل الشكّ فى حقيقته هو حالة من الاضطراب النفسى والتردّد والحيرة وانجذاب النفس إلى الاحتمالين أو الاحتمالات، مع عجز فى قدرة النفس عن التميز والفحص.

وكذلك الحال والريب والريبة، لكن بنحو أشدّ كما فى وصف المنافقين فى قوله تعالى: (مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِكَ لَاإِلَى هؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا) («۱»).

وهذه حالة عىّ وإعياء فى النفس تفقد فيها القدرة على إحكام التدبير لرفع الجهالة أو السعى والفحص، فلا يظنّن ظانّ أنّ القرآن يسدّ باب السؤال والفحص وإبداء الاحتمال والتحرّى والتنقيب والتفتيش، وكيف والقرآن الكريم يدعو فى امّ المعرفة وهى معرفة اللَّه والتوحيد، إلى التدبّر والتنقيب والفحص والبرهان، ويذمّ التقليد بلا بصيرة، ويدعو إلى العلم والتعلّم لا إلى الجهل والجهالة، وهذا بخلاف الشكّ والتشكيك والاسترابة الذى هو منهج سفسطى يتوخّونه ليقدّموا إلى الجحود وإنكار الحقائق بمجرّد الاضطراب النفسى والترديد مع أنّ كلّاً من الإنكار أو التسليم لا بدّ أن يبنى على الدلائل لا على مجرّد الحيرة والتردّد، وفى الحقيقة إنّ هذه الحالة حالة وقوف وجمود عن الفحص والتنقيب وإيقاف

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۳۴

لحركة الفكر وانحباس النفس فى طوق الحيرة وإياسها عن السير والحركة الفكريّة لرفع المجهول وتبديله إلى المعلوم، ومن ثمّ يحقّق من أنّ الشكّ والريب شعار الجهل والجاهليّة، وهو المنهج السفسطى.

وممّا يشير إلى كون الريب حالة توقّف فى الفكر والفحص العلمى ما يشير إليه قوله تعالى الآتى (وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِن مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* فَإِن لَمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) («۱»)، حيث يتضمّن المقابلة بين الريب وبين الفحص والتثبّت العلمىّ، حيث يخاطب القرآن الكريم الكافرين بكون القرآن نازل من عند اللَّه، وأنّه معجزة بأنّ المكث فى الريب والتشكيك والحيرة والتردّد لا يوجب انكشاف الحقيقة، وليس نهجاً يتحرّى فيه العلم بحقيقة الحال.

فمن ثمّ دعاهم القرآن الكريم للفحص عن كونه معجزاً بمحاولتهم للإتيان بسورة من مثل القرآن كى يتبيّن لهم أنّ ذلك بوسعهم، أو أنّهم عاجزون عن ذلك.

فهذه دعوة إلى الفحص العلمى فى قبال الجمود الموجود فى حالة الريب الذى هو قذف من بعيد عن متناول الحقيقة، ثمّ يدعوهم القرآن الكريم إلى خطوة علميّة اخرى إذا عجزوا أو لم يسلكوا الخطوة الاولى، وهى أخذ الحيطة بمراعاة جملة من الاحتمالات والمحتملات، وهذا يغاير ما يمارسه المرتاب بسبب حالة الريبة، فإنّ تلك الحالة من الريب أو التشكيك تدفعه إلى الجحود والإنكار بعجلة واندفاع من دون استبيان وتثبّت وتحرّى فاحص، مع أنّ قواعد المنهج العلمى التى يدركها العقل السليم، والتى ينبّه عليها القرآن المجيد، أنّ اللازم عدم النفى

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۳۵

والإثبات، وعدم الإقدام على التسليم أو الإنكار، إلّاعلى وفق دلائل وبيّنات، وإذا لم يقف الإنسان على تلك الدلائل لعجز أو لعدم القدرة على التميز أو لأىّ سبب آخر، فإنّ اللازم حينئذٍ عدم الركون إلى الحكم والقضاء بأحد الطرفين، والوظيفة حينئذٍ أخذ الحيطة والرعاية للاحمال فى كلا الطرفين.

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: (فَإِن لَمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) («۱»).

وهذه الخطوة الثانية إحدى الإخفاقات العظيمة الجهلائيّة فى الغيب يتمسّك بها الجاهلون والمنطق الجاهلى القديم والحديث، وهى خطوة علميّة عملائيّة يفرّط فيها المستمسكون بالريب والمريبون والشكّاك والمنهج التشكيكى يخلدون فيه إلى دعة الكسل الفكرى

والعملى بدل الجهد الفكرى والتحرّى.

ويتبيّن من ذلك أنّ المعنى الآخر ل (فِيهِ) وهو الظرفيّة أيضاً هو الآخر نعت للقرآن الكريم بصفة العلميّة، فإنّ العلم والنهج العلمى الفاحص يقود إلى التسليم بأنّه من عند اللّه، وأنّه كتاب هداية.

(هُدىً لِلْمُتَّقِينَ ...) ص: ۱۳۵

المعلَم الثانى ... ص: ۱۳۵

اشارة

فى هذه الجملة إشارة إلى قاعدة والتوصية الثانية للنهج المعرفى عند القرآن، فقد خصّ الهداية الحاصلة من الكتاب بالمتّقين، والهداية هى الوصول إلى الحقيقة ودركها، فهى تتضمّن لكلّ من المعرفة والانتفاع بها للوصول للغاية،

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۳۶

فإنّ الهداية كما تستعمل تارة فى إراءة الطريق للمطلوب، واخرى فى الايصال والوصول للمطلوب، فها هنا تشير الآية إلى قاعدة مهمّة ونظام مهمّ فى العصمة من الخطأ والخطاء والزلل والضلال.

فالآية فى صدد بيان نظام وقواعد إذا رُوعيت أوجبت العصمة والاستعصام من الخطأ، فهى إشارة إلى النظام المنطقى الذى يرسمه القرآن الكريم، وإلى مدرسة متميّزة فى النهج المنطقى والفكرى تختلف عن المدارس المنطقيّة الاخرى، سواء المدرسة اليونانيّة فى المنطق الأرسطى الذى يقتصر على بعض ضوابط الحركة الفكريّة فى بعض قواعد هيئة الاستدلال، أو بعض قواعد موادّها من دون تعرّضها إلى قواعد القوّة الإدراكيّة الاخرى، كالمخيّلة والواهمة وقوى الحواس، فضلًا عن قوى الإدراك القلبيّة، وفضلًا عن منظومة قوى العمّالة فى النفس، وغيرها من طبقات ودرجات منازل النفس والروح.

وكذلك الحال فى المنطق الرياضى أو مدرسة المنطق الوضعىّ أو الاحصائىّ أو الاستقرائىّ أو الرقمىّ أو النفسانىّ أو الاجتماعى وغيرها من المدارس المنطقيّة، فإنّها تركّز على جانب من القوّة المؤثّرة للنفس فى عمليّة الاستنتاج والإدراك الهيولىّ الفكرىّ أو القلبىّ، والمسير العملىّ للنفس، سواء كان روحيّاً أو بدنيّاً.

وهذا النظام المنطقىّ الذى تشير إليه الآية هى منظومة متكاملة مترامية بوسع دائرة التقوى والعمل بالشريعة الغرّاء، فكلّ شرعة فى الشريعة وكلّ حكم وتوصية دخيل فى ازدياد إدراك الإنسان وقوّة تمييزه، نظير ما ورد فى قوله تعالى:

(إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَكُمْ فُرْقَاناً) («۱»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۳۷

وقوله تعالى: (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ) («۱»)، والآيات الكثيرة الواردة فى أنّ اللّه لا يهدى القوم الظالمين (وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) («۲»).

لا يهدى القوم الفاسقين (وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) («۳»).

لا يهدى القوم الكافرين (وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) («۴»).

لا يهدى من هو كاذب كفّار (إِنَّ اللَّهَ لَايَهْدِى مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ) («۵»).

لا يهدى من هو مسرف كذاب (إِنَّ اللَّهَ لَايَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ) («۶»).

وقوله تعالى: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) («۷»).

وقوله تعالى: (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ) («۸»).

ولا يخفى أنّ الهدى والضلالة لغة من لغات العقل العملى الذى يعبّر عنه بالإدراك وعدم العلم فى لغة العقل النظرى، بل انّ الهداية سداد وتوفيق علاوة على الإدراك والتنظير لما مرّ أنّ الهداية تستخدم بمعنيين:

١- معنى الإراءة.

٢- الايصال للمطلوب.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ١٣٨

ونظير هذه الآية فى الإشارة إلى منظومة التقوى كمنظومة منطقيّة تعصم الإدراك، قوله تعالى: (فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) («١»).

وقوله تعالى فى شأن الإنجيل: (وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ) («٢»).

وكذلك قوله تعالى فى شأن التوراة: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ) («٣»).

فبيّن تعالى أنّ الكتب السماويّة لما فيها من علوم وحقائق وضياء وتذكّر للفطرة والعقل لا يسدّد لذلك ولا يصيبه إلّاالمتّقون، فهناك شرطيّة تلازم ما بين التقوى والسداد فى الإدراك والاستنتاج والوصول إلى الغاية المطلوبة، ونظير الآية فى المقام: (هذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ) («۴»).

ويشير إلى ذلك أيضاً قوله تعالى: (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ* فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ* لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) («۵»)، حيث تشير الآية إجمالًا إلى أنّ هناك ارتباط وثيق بين الطاهرة من الرذائل والمعاصى، وبين نيل درجات وصفات معانى القرآن الكريم.

وكذا قوله تعالى: (ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ) («۶»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ١٣٩

وفى القرآن الكريم بيانات لا- تحصى مبيّنة للارتباط بين ارتكاب كلّ رذيلة أو معصية، وأثرها فى زلل الإنسان وخطائه فى إدراك الامور، وكذلك العكس والارتباط بين ارتكاب كلّ فضيلة وطاعة وقدرة الإدراك والسداد للحقائق والامور.

ولا- تقتصر التقوى على الجانب العملىّ والعملانىّ، بل كذلك فى التسليم والاذعان للحقائق، فإنّه يورّث قدرة إدراك وسداد وقوّة للوصول للحقائق والغايات.

ثمّ إنّ قوله تعالى: (الم* تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ* هُدىً وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ* الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ* أُوْلئِكَ عَلَى هُدىً مِن رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) («١») شديد التطابق مع الآيات الخمس فى سورة البقرة، أمّا مغايرة عنوان المتّقين بالمحسنين، فالإحسان درجة عالية فوق التقوى بالمعنى الأخصّ، وإن كانت التقوى بالمعنى العام شاملة لها، ولا ريب أنّه كلّما ازدادت درجات الإيمان ودرجات التقوى ودرجات الطهارة زادت نسبة الهداية بالكتاب.

كما يشعر بذلك قوله تعالى: (فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ* لَايَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) («٢»)، وأنّ مورد الآية فى المطهّرين من الامّة، إلّاأنّه يستفاد منها بالفحوى والالتزام دخالة درجات الطهارة فى درك وإبصار أنوار الكتاب وهدايته.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ١۴٠

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ...) ص: ١۴٠

المعلَم الثالث: الإيمان بالغيب ... ص: ١۴٠

وهذه توصية ثالثة فى النهج المعرفى فى القرآن الكريم فى قبال نهج الجهل ألا وهو الإيمان.

ففى هـذه الآيـات بيـان لشـرط ثـالث للاهتـداء للحقيقـة وحصول المعرفـة من الكتـاب، وهو الإيمان بالغيب، وهو عنوان لمساحات من الحقيقة والواقعيّة تغيب عن محدودة إدراك الإنسان، وهذه التوصـية والقاعدة ضروريّة ولا بدّ منها فى كلّ بحث وتنقيب علميّ فى أىّ علم من العلوم، فـإنّ المسـيرة العلميّـة فى كـلّ علم إنّمـا تتواصـل تنقيبـاً وتحقيقـاً واسـتكشافاً لإيمـان الباحثين بأنّ هناك مساحات من الحقيقة لم يدركوها بعد ولم يصلوا إليها.

ولولا أنّهم بانين على وجود مساحات وراء ما وصل إليه الإنجاز العلميّ الـذى هم متخصّصون فيه، لما دأبوا على البحث والفحص، بل إنّ فى قرارة كـلّ النخب العلميّـة على مرّ الأجيـال أنّ مسـيرة العلوم لم تقف يومـاً ما عنـد حـدّ تنتهى إليه، وهـذا ممّا يبرهن أنّ مساحة الحقيقة الغائبة أعظم من مساحة الحقيقة المكتشفة.

كما يتبيّن أنّ من ضـرورة البحث العلميّ توطين النفس على وجود حقيقة غائبة ينصبّ الطلب والسـعى والبحث نحو اكتشافها، فالإيمان بالغيب شرط أساس فى السعى العلميّ والنهج المعرفيّ، بينما جحود الغيب يعنى جمود الحركة العلميّة ومراوحتها فى مكانها.

وربّما يشير إلى هذا الأصل المنطقيّ المعرفيّ القرآنيّ أيضاً، قوله تعالى:

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۴۱

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ) («۱»)، ومفاد هـذه الآية أيضاً اجتناب الإنكار بالمساحات الغائبة من الحقيقة، وإن لم يكن يعنى ذلك ولا يسـتلزم التسـليم بشىء من دون دلائل وبيّنات، فإنّ بين التسليم بدون بيّنات أو الإنكار من دون بيّنات طريق ثالث معرفيّ يحثّ عليه القرآن، وهو السعى والفحص، ولا يمكن البناء عليه إلّابالإيمان.

فتوطين النفس على وجود ما غاب عن الإدراك سبب يحثّ على المزيد من التعلّم، بل واستمراره، وهذا عكس الإنكار والمسارعة إلى الاسترابة والتشكيك، فإنّه يحول دون ذلك.

ثمّ إنّ هاهنـا تساؤل فى مغايرة تفسـير الآيـة الكريمـة بين (يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) وبين قوله تعالى: (وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)، فلماذا جُعل عنوان الإدراك والإذعان المتعلّق بالآخرة إيقان، بينما جُعل المتعلّق بالغيب إيمان، كما أنّه كـذلك فى قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ) («۲») فى الآيتين، حيث اطلق على الإذعان بالوحى النازل عليه، وعلى الأنبياء من قِبله اطلق عليه الإيمان، فما هو الفرق بين العنوانين؟

ومن الملاحظ أنّ اليقين لم يُجعل متعلّقه فى الآيات والروايات، الـذات الإلهيّـة، بل جُعل متعلّقه فى الآيات، الآخرة، أو الإيقان بالآيات الإلهيّة، أو اليقين بوجود النار، ويُحذف متعلّقه ويقدّر بلحاظ سياق الجملة، بينما الإذعان به تعالى جُعل دوماً بعنوان الإيمان.

وقد ذكر فى الآيات لليقين مراتب: علم اليقين (كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۴۲

الْيَقِينِ) («۱»)، وعين اليقين: (ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ) («۲»)، وحقّ اليقين (إِنَّ هذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ) («۳»)، (وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ) («۴»).

والإيمـان وإن اسـتعمل فى مطلق الإذعان الشامل لمطلق مراتب اليقين والظنّ والرجاء إذا روعى الاحتمال والمحتمل واخـذ على جانب الحيطة، كما ورد فى الروايات، ففى قول الصادق عليه السلام: «إنّ الإيمان عشر درجات بمنزلة السُّلَّم يصعد منه مرقاة بعد مرقاة» («۵»).

وروى فى «الكـافى» عن البـاقر عليه السـلام: «إنّ المؤمنين على منـازل، منهم على واحـدة، ومنهم على اثنتين ... فلو ذهبت تحمل على صاحب الواحدة ثنتين لم يقو...

وعلى صاحب الستّ سبعاً لم يقو، وعلى هذه الدرجات» («۶»).

وهذه الرواية تعطى عدم الحصر فى درجات الإيمان.

وفى روايـة اخرى عن الصـادق عليه السـلام: «إنّ اللَّه تبـارك وتعـالى خلق أجزاء بلغ بهـا تسع وأربعين جزءاً، ثمّ جعل الأجزاء أعشاراً، فجعل الجزء عشرة أعشار، ثمّ قسّمه بين الخلق» الحديث («۷»).

فيظهر منها أنّ تقسيمه إلى مئات بل الآلاف من الدرجات.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۴۳

وفى رواية رابعة عنه عليه السلام: «إنّ اللّه عزّ وجلّ وضع الإيمان على سبعة أسهم» («۱»).

ورغم إطلاق الإيمان على كلّ هذه الدرجات، إلّاأنّ بين استعمال الإيمان بمعنى مطلق الإيمان والتسليم يغاير استعمال الإيمان بمعنى أخصّ، وهو الإذعان والتسليم بشيء خارج عن حيطة الإدراك التفصيلى، بل يدركه الإنسان من وراء حجاب، أو فقل: يدركه بالآيات والدلائل.

وبعبارة اخرى: أنّ الإيمان بالمعنى الأخصّ ما يُفرض فيه عدم الإحاطة بالشيء، بل إدراك وجه الشيء إدراكاً إجماليّاً، وهذا بخلاف اليقين (علم اليقين) أو (عين اليقين) أو (حقّ اليقين).

نعم، قد يُفرّق بين اليقين وعين اليقين وحقّ اليقين وعلم اليقين بأن يعرّف اليقين كما عن «القاموس» (بإزاحة الشكّ) («۲»). ومن المعلوم أنّ معنى الشكّ ليس تساوى الاحتمال، بل هو افتراض النفس وحيرتها وتردّدها، سواء كان مستوى الإدراك لدى النفس عالٍ أو متوسّط أو نازل وهو الريب الذى مرّ ذمّ القرآن له، وأنّه منهج غير معرفىّ، بل نهج جاهلىّ جهلىّ، وعلى هذا المعنى من اليقين، وهو حالة سلامة النفس فى كيفيّة التعاطى مع المعطيات العلميّة، سواء توفّرت النفس على حجم وفير من الإدراكات أو مقدار ضئيل، فإنّ لكلّ مقدار ووظيفة علميّة ومعرفيّة للتعاطى معها، ولا معنى حينئذٍ للاضطراب أو الجمود عن الحركة الفكريّة، ولا معنى للابتعاد عن الموقف العملىّ اتّجاه النتيجة العلميّة لذلك المطلوب، ولعلّ من هذا الباب ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «الْإِسْلَامُ هُوَ التَّسْلِيمُ، والتَّسْلِيمُ هُوَ الْيَقِينُ، والْيَقِينُ هُوَ التَّصْدِيقُ، والتَّصْدِيقُ هُوَ الْإِقْرارُ، والْإِقْرارُ

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۴۴

هُوَ الْأَداءُ، والْأَداءُ هَوَ الْعَمَلُ» («۱»).

«إنّ المؤمن يرى يقينه فى عمله، والكافر يرى إنكاره فى عمله» («۲»).

فجعل عليه السلام المقابلة بين اليقين والإنكار حيث أنّ عنوان الإنكار يستعمل فى الإباء والرفض من دون دليل وشاهد، ومن الواضح أنّ هذا المعنى من الإنكار ليس هو النفى المسند إلى بيّنات ودلائل، وإنّما هو الإباء من دون بحث ولا تنقيب علمىّ.

وممّا يعزّز هذا المعنى للشكّ ما قيل عن جملة من اللغويّين أنّ الريبة والريب فى الأصل القلق والاضطراب، وشاع استعمالها فى سوء الظنّ والتهمة، ومن ثمّ فسّر قوله تعالى: (فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحاً) («۳»)، باليقين، أىفُسِّر الرجاء فى قوله جلّ جلاله باليقين، ونحوه من استعمالات الرجاء فى الآيات المتعلّقة بالآخرة، والمصحّح لهذا الاستعمال هو استناد هذا الراجى إلى موازين تقتضيها الحكمة والعلم، وإن كانت درجة إدراكه نازلة، بخلاف الجاحد والمنكر، فإنّه وإن تصاعدت درجة الاحتمال لديه، إلّاأنّه لا يقوم بالوظيفة والمسؤوليّة العلميّة اتّجاه هذه المعطيات العلميّة بخلاف الشخص الموقن، فعلى هذا يكون الوجه المصحّح لليقين فى مقابل الشكّ هو استناد الشخص إلى موازين يستيقن بجدوائيّتها بغضّ النظر لدرجة الاحتمال التى وصل إليها.

ومن موارد إطلاق اليقين بهذا المعنى على الظنّ فى قوله تعالى: (الَّذِينَ

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۴۵

يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) («۱»)، وغيرها من موارد الاستعمال.

مع أنّ الظنّ استعمل فى القرآن فى موارد اخرى كثيرة فى مقابل الحقّ، بل اطلق الظنّ على ما يوجب اليقين المنطقى الأرسطىّ، أىما ينبع من الحسّ، كما فى قوله تعالى فى شأن اليهود والنصارى: (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِن عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً) («۲»)، فالمقابلة بين اليقين والظنّ هاهنا وإطلاق الظنّ على الحسّ إنّما هو بلحاظ ترك اليهود والنصارى ما هو أقوى فى درجة العلم والحجّيّة، وهو قول عيسى ومعاجزه،

وأنّه سيبقى ويساهم فى إقامة دولة الحقّ فى الأرض، وركنوا إلى ما هو أضعف فى درجة العلم وهو الحسّ، ومن ثمّ اطلق عليه الظنّ بهذا الاعتبار، وهذا معنىً من الظنّ غير ما هو مستعمل فى المنطق اليونانى، مع أنّ المنطق الأرسطىّ قد فاوت فى درجات أسباب العلم، فجعل الفطريّات، ثمّ الأوّليّات، ثمّ البديهيّات، ثمّ الحسّيّات، ثمّ التجربيّات، ثمّ الحدسيّات، أى‌بينها هذه الأقسام السّتّة درجات متفاوتة فى أسباب العلم، فلا يمكن للدرجة الأضعف أن تناهض الدرجة الأقوى.

وعلى أىّ تقدير، فالإيمان بالمعنى الأخصّ يغاير عين اليقين وحقّ اليقين، بل علم اليقين بالمعنى الذى يفرض فيه الإحاطة، ولم نقف- كما مرّ- على مورد لم يُجعل متعلّق اليقين- فضلًا عن عامّه وحقّه وعينه- معرفة اللّه، بل جُعل متعلّقاً للإيمان.

ثمّ إنّ ما ورد فى الروايات من المغايرة بين المؤمنين والمتّقين والموقنين

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۴۶

والمخلصين يشير إلى اختلاف مراتب الإدراك فى المعرفة الإيمانيّة، وحيث تبيّن الرواية أنّ الفارق بين المؤمنين والمسلمين، والذى قد بيّنته الآيات أنّه طورٌ نوعىّ متكامل وراء طور ابتداء الإسلام.

هذا الفارق بينهما هو بعينه الفارق بين مقام المتّقين والمؤمنين كذلك الفارق بين الموقنين والمتّقين وبين المخلصين والموقنين.

وفى الحقيقة أنّ هذه الدرجات تابعة لدرجات المعرفة والبصيرة، فالمؤمنون حيث يشوب معرفتهم جانب من الإبهام والإجمال، ومن ثَمّ تكون الحجّيّة لديهم تعبّديّة، أى‌علميّة مشوبة بإبهام وإجمال.

بينما الحجّيّة عند الموقنين حجّيّة علميّة تفصيليّة، وهى فوق الحجّيّة التعبّديّة، أى‌لا إبهام فيها ولا إجمال، وإن كان فيها تسليم وانقياد للحقّ والحقيقة، ومن ثمّ تكون طاعة وتسليم الموقن لإبصاره الحقيقة، ويكون استمساكه بطريق الصواب أشدّ من عموم المؤمنين.

وممّا يشير إلى هذا المعلَم الثالث فى نهج المعرفة قوله تعالى: (هـذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) («۱»)، فخصّ تعالى حصول المعرفة والهداية ونزول الرحمة التى هى عبارة عن السعادة بالموقنين.

المعلَم الرابع: الهداية وافتراقها عن عموم العلم ... ص: ۱۴۶

اشارة

حيث أنّ القرآن رغم إشادته الكثيرة بالمديح للعلم، إلّاأنّه يؤكّد من جانب آخر على الهداية ويقع الكلام فى المائز بين عموم أنواع العلم والعلوم، وبين حقيقة الهداية.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۴۷

والهداية كما فى «صحاح الجوهرى» و «القاموس»: الرشاد والدلالة («۱»)، وهذان المعنيان عبارة اخرى عن الايصال إلى المطلوب، وهو الرشاد والرشد، والثانى إراءة الطريق، وهو الدلالة والكاشفيّة، وقريب من ذلك ما ذكره الفتونى فى «مرآة الأنوار»، قال: «الهداية فى الاستعمال الشرعىّ: الدلالة إلى الحقّ والدعاء إليه، وإراءة الطريق والإرشاد إليه، والأمر به» («۲»).

وبشىء من التدقيق، فإنّ المائز بين المعنيين للهداية هو الفارق بين فعل قوّة العقل النظرىّ الذى شأنه الإراءة ومجرّد الإدراك من دون استدعاء عمل ولا حركة، بخلاف فعل قوّة العقل العملىّ الذى شأنه الدعوة والتحريك والبعث والحاكميّة والآمريّة والناهويّة بالزجر، وإن لم يصل إلى حدّ الإلجاء. وبالتالى فهذان المعنيان لغتان للعقل النظرىّ والعملىّ.

ومن أمثلة التعدّد لمعنى الهداية ما فى قوله تعالى: (إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) («۳»)، فالإنذار إراءة للطريق يقوم به الأنبياء والرسل، فهم المنذرون، والهداية وهى الايصال للمطلوب وهو دور يقوم به الأئمّة، سواء أكانوا من الأنبياء أو الأوصياء.

وعلى أىّ تقدير: فبين الهداية بمعنييها فرق فارق مع مطلق الآية، فإنّ كلّ علم لا يتخطّى حدود متعلّقه وموضوعه وغايته، فمثلًا علوم

الطبيعيّات، كعلم الفيزياء يتناول أحوال المادّة، وعلم الأحياء يتناول أحوال الكائن الحيّ الجسمانى، وعلم الكيمياء يتناول التفاعل بين عناصر الموادّ، وعلم الرياضيّات يتناول العدد

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۴۸

موالمعدود ... وهلمّ جراً، كلّ علم له موضوع يبحث عن اتّصافه بحكم أو بصفة ما يسمّى المحمول، وهذا الحكم أو الصفة هى الغاية من ذلك العلم، ولا ريب أنّ هذه الغاية محدودة لا تتناول ما وراءها، ودوائر مساحات أبعد.

ومن ثمّ صحّ ما يقال من أنّ غاية العلم لا تُحدّد ما وراءها، فقد تُوظّف هذه الغاية إلى غايات مختلفة وراءها، فعلم الفيزياء وعلم الذرّة الذى يُعبّر عنه بعلم الفيزياء النوويّة، قد يُوظّف للمقاصد السلميّة النافعة، وقد يُوظّف للأهداف الحربيّة المهلكة للنسل البشرىّ.

فالعلم النووىّ من حيث هو، لا يُحدّد المسار والاتّجاه فيما وراء غايته، وكذلك علم الأحياء وما يُعرف بعلم الباحث عن المسائل الجرثوميّة والبكتيريّة أو مسائل المحاليل والعناصر الكيميائيّة الخطرة، فإنّ هذه العلوم قد تُوظّف وتُجيّر للخدمة البشريّة والتنمية والعمران والبيئة الكونيّة، وقد تُوظّف لهلاك البشريّة والبيئة، فإنّ هذه العلوم بنفسها لا تحدّد مسار الخير والشرّ، بل لا بدّ من علم آخر وراءها يتحدّد به المسار، وليس هذا القصور خاصّ بالعلوم الطبيعيّة كذلك خاصّ بالعلوم الروحيّة والإنسانيّة والنفس، فإنّ غاية هذه العلوم تحديد أحوال النفس وحالات القوّة فيها وحالات الضعف والتدبير والترويض لقوى النفس أو فى بيئة الاسرة أو فى البيئة الاجتماعيّة، كما فى العلوم الاجتماعيّة، كالعلوم السياسيّة والإداريّة والاستراتيجيّة، وغيرها من العلوم النظميّة، فإنّها مهما بلغت فلها غاية محدودة وهى النشأة الأرضيّة، وأمّا ما وراءها من الحياة فى العوالم الاخرى، فليست فى متناولها، ومن ثمّ تقصر هذه العلوم فى تحديد المسار فى العوالم اللّاحقة، فلا بدّ من علم ومعرفة فوقها يوظّفها فى مسار الخير والسعادة والكمال، سواء فى النشأة الدنيويّة أو النشآت اللّاحقة، فالعلوم فى نفسها

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۴۹

لا تُحدّد الغايات التى وراءها، بل هناك علم جامع يُحدّد خريطة المسار ويكون فوقيّاً مشرفاً مهيمناً عليها، وهذا هو معنى الهداية.

ومن ثمّ مرّ فى معنى الهداية إمّا بمعنى إراءة الطريق، وهو المسار أو الإيصال إلى المطلوب، وبالتالى اختلفت الهداية عن مطلق العلم، فإنّ الهداية تستهدف بالدرجة الاولى التوظيف والاستثمار الذى يتعلّق بالعلوم، وتجعل من العلوم علوماً هادفة للسعادة والفلاح، ولك أن تقول: إنّ الفارق بين العلم والهداية نظير الفرق بين إدراكات العقل النظرىّ حيث يُدرك مطلق وجود المعلومات، وبين العقل العملىّ، فإنّه يُعمل المعلومات والعلوم فى مسير الكمال والخير والسعادة، كما فى قول الإمام الكاظم عليه السلام فى تعريف العقل بأنّه «ما عُبد به الرحمن واكتسب به الجنان» («۱»)، وعلى ضوء ذلك فالهداية أمر أرفع مهيمن على العلوم، ومن ثمّ كانت الغاية المهمّة من الكتاب والصفة العليّة للقرآن أنّه كتاب هداية، وهذا معلَم مهمّ فى نهج المعرفة الذى يهديه القرآن الكريم بينما فى المدارس المنطقيّة الاخرى لا تتناول الغايات البعيدة، بل تقتصر على الغايات المحدودة، وهذا مائز آخر بين نهج المعرفة فى القرآن والمناهج البشريّة.

الغيب والانتظار ... ص: ۱۴۹

اشارة

قد ورد فى جملة من الروايات عنهم عليهم السلام فى تفسير الغيب فى هذه الآية بالإمام المهدى المنتظر عليه السلام.

ففى رواية أبى بصير، قال: «سألت الصادق عليه السلام عن قول اللّه عزّ وجلّ: (الم* ذ لِكَ الْكِتَابُ لَارَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)، ... فقال: المتّقون

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۵۰

شيعة عليّ عليه السلام، والغيب فهو الحجّة الغائب، وشاهد ذلك قوله تعالى: (وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِن رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ) («۱»)» («۲»).

وبيان الرواية بقرينة بقيّة الروايات الواردة المفسّرة للغيب بمطلق الغيب، فى صدد بيان أبرز معالم الغيب، وهو الإيمان بمجيء دولة الحقّ كغاية وحكمة من خلقة الأرض.

ومجموع الآيات فى المقام يعضد بروز هذا المصداق، حيث ذكر فى الآيات الإيمان بالكتب السماويّة واليقين بالآخرة، وهو يفترض فيه الإيمان باللّه وبالمرسلين، فمع إفراد عنوان الإيمان بالغيب فى مقابل ذلك، يبرز هذا المصداق من الغيب كمورد جليّ يراد من هذا العنوان، لا سيّما بضميمة ما استشهد به عليه السلام فى قوله تعالى من سورة يونس، حيث إنّ احتجاج المشركين مع النبيّ صلى الله عليه و آله ومطالبتهم بنزول آية ربّانيّة فاصلة بين الطرفين، والظاهر من هذه الآية أنّ سِمَتها تأييد ربّانى للنبيّ صلى الله عليه و آله، لا سيّما وأنّ البيان فى الآيات السابقة على ذلك فى تلك السورة حول اختلاف الناس من بعد ما كانوا امّة واحدة.

ومن البيّن أنّ مجيء دولة الحقّ بحسب الوعد القرآنيّ فى الآيات العديدة وروايات الفريقين، هو التأييد العظيم الموعود به النبيّ (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) («۳»).

ومن ثمّ يظهر أنّ تفسير المتّقين بشيعة عليّ عليه السلام هو بيان لاستكمال مراتب التقوى.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۵۱

(وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنفِقُونَ ...) ص: ۱۵۱

ولا يخفى أنّ هاتين الجملتين معطوفة على الصلة لاسم الموصول، وهو فى موضع نعت أو بيان للمتّقين، فتكون هذه الجمل الثلاثة فى الصلة مبيّنة لأعمدة التقوى وهى الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة، والإنفاق ممّا يملكه المؤمن، كما لا يخفى أنّ إقامة الصلاة يغاير مجرّد أدائها، بل إقامة الصلاة لا يقتصر على أدائها بحدودها، بل يشمل ما فى قوله تعالى: (وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ) («۱»).

وقوله تعالى: (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا) («۲»).

وقوله تعالى: (الَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) («۳»)، أى إقامة الصلاة كشعيرة فى المجتمع كما أنّ هذه الآية من الحجّ تبيّن عمدة وظائف الحاكم فى نظام الشريعة، فيظهر من كلّ منهما أنّ إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ركنان فى التقوى وركنان فى وظائف الحكم.

وقد بُيّن أنّ هذين الركنين يؤسّسان البُنية الرئيسيّة لمجتمع الإيمان، أحدهما فى البُعد الروحيّ، سواء الفرديّ أو الاجتماعيّ، والآخر البُعد المادّى، وهو التكافل فى المادّة والأموال، وفيما ورد عنهم عليهم السلام شمول الإنفاق إلى إنفاق العلم ومعرفة الهداية، فعن أبى عبداللّه عليه السلام، قال: «ممّا علّمنا هم ينبئون، وما علّمناهم من القرآن يتلون» («۴»)، وهو بيان للمصاديق الأكثر خطورة.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۵۲

المعلَم الخامس: فى نهج المعرفة القرآنيّ شرطيّة العبادة فى قوّة الإدراك والبصيرة ... ص: ۱۵۲

حيث أنّ هاتين الجملتين فى الآية من إقامة الصلاة والإنفاق، كما مرّت الإشارة إليه وردتا فى سياق تعريف المتّقين، وبيان التقوى التى توجد الأهليّة لإدراك الهداية القرآنيّة ومعرفتها، ففى هاتين الجملتين بيان لارتباط السلوك الروحيّ للإنسان فى ضمن برنامج ونظام الصلاة وارتباطه بقوّة إدراك الإنسان للحقائق، وقد نقل عن كثير من المحقّقين أنّهم كانوا إذا استعصت عليهم المسائل تنفّلوا بركعات بغية أن تنحلّ لديهم عُقد المسائل العلميّة.

والحاصل: أنّ ما للصلاة من خواصّ من أنّها تنهى عن الفحشاء والمنكر فى قوله تعالى: (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ) («۱»)،

وكذلك فى قوله تعالى:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى) («۲»)، وأنّها معراج وعروج المؤمن، فإنّ لتهذيب قوى النفس الأثر البالغ فى عدم مشاغبتها للعقل، والأثر البالغ لعدم تعصّى النفس وتمرّدها، وعدم جحودها أمام الحقائق.

ومن ثمّ أخفقت المدارس المنطقيّة الكثيرة فى عصمة الفكر الإنسانىّ، حيث أغفلت التهذيب الأخلاقى، أو أغفلت البرنامج الأمثل فى تهذيب الأخلاق الذى هو الصلاة، ومن أهمّ خواصّ الصلاة إيجابها للذكر، والذكر هو من أهمّ معالم نهج القرآن الكريم، كما يشير إليه قوله تعالى: (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِى لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ) («۳»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۵۳

وهناك العشرات من الآيات التى تشير إلى هذا النهج فى القرآن، وأنّه من أهمّ خواص منهاج السماء والكتب النازلة على الأنبياء، وأنّه الغاية لجملة من الأحكام فى الشريعة، ويشير إليه قوله تعالى: (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ* لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ) («۱»).

وقوله تعالى: (وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) («۲»).

والذكر اسم للنبىّ صلى الله عليه و آله وللقرآن الكريم أيضاً، كما فى قوله تعالى: (قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً* رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ) («۳»).

وقوله تعالى: (ذَ لِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ) («۴»).

وقوله تعالى: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) («۵»).

وقوله تعالى: (وَهذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ) («۶»).

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

وقوله تعالى: (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) («۷») فيه بيان لغاية القرآن، مع أنّ القرآن الكريم قد وصف بأوصاف عديدة، كالنور والهداية والحكمة، وغيرها، إلّاأنّه من أهمّ الأوصاف فيه (الذكر).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۵۴

ومادّة الذكر تشير إلى التذكّر لما هو موجود فى الأصل فى فطرة الإنسان، ومن ثمّ بيّن الهدف من رسالة الرسل فى قوله عليه السلام: «فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَ نْبِيَاءَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ العُقُولِ، وَيُرُوهُمْ آيَاتِ المَقْدِرَةِ» («۱»).

وإلى ذلك الإشارة فى قوله تعالى: (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) («۲»)، حيث تشير الآية إلى تطابق الفطرة مع أحكام الشريعة، وهذا التطابق فى الخطوط العامّة بمعنى قضاء الفطرة بذلك وإدراكها.

ثمّ إنّ فى منهج التذكير الذى هو من معانى المنهج السماوى والمنهج الوحيانى جملة من الخصائص:

الاولى: اعتماد التنبيه على البديهيّات (أىاعتماد الأدلّة الأقرب لإدراك البديهىّ للفطرة)، وهذا بخلاف خطاب الفلاسفة أو المتكلّمين، فإنّهم يعتمدون الأدلّة المتوغّلة فى النظريّة، ممّا يصاحبها الكثير من الإجمال والإبهام، وبالتالى عدم انجذاب عموم الناس إلى أساليبهم وخطابهم.

الثانية: إنّ اسلوب التفكير أبعد عن الخطأ والاشتباه من الأساليب التى تعتمد المنهج النظرىّ، فإنّ الأدلّة النظريّة كلّما ابتعدت عن البديهيّة أكثر وأكثر، دبّ وكبر احتمال الخطأ.

الثالثة: إنّ فى التذكير سهولة فى تحريك الفطرة، وذلك بسبب إثارة مرتكزات مغروزة فى الأصل فى فطرة وقوى الإنسان، وهذا بخلاف الخطاب النظرىّ

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۵۵

التجريدىّ، فإنّه أبعد عن انس الفطرة والفها.

الرابعة: إنّ فى التذكير موازنة بين قوى النفس والحيلولة بين طغيان بعضها على البعض الآخر، وهو شاكلة الفطرة فى أصل الخلقة، وهذا بخلاف المناهج النظريّة، فإنّها توجب الإفراط فى التركيز على قوّة الفكر أو بعض القوّة الإدراكيّة ممّا يتسبّب التغافل عن بقيّة القوى وعدم إحكام السيطرة أو الموازنة بينها وبين بقيّة القوى، من ثمّ يُمزج فى الخطاب القرآنىّ بين الجانب التعليمىّ والتربوىّ، كما فى قوله تعالى: (هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْاُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ) («۱»).

فجمع بين التلاوة والتزكية والتعليم، والتلاوة هى التعليم الابتدائى.

وكذا فى قوله تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ) («۲»)، فجمع بين الخطاب بالحكمة والوعظ الحسن الذى هو ترويض وتهذيب للقوى العمليّة فى النفس، بل للقوى الإدراكيّة أيضاً، وهذا ما يفتقد بوضوح فى خطاب المدارس البشريّة الاخرى.

وقد مرّ الصلة بين إقامة الصلاة وحصول الذكر والتذكّر، حيث أنّ فى إقامة الصلاة ترويض للقوى النفسانيّة والغرائز عن الجموح والطغيان، والذى يسبّب انطماس الفطرة ودفنها تحت ركام الهيئات الرذيلة، فيستعصى على الإنسان إدراك الحقائق والحقيقة لعجزه عن التذكّر، وهذا رباط خطير تشير إليه الآيات القرآنيّة فى ضعف وقصور إدراك كلّ إنسان بسبب الهيئات الرديّة الظلمانيّة التى تنتقش فى النفس، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: (وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۵۶

لَا يَعْلَمُونَ) («۱»).

وقوله تعالى: (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ* كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ) («۲»).

وقوله تعالى: (أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) («۳»)، وفى الآية إشارة إلى أنّ الطبع على القلب حصول حجاب على سمع القلب وبصيرة وإبصار القلوب، فتحصل غفلة عن التذكّر.

وقد صرّح بذلك فى قوله تعالى: (أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَايَسْمَعُونَ) («۴»).

وقوله تعالى: (ذلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوْا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَايَفْقَهُونَ) («۵»).

وغيرها من الآيات التى تشير إلى تأثّر إدراك الإنسان الفطرىّ بنتيجة الأعمال الرديّة التى يرتكبها، بل لا يقتصر هذا الأثر السلبىّ على الأعمال الرديّة، بل قد بُيّن فى الآيات أنّه ينجم عن الفعل الإدراكىّ الخاطئ للإنسان أيضاً الذى هو نحو من العمل العلمىّ الذى تمارسه النفس، كما فى قوله تعالى: (فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبلُ كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ) («۶»).

بل أنّ هناك إشارة هامّة اخرى فى الآيات إلى أنّ كمال التذكّر لا يحصل فى

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۵۷

فطرة الإنسان إلّابذكر مبدأ الوجود ومنبعه ومصدر الواقعيّة، فإذا جهل أكبر حقيقة وواقعيّة، ينجرّ ذلك إلى جهل جملة من جمود الفطرة، كما يشير إليه قوله تعالى:

(نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ) («۱»).

وينبّه على ذلك ما ذكر فى الأبحاث العقليّة من براهين الصدّيقين على وجوده تعالى انطلاقاً من التسليم بأصل الواقعيّة، وأنّ ذلك عين التسليم بالواقعيّة الأزليّة الأبديّة السرمديّة، إذ كلّ واقعيّة لا بدّ أن تستند إليها، وإلّا لفقدت واقعيّتها.

فالركون إلى أىّ واقعيّة ما، ينطوى على الركون إلى الواقعيّة الأزليّة، وقد ذكروا ذلك بصياغات وتقارير عديدة رشيقة فائقة لا تحتاج إلى مقدّمات نظريّة، بل تستند إلى أبده البديهيّات.

وعلى ضوء ذلك فتكون البيانات الوحيانيّة الواردة فى التوحيد وشؤون الالوهيّة ما هى إلّاتذكير بهذه البديهيّة على الإطلاق، والظريف اللطيف فى هذه البراهين أنّها تبيّن أنّ أوّل التصوّرات كما أنّ أوّل التصديقات هو البارى تعالى، لا ما قيل من أنّ أوّل التصوّرات مطلق الوجود أو الوجود المطلق، وأنّ أوّل التصديقات بطلان التناقض، وذلك لأنّ مطلق الوجود أو الوجود المطلق ينطوى فيه تصوّر الوجود الأزلىّ، وأمّا اجتماع النقيضين فيفترض فيهما التقييد فى الوجود والعدم، والتقييد فى كلا الطرفين يستند إلى الإطلاق فى الواقعيّة، فتكون الواقعيّة المطلقة سابقة عليهما.

أو لك أن تقول: إنّ صدق بطلان اجتماع النقيضين كقضيّة صادقة فى الأزل أن تستند إلى واقعيّة أزليّة مطلقة، فهيمنة تلك الواقعيّة المطلقة وإحاطتها وقيوميّتها

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۵۸

على كلّ شىء.

ثمّ لا يخفى الإشارة واللطيفة الموجودة فى تسمية النبىّ صلى الله عليه و آله بالذكر فى قوله تعالى: (قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً* رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ) («۱»)، فإنّ أوّل الذكر- كما مرّ- هو البارى تعالى، وثنّى بعد ذلك بالنبىّ صلى الله عليه و آله.

وفى «مرآة الأنوار» للفتونى: «أنّه قد ورد فى تأويل الذكر فى الآيات، بالقرآن» («۲»)، وقد مرّت الإشارة إلى تلك الآيات، ولا يخفى أنّ هذا المعنى أيضاً يشير إلى أنّ مهمّات علوم الفطرة كلّها مودعة فى القرآن الكريم، هذا وقال أيضاً:

«أنّه ورد تأويل الذكر بعلىّ عليه السلام أيضاً، وبالأئمّة من آل محمّد عليهم السلام» («۳»)، ولا يخفى أنّ هذا التسلسل فى مراتب الذكر بالبدءة به تعالى، ثمّ بالرسول صلى الله عليه و آله، ثمّ بالقرآن، وعلىّ، ثمّ بالأئمّة من ولده عليهم السلام.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۶۱

تكامل المعرفة الدينيّة بين النقد التاريخى وتقليد السلف

اشارة

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ

وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) («۱»)

قد جرى لغط شديد حول مفاد هذه الآية، وهى من اصول المناهج التى يجنّدها القرآن كمحكم من الآيات، وقد اتّخذ منها نبراساً فى كيفيّة التحرّى عن العقيدة، ودور السلف السابق فى تحديد المسار العقائدى، فهناك عدّة تفاسير لمفاد الآية:

تفسير أوّل للآية: التحريف الأموى لمعنى الآية ... ص: ۱۶۱

اشارة

وهذه الآية قد احتجّ بها أهل سنّة الجماعة والخلافة على عدم لزوم تحديد الموقف تجاه الصحابة، وما جرى منهم وما جرى بينهم، وأنّهم امّة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عمّا كانوا يعملون، فلن نُسْئَل عن أعمالهم، ولسنا مطالبين بتقييمها، ولا بتعيين الصائب منها من الخاطئ، ولا الحقّ منها والباطل.

والمتتبّع فى روايات أهل السنّة يجد أنّ تاريخ الروايات حافل عندهم على احتجاج بنى اميّة بدءاً من معاوية بن أبى سفيان، وأنّهم قد جنّدوا الرواة للاحتجاج

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۶۲

بهذه الآية على غلق باب مساءلة الولاة، وعدم مساءلتهم ومراقبتهم، وعدم محاسبتهم عمّا يفعلون، ولكى لا تقوم الرعيّة بردعهم عن المنكر السياسى والمالى والأخلاقى، فيتخلّص ولاة بنى اميّة بهذا التعريف لمفاد الآية عن مقاومة ومعارضة الناس لما يفعلون، ولئلّا تتفطّن الامّة لما جرى بين الصحابة كى لا يهتدوا إلى المسير الهادى لدى أهل البيت عليهم السلام.

مع أنّ اللفظ الوارد فى الآية (وَلَا تُسْئَلُونَ) ليس- بفتح التاء- أى‌ليس فيها نهى عن السؤال عمّا كانوا يعملون، وإنّما فيها نفى مسؤوليّتنا عن أعمالهم التى كانوا قد عملوها، ولو من باب (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) («۱»).

قواعد مسؤوليّة الموقف تجاه أعمال الامم ... ص: ۱۶۲

القاعدة الاولى ...: ص: ۱۶۲

مع أنّ هناك أصل عظيم مروىّ فى الحديث النبوى عند الفريقين، وهو قاعدة شريفة مهمّة، وهى قوله صلى الله عليه و آله: «من أحبّ عمل قوم اشرك معهم، ومن أحبّ شيئاً حشر معه» («۲»)، وهذه القاعدة الشريفة ربّما يتراءى منها

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۶۳

التضارب مع ظاهر الآية، حيث إنّ أعمال الآخرين يسأل الإنسان عنها من جهة المحبّة لها أو الكراهة والبراءة منها.

القاعدة الثانية ...: ص: ۱۶۳

بل أنّ هناك قاعدة دينيّة مهمّة تابعة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهى: «مطلوبيّة ورجحان حبّ المعروف على صعيد المحبّة القلبيّة ولزوم الكراهة والنفرة من المنكر على صعيد القلب، وموضوع المعروف والمنكر فى هذه المرتبة لا يختصّ بالمعروف والمنكر المعاصر لزمن المكلّف، بل يتّسع بوسع ما لروح الإنسان من افق فوق الزمان، أى‌على الإنسان المكلّف أن يحدّد موقفه تجاه كلّ معروف ومنكر وقع فى تاريخ وأدوار البشر منذ آدم إلى يومنا هذا، بل كذلك ما سيقع من أحداث أنبأ عنها القرآن أو السنّة المطهّرة، بل قد تستوسع هذه الدائرة إلى عوالم اخرى سابقة ولاحقة، فيحبّ الإنسان ما هو معروف بقلبه، ويكره وينفر ما هو منكر بقلبه، وبالتالى أعمال الامم التى قد خلت أو التى ستأتى نسأل عنها من جهة أفعال القلب من فعل المحبّة والتضامن والتولّى، أو فعل الكراهة والنفرة والتبرّى.

نعم، قد يقال بأنّ السؤال هنا منصبّ عن فعل المكلّف القلبى تجاه أعمال الآخرين، وليس مصبّ السؤال والمحاسبة هو نفس أعمال الآخرين، فيرتفع التنافى بين ظاهر الآية وهذه القواعد، وإلّا فالقرآن لم يفتأ فى السور القرآنيّة يستعرض أنباء وأخبار وأحوال وأعمال شؤون الامم السابقة منذ قابيل وهابيل

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۶۴

إلى نمرود وفرعون، فيستعرض سلسلة الصالحين، ويربّى على محبّتهم والتضامن معهم، والتحلّى بحليتهم، كما يستعرض الطواغيت والمتجبّرين ويندّد بهم، ويحذّر عن الاتّصاف بأوصافهم.

كما يوصى القرآن بالعبرة وبقراءة تاريخ الامم السابقة، كقوله تعالى: (أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) («۱»).

وقوله تعالى: (قُل سِيرُوا فِى الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) («۲»)، وغيرها من الآيات الواردة فى الحثّ على الاعتبار بتفتيش ما فى أحوال الامم.

القاعدة الثالثة ...: ص: ۱۶۴

وفى الحقيقة فإنّ التولّى والتبرّى توسّعه تعاليم القرآن الكريم إلى جميع الامم السابقة، ولا يختصّ بالامّة المعاصرة للإنسان، فتعاليم القرآن الكريم تؤكّد على المسؤوليّة الاجتماعيّة والعقيديّة الفكريّة، وعلى اتّخاذ الموقف من الفعل الاجتماعى إلى حدٍّ يجد القارئ للقرآن الكريم أنّ ترابط ونسيج الفعل الاجتماعى يتداعى تأثيره، ويتجاوز زمن وقوعه، ويمتدّ إلى أجيال وأزمنة لاحقة كحلقات مترابطة، وهذه من المعادلات العلميّة فى علم الاجتماع التى كشف عنها القرآن الكريم، فكيف يمكن أن يؤسّس مذهب الفرديّة والتمحور الذاتى من ظاهر هذه الآية الكريمة، مع أنّ تقرير ماهيّة الفعل الاجتماعى حقيقة مفروغ عنها فى تعاليم السور والآيات، وأنّ الأفعال فى الأزمة السابقة مؤثّرة فى البيئة الحاضرة والمستقبليّة كأمواج تتداعى منها مثيلاتها.

هذه الآية (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) تكرّر ورودها أيضاً فى نفس السورة فى رقم ۱۴۱، وسياق الآية

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۶۵

فى الموضع الأوّل بلحاظ الآيات التى قبلها فى بيان أنّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وبنيه كانوا مسلمين، وهى ملّة إبراهيم، وأنّهم كانوا على مقام عند اللّه.

ثمّ تبيّن الآيات التى بعدها أنّ أهل الكتاب يدعون الناس ليكونوا هوداً أو نصارى ليهتدوا، فيردّهم القرآن الكريم بأنّ ملّة إبراهيم الحنيف هى الأحرى بالاهتداء بها، وأنّ الأنبياء جميعهم على دين واحدٍ، لا فرق بين أحد منهم، وأنّها صبغة اللّه، وأنّهم يحاجّون المسلمين فى اللّه، مع أنّ نسبة الطرفين إلى اللّه واحدة (وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ) («۱»)، ثمّ تتابع الآيات أنّ أهل الكتاب يدّعون أنّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى، فتقابل الآية بين قولهم وقول اللّه، وأنّه قوله تعالى أحرى بالاتّباع وأحجّ، وأنّ أهل الكتاب يكتمون الحقيقة، وما تحمّلوا من شهادة عنده من قول اللّه فى العهدين السابقين بذلك، وأنّ اللّه ليس بغافل عن كتمانهم هذا.

ثمّ يأتى تكرار الآية، هذا وقد احتدمت الأقوال فى تفسير الآية الكريمة، لا سيّما وأنّ الآية تؤسّس قاعدة مهمّة فى منهج المعرفة، وقد صاغ الأمويّون لها معنى، ومن قبلهم ومن بعدهم لسدّ باب البحث والفحص عمّا جرى من حقائق الأحداث بين الصحابة، سواء فيما جرى بينهم أو فيما جرى فى عهد رسول اللّه منهم، أو فيما صدر منهم قبل الإسلام، وكذا فيما جرى بينهم عند وفاة رسول اللّه، واتّخذت هذه الصياغة فى معنى الآية شعاراً لقفل أىبحث عن حقائق عهد الإسلام الأوّل.

فيروى الدارقطنى فى سننه بسنده عن أبى الدرداء، قال: «أربع سمعتهنّ

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۶۶

عن رسول اللّه صلى الله عليه و سلم: لا تكفّروا أحداً من أهل قبلتى بذنب وإن عملوا الكبائر، وصلّوا خلف كلّ إمام، وجاهدوا- أو قال: قاتلوا-، ولا تقولوا فى أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ إلّا خيراً قولوا: (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ)» («۱»).

وروى الطبرانى فى «المعجم الكبير» بسنده عن أبى راشد، قال: «جاء رجال من أهل البصرة إلى عبيد بن عمير، فقالوا: إنّ إخوانك من أهل البصرة يسألونك عن علىّ وعثمان.

فقال: وما أقدمكم شىء غير هذا؟

قالوا: نعم.

قال: (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)» («۲»).

إلّاأنّ الذهبى علّق على حديث أبى الدرداء بقوله: «هذا باطل، ورواته تلفى هلكى» («۳»).

وفى «تفسير السمعانى» - بعدما ذكر تفسيراً سطحيّاً لمعنى الآية- قال: «وحكى عن بعض العلماء أنّه سئل عن ما وقع من الفتن بين علىّ ومعاوية وطلحة والزبير وعائشة ... فقرأ: (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ) ... الآية»، وهذا جواب حسن فى مثل هذا السؤال.

وروى ابن عساكر، قال: «أخبرنا أبو القاسم إسحاق بن إبراهيم بن أررة الفقيه، حدّثنا أبى، قال: حضرت أحمد بن حنبل وسأله رجل عمّا جرى بين علىّ

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۶۷

ومعاوية، فأعرض عنه، فقيل له: يا أبا عبداللّه، هو رجل من بنى هاشم، فأقبل عليه، فقال: اقرء: (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ)» («۱»).

وروى ابن كثير فى «البداية والنهاية»، قال: «وروى ابن عساكر عن أبى زرعة الرازى أنّه قال له رجل: إنّى ابغض معاوية.

فقال له: لِمَ؟

قال: لأنّه قاتل عليّاً.

فقال له أبو زرعة: ويحك! إنّ ربّ معاوية رحيم، وخصم معاوية خصم كريم، فايش دخولك أنت بينهما؟» («۲»).

وروى ابن أعثم فى كتاب «الفتوح»: «أنّ حرقوص سئل رجلًا من يتولّى من أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله، قال: أتولّى أولياء اللّه المؤمنين، أتولّى أبا بكر وعمر وعثمان ومقداداً وسلماناً وصهيباً وبلالًا وأسلاف المؤمنين.

قال: فمّمن تتبرّأ؟

قال: ما أتبرّأ من أحدٍ (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ) ... الآية» («۳»).

وقال آخر حول ما جرى بين الصحابة: «إن أمكن الكلام بينهم بعلم وعدل، وإلّا تكلّم بما يعلم من فضلهما ودينهما، وكان ما شجر بينهما وتنازعا فيه أمره إلى اللّه، ولهذا أوصوا بالإمساك عمّا شجر بينهم، لأنّا لا نسئل عن ذلك كما قال عمر بن عبدالعزيز، تلك دماء طهّر اللّه منها يدى فلا احبّ أن اخضّب بها لسانى،

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۶۸

وقال آخر: (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ) ... الآية» («۱»).

وقال البعض: إذا كان هناك خلاف بين الصحابة فكان حسن النيّة والإخلاص دائماً حاضرين.. وماذا جنى من محاكمتهم، ومن تكون حتّى تحاكمهم، وقد حذّرنا اللّه من ذلك إذ يقول فى موضعين من القرآن الكريم (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ) («... ۲»).

وقال أبو بكر الخلّال فى كتاب السنّة- بعدما أورد أقوالًا لجملة من الرواة فى حَظْر التعرّض لما جرى بين الصحابة، ولزوم الكفّ عمّا شجر بينهم-: «روى عن ابن حنبل أنّه استشهد بهذه الآية لذلك» («۳»).

والمتصفّح لكلماتهم حول ما جرى فى الصدر الأوّل من أحداث يرى لتمسّكهم بهذه الصياغة لمعنى الآية موارد كثيرة، وصيرورة هذا المعنى قاعدة منهجيّة.

ومحصّل هذا المعنى الذى ذهبوا إليه فى الآية هو: أنّ الامم الماضية لا يعيننا أى شأن منهم لأنّهم امم قد خلت ومضت وحسابهم على ربّهم، فلهم أعمالهم ولنا أعمالنا، وكأنّ المعنى فى هذه الآية هو أن يجعلوا قاعدة وهى: المسؤوليّة لكلّ عامل عن عمله لا عن أعمال الآخرين سبباً لعدم الاعتناء بشأن وأحوال الامم الماضية، لأنّنا غير مسؤولين وغير مطالبين بما كانوا يعملون، وكان ذلك مدعاة لأن لا يقاضى الإنسان بحكم على تلك الامم أو على ما شجر بينهم من اختلاف، ولكن أخذهم هذه النتيجة من معنى الآية تحريف بيّن، وذلك:

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۶۹

حثّ القرآن على تقصّى حقائق التاريخ

أوّلًا: إنّ القرآن الكريم لم يفتأ يقصّ على البشر أحوال الامم السابقة، الصالحة والطالحة، وما جرى من شؤونهم واختلافهم من عهد آدم، وما جرى بين هابيل وقابيل، وما جرى من الفراعنة وأصحاب الاخدود، وقوم عاد وثمود، وما كانوا عليه من شنيع الأفعال، فهذا دأب القرآن فى تقصّيى سجلّات الأفعال لتكون عبرة للبشر كى لا يقعوا مواقع الظالمين وأهل القبائح، وليتأسّوا بأهل الحقّ والصلاح، ويستقيموا كاستقامتهم، فكيف يتوهّم أنّ القرآن يدعو إلى عدم الاعتبار والاتّعاظ بالامم السابقة، بل‌ها هو قوله تعالى: (لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِاوْلِى الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) («۱»).

قوله تعالى: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا) («... ۲»).

وقوله تعالى: (تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِن أَنْبَائِهَا) («... ۳»).

وقوله تعالى- فى شأن أهل الكهف والذين اعتدوا عليهم-: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ) («... ۴»).

وقوله تعالى: (كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِن أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ) («... ۵»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۷۰

وقوله تعالى: (فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ) («۱»).

بل أنّ القرآن يدعو إلى تربية الأجيال وتحديثهم بعبر التاريخ والامم، كقوله تعالى: (فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) («۲»).

ثانياً- تاريخ صدر الإسلام مصدر من اصول معرفة الدين:

إنّ تاريخ الإسلام والأحداث التى جرت فيه بما فيه من سيرة الصحابة ومواقفهم وأفعالهم، وما جرى بينهم ليس تاريخاً بحتاً ولا حقباً تاريخيّة محضة، بل هو من تاريخ الأديان المرتبط بأدلّة ودلائل ذلك الدين، وليحصل التميز بين ما هو صافى الدين، وبين ما استحدث من إحداث تبديل فيه.

وبعبارة اخرى كيف يتسنّى لمن يريد البحث فى صحّة المذهب الذى يعتنقه، والنهج الذى يسلكه ليعذر ما بينه وبين ربّه، أن لا يتصفّح حقيقة أحداث تاريخ الإسلام، بل كيف يتعرّف الإنسان على دين وينتمى إليه لا يعرف تاريخه، وفى سورة آل عمران فى الآيات التى تتعرّض إلى واقعة وغزوة احد والاحُديّين- وهم من شارك فى غزوّة احد- وكذلك آيات سورة الأنفال التى تتعرّض إلى البدريّين، قد تضمّنت الذمّ لطوائف منهم بشدّة، فضلًا عن الآيات التى تتعرّض إلى غزوة حنين فى سورة البراءة، وغزوة الأحزاب فى سورة الأحزاب، وغيرها من السور، كسورة المنافقين وذيل سورة الجمعة وسورة التحريم التى لا تفتأ تعلّم المسلمين فى قراءتهم اليوميّة للقرآن على تمحيص حال الصحابة والتديّن بمنهج التمحيص، وتعبّدهم على ذمّ من اتى منهم بالموبقات، فتلاوة هذه السور

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۷۱

والآيات والإيمان بها دين من محكمات الكتاب العزيز، مضافاً إلى الأحاديث النبويّة الواردة بنفس هذا المضمون التى لا تحصى كثرة، كحديث الحوض، وحديث الناكثين والقاسطين والمارقين، وحديث اغيلمة قريش وغيرها.

التاريخ هويّة الامم

ثالثاً: إنّ الحقّ والواقع الأصيل يعتزّ به ومحلّ فخر واعتزاز ولا يتنكّر منه، ممّن له هويّة ممتدّة وضاربة بجذورها فى أعماق التاريخ، كيف يتخوّف من ذلك التاريخ المجيد، وإنّما الذى يهرب من حقائق التاريخ هو صاحب الهويّة المسبوكة بوضع السياسات المرتسمة فى افق السراب، وأى امّة أصيلة تتنكّر من تاريخها الذى هو هويّتها وأصلها وحسبها ونسب انتمائها، وإنّما يتنكّر من تاريخه من يتخوّف من بقاع مظلمة فيه ليلتصق بها، وينتمى إليها، وأمّا ذو التاريخ المنير الوضّاء فكيف لا يحب الانشداد إلى ذلك الماضى التليد وأثيل العزّ، فلا يمكن تصوّر صاحب مقالة حقّ ومنهج واضح يتأبّى من التعرّف على تاريخ مذهبه ودينه، بل كيف يتسنّى له التعرّف على حقيقة دينه ومذهبه من دون وقوفه على بدء الابتداء والولادة، وكيف له أن يوثّق ويعدّل من حمل تراث الدين ويصدّقهم ويركن

إليهم ويؤمنهم على دينه وهو لا يعرف حالهم ولا سيرتهم ولا موقفهم ومسالكهم.

مسؤوليّة الموقف تجاه أحداث التاريخ

رابعاً: تطابق قواعد عدّة فى مسؤوليّة الموقف

إنّه من القواعد الدينيّة التى لا غبار عليها المرويّة عن نبيّ اللَّه صلى الله عليه و آله أنّ من أحبّ عمل قوم اشرك معهم، ومن أحبّ حجراً حشر معه.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۷۲

وقد روى هذا الحديث النبوىّ بألفاظ متعدّدة بطرق مستفيضة عند الفريقين، وعلى ضوء ذلك فمعرفة أحوال التاريخ، وما جرى لأصحاب تلك الحقبة أمر بالغ الخطورة بحسب هذه القاعدة؛ لأنّ أعمالهم ومصيرهم يؤثّر على نمط أعمال الإنسان ومصيره إذا أحبّ عملهم وتولّاهم أو تبرأ منهم ومن عملهم، وتطابق هذه القاعدة قاعدة اخرى أصيلة، وهى وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بحسب مرتبة القلب، فإنّ ما جرى فى الامم السالفة من عدل فهو معروف يجب أن يحبّه الإنسان بحسب قلبه ويأمر بانتهاجه، ولذلك ما جرى من ظلم وقبح فيجب أن ينكره المسلم بقلبه، وينهى عن اتّباعه، إذ قاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لها مراتب بحسب القلب واللسان واليد، وهذه القاعدة بحسب المرتبة الاولى لا تختصّ بالأحياء، بل تعمّ الماضين، بل وتشمل القادمين فى مستقبل الدهر. وهذا بعدٌ بديع فى خلقة الإنسان حيث إنّ الإنسان فى مرتبة روحه وقلبه يشرف على الدهور والأزمنة، بل وعلى العوالم التى هى أوسع من الدنيا، ألا ترى كيف يحكى لنا القرآن الكريم عمّا جرى بين الملائكة وبين اللَّه فى استخلاف آدم ليعطينا العبرة، وهى أنّ الحكمة ألا يعترض المخلوق على أفعال اللَّه تعالى إذا لم تتّضح له حكمة تلك الأفعال، وأنّ دين اللَّه لا يصاب بالعقول، كما يبيّن لنا القرآن الكريم صفات أهل النار فى المحشر، بل وفى جهنّم، ممّا هم عليه من رذائل يتواجهون بها فيما بينهم فى تلك الدار ممّا يعطى عبرة للإنسان وهو فى دار الدنيا.

وفى صحيحة الريّان بن شبيب، قال: «دخلت على الرضا عليه السلام فى أوّل يوم من المحرّم: ... يابن شبيب، إن سرّك أن تسكن الغرف المبنيّة فى الجنّة مع النبيّ صلى الله عليه و آله

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۷۳

فالعن قتلة الحسين عليه السلام.

يابن شبيب، إن سرّك أن يكون لك من الثواب مثل من استشهد مع الحسين بن علىّ عليه السلام فقل متى ذكرته: ليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً.

يابن شبيب، إن سرّك أن تكون معنا فى الدرجات العلى من الجنان، فاحزن لحزننا، وافرح لفرحنا، وعليك بولايتنا، فلو أنّ رجلًا أحبّ حجراً لحشره اللَّه عزّ وجلّ معه يوم القيامة» («۱»).

وروى الطبرى فى «بشارة المصطفى»: بسنده عن عطيّة العوفى، عن جابر بن عبداللَّه الأنصارى: «قال: قال فى حديث: يا عطيّة، سمعت حبيبى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقول: من أحبّ قوماً حشر معهم، ومن أحبّ عمل قوم اشرك فى عملهم» («۲»).

وروى الشيخ الطوسى فى «الأمالى»: بسنده إلى موسى بن عبداللَّه بن الحسن، عن أبيه، عن آبائه، قال: «أتى رجل النبيّ صلى الله عليه و آله فقال: يا رسول اللَّه، رجل يحبّ من يصلّى ولا يصلّى إلّاالفريضة، ويحبّ أن يتصدّق ولا يتصدّق إلّابالواجب، ويحبّ أن يصوم ولا يصوم إلّاشهر رمضان. فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: المرء مع مَن أحبّ» («۳»).

وروى أيضاً بسنده إلى عبداللَّه بن الصامت ابن أخى أبى ذرّ، قال: «حدّثنى أبو ذرّ، وكان صِغْوهُ وانقطاعه إلى علىّ عليه السلام وأهل هذا البيت، قال: قلت: يا نبيّ اللَّه، إنّى احبّ أقواماً ما أبلغ أعمالهم.

قال: فقال: يا أبا ذرّ، المرء مع من أحبّ، وله ما اكتسب.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۷۴

قلت: فإنّى احبّ اللَّه ورسوله وأهل بيت نبيّه.

قال: فإنّك مع من أحببت» («۱»).

وروى الشيخ المفيد قريباً منه فى أماليه («۲»).

وروى ابن حنبل فى مسنده- مسند الكوفيّين- عن الحسن بن موسى، قال:

«قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: المرء مع من أحبّ» («۳»).

وروى فى ذلك ما يقرب من اثنى عشر رواية بطرق متعدّدة.

وروى الترمذى فى مسانيد مختلفة متعدّدة فى سننه عن أنس بن مالك وعن آخرين، قال رسول اللَّه: «المرء مع من أحبّ يوم القيامة».

ورواه بطريق آخر عن صفوان بن عسّال («۴»).

وروى هذا الحديث عنه صلى الله عليه و آله بلفظ: «المرء مع مَن أحبّ» كلّ من أبى داود فى سننه، ومسلم فى صحيحه (عن عبداللَّه بن مسعود)، والبخارى («۵») (عن عبداللَّه

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۷۵

ابن مسعود).

وروى الحاكم فى مستدركه: عنه صلى الله عليه و آله، قال: «من أحبّ قوماً حُشر معهم» («۱»)، ذكر أسماء أهل الصُّفّة رضوان اللَّه عليهم.

وأخرج الهيثمى فى «مجمع الزوائد»: عن أبى قُرصافة، قال: «قال صلى الله عليه و آله:

لا يحبّ رجل قوماً إلّاحشر معهم» («۲»)، وأخرجه عن طرق اخرى متعدّدة فى أبواب فى الالفة- باب المرء مع من أحبّ.

وأخرج المتّقى الهندى فى «كنز العمّال»، قال: «سأل رجل من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عن الساعة؟ فقال: ما أعددت لها؟

قال: ما أعددت لها كبيراً، إلّاأنّى احبّ اللَّه ورسوله.

فقال: أنت مع من أحببت» («۳»)، وذكر جملة من الروايات بهذا المضمون («۴»).

وأخرج أيضاً عن الخطيب، عن جابر، قال: «قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: من أحبّ قوماً علىأعمالهم حشر يومالقيامة فىزمرتهم فحوسببحسابهم، وإن لم يعمل أعمالهم» («۵»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۷۶

وأخرج ابن كثير فى تفسيره، وقال فى الحديث المتّفق عليه، بل المتواتر من طرق صحيحة، قال: «قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله:

من أحبّ قوماً فهو منهم- وفى رواية:

حشر معهم-» («۱»)، وذكر ذلك تحت عنوان ما أعدّه اللَّه للمهاجرين والأنصار.

وأخرج ابن العربى فى تفسيره، قال: «قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: المرء مع من أحبّ، حتّى لو أحبّ حجراً حُشِر معه» («۲»).

وروى المناوى قريب منه فى «فيض القدير» («۳»).

وأخرج الطبرانى فى «مسند الشاميّين»: عن أبى ذرّ، عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، قال: «إنّى احبّ قوماً لا أبلغ عملهم؟

قال: أنت مع من أحببت» («۴»).

ومن الواضح أنّ الإطلاق فى لفظ الروايات شامل لكلّ قوم، وإن لم يعاصرهم المرء، ويمتدّ هذا الشمول إلى أعماق التاريخ منذ صدر البشريّة، بل يتّسع ليشمل ما ستأتى من امم وأقوام لاحقة انبئ عن أعمالهم وأحوالهم فى لسان الوحى، ومن ثمّ يستخلص من هذه القاعدة الشريفة التى أكّد عليها القرآن قبل السنّة النبويّة.

أوّلًا: إنّ الإنسان مسؤول عن ميوله النفسيّة وهواه وموقفه الفكرى والنفسانى تجاه الامم السابقة واللاحقة، وأنّ تضامنه أو قطيعته هى من فعله وعمله المتشاكل مع مواقف اولئك أو المتباين معهم فى الموقف، وهذا هو معنى التولّى والتبرّى،

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۷۷

أو الولاء والبراءة، فإنّها منبع ومصهر تربوى للنفس الإنسانيّة أمام مشهد البشريّة.

ثانياً: لزوم الفحص والتنقيب عن كلّ فئة من الفئات، لا سيّما إذا كان لها دورٌ حسّاس ومؤثّر فى منعطفات الدّين- أو الأديان- أو تاريخ البشريّة، وضرورة هذا الفحص والتنقيب هى غير راجعة إلى البُعد الشخصى لتلك الشخصيّات والفئات، بل راجعة إلى جانب عمومى فيها وهو جانب التأثّر واتّخاذها نموذجاً أو قوالب مقبولة.

وضرورة هذا الفحص راجعة إلى تكبّل الإنسان وزر أو نتاج تلك الفئات بلا أن ينقص من نصيبهم شىء، وهذه التبعيّة والتبعات تفرض على الإنسان أن يتحرّى حال الفئات واتّجاهاتهم ومناهجهم لئلّا يقع فى مسؤوليّة ما وقعوا فيه، فيما لو كانوا من أصحاب الردى، أو يشاركهم فى النهج كى يغنم ويتكامل ويفوز فيما لو كانوا من أصحاب الهدى.

ثالثاً: إنّ هذه القاعدة فى الحقيقة تترجم حكمتها وفلسفتها أنّها تبيّن مدى التأثير التربوى الحاصل من موقف الإنسان تجاه الفئات والنماذج المختلفة الماضية فى البشريّة، فإنّ عامل المحبّة مؤثّر جذّاب يضفى بتأثيره وتغييره على الإنسان، ويطبّعه بشاكلة تلك الفئات فكراً ومنهجاً، وسلوكاً وأخلاقاً وسيرةً، وغيرها من الجهات، فمن ثمّ كان باب المحبّة باب بالغ الأهميّة يفتح للإنسان من صحائف الأعمال ما يتجاوز حدود عمره القصير إلى امتدادات زمنيّة شاسعة، وكأنّ السرّ فى ذلك أن تأثّر الإنسان بتلك المناهج يكون عامل بقاء واستمرار لتلك المناهج، فمن ثمّ يثاب بثوابهم، سواء كانت حسنات أو أوزار، بلا أن ينقص من ثوابهم شىء.

ومن ثمّ كانت المحبّة من أكبر ساحات عمل الإنسان، وأعظم مجالًا وامتداداً

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۷۸

من أفعال البدن، بل لا قياس بين الجانبين، إذ بعامل المحبّة يشرف الإنسان على كلّ حقب الأزمان والأجيال والأنسال البشريّة، ويعيش فى كلّ بيئاتهم وطوال مددهم الزمنيّة، وهذه حياة أطول، وعيشة معمّرة، والحساب فيها أشدّ، والخطورة أعظم، وفلسفة كلّ ذلك هو ما مرّ من أنّ المناهج والأفكار والسِّير عامل بقائها هو المحبّة، فمن ثمّ تكون المحبّة تحمل هذه المسؤوليّة والعبء.

رابعاً: إنّ مفاد قوله الشريف صلى الله عليه و آله: «المرء مع من أحبّ» هو الأمر بمحبّة الصالحين والمهديّين، والذى يعبّر عنه بالتولّى، وبكراهة ومباينة الطالحين والضالّين، وهو الذى يعبّر عنه بالتبرّى، ففى الحديث بشارة ونذارة، أمرٌ ونهى، حثٌّ وتحذير، حثٌّ على محبّة الفريق الأوّل ليغنم الإنسان ثواباً لثوابه، وحشراً فى صعيد موقف حشرهم، وتحذير من محبّة الفريق الثانى لينجو الإنسان من أن يكتب عليه مثل أوزارهم، ولكى ينجو الإنسان من المصير الذى يلاقى اولئك، فلا بدّ أن يوجد الهوّة النفسيّة بينه وبين الفريق الثانى، وهو الذى يعبّر عنه بالتبرّى والكراهة، فهذه الكراهة والتبرّى ليس فلسفته تربية أحقاد وإحن وإشعال ضغينة أو سخيمة، بل فلسفة ذلك هو أن لا يتأثّر الإنسان بمنهج اولئك ونمط أفعالهم، وأن لا يتبع شاكلتهم؛ لأنّ المرء مع من أحبّ نهجاً وفكراً وسلوكاً واعتقاداً، فكم هى خطيرة المحبّة فى صياغة ذات الإنسان والأجيال فكراً وسلوكاً ونهجاً، وهذه هى فلسفة التبرّى، فليست هى ثقافة كراهية وأحقاد وعقليّة ظلاميّة، بل هى ذات فلسفة وحكم وغايات تربويّة خطيرة وتعليميّة عميقة.

القاعدة الرابعة ...: ص: ۱۷۸

ومن ثمّ نعرف تطابق هذه القاعدة مع قاعدة رابعة وهى التحسين والتقبيح التى تحكم بها فطرة العقل البشرى، ومن معانى التحسين المحبّة والمدح والانجذاب والتفاعل مع الملائم، كما أنّ من معانى التقبيح

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۷۹

الكراهة والذمّ ونفرة الطبع عن غير الملائم والمباينة مع القبيح، فالعقل هو بنفسه يقوم بنشاطين وبفعلين: بالتقرّب والتقريب لِما هو كمال وحَسَن وبالإبعاد والإقصاء لِما هو نقص وقبيح وسيء، وهذا هو المعنى العقلى للتولّى والتبرّى.

وهذه الدعوى الفطريّة من العقل فلسفتها جذب الإنسان من الكمال وإبعاده عن التردّى فى الحضيض.

القاعدة الخامسة ...: ص: ۱۷۹

وهناك قاعدة اخرى شرعيّة قرآنيّة ونبويّة، وهى الصلوات فى مقابل اللعن، كما فى قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً) («۱»).

ثمّ يتبعه قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً) («۲»).

فكما أمر تعالى بالصلاة على النبىّ صلى الله عليه و آله أمر بلعن الذين يؤذون اللَّه ورسوله، فهذه ليست ثقافة أحقاد وكراهية يربّى فيها القرآن المسلمين عليها، بل هى مدرسة تربويّة وتعليميّة.

القاعدة السادسة ...: ص: ۱۷۹

وهناك قاعدة شرعيّة اخرى تصبّ فى نفس المصبّ، وهى ما جاء فى الحديث النبوى: «لا يكمل إيمان عبد حتّى يحبّ فى اللَّه، ويبغض فى اللَّه» وعلى هذه القاعدة يربّى القرآن أجيال المسلمين يحبّب إليهم الفئات والجماعات الصالحة بذكره لهم بجميل النعوت وبديع الصفات ومحاسن الأفعال، كما أنّه يكره لهم الجماعات الطالحة الغاوية، بذكره لتلك الجماعات

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۸۰

بشين الصفات وسيء الأفعال وقبائح النعوت، فالمدح تحبيب وتزيين وتولية، والذمّ تكريه وتبغيض وتبرّى، كما قال تعالى: (وَلكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ) («۱»).

فالتحبيب أو زرع الكراهة أو بذر المحبّة اسلوب تربوى بالغ التأثير، وهو منهاج التزكية القرآنيّة، كما أنّه اسلوب تعليمى نافذ البيان والتبيين.

وممّا روى فى مضمون هذه القاعدة ما رواه البيهقى فى سننه عن عبداللَّه بن مسعود، قال: «قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: يا عبداللَّه، أىعرى الإسلام أوثق؟

قال: قلت: اللَّه ورسوله أعلم.

قال: الولاية فى اللَّه، والحبّ فى اللَّه، والبغض فى اللَّه».

وروى ذلك من حديث البراء وابن عبّاس وعائشة («۲»).

ورواه الطبرانى فى «المعجم الصغير» عن عبداللَّه بن مسعود أيضاً («۳»).

وهذا النهج يؤكّده القرآن الكريم، ففى ذيل قوله تعالى: (قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِن قَبْلِى بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) («۴»).

روى سماعة، قال: «سمعت أبا عبداللَّه عليه السلام يقول ...: وقد عَلِمَ أنّ هؤلاء لم يقتلوا، ولكن قد كان هواهم مع الذين قتلوا، فسمّاهم اللَّه قاتلين لمتابعة هواهم ورضاهم بذلك» («۵»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۸۱

وكذلك فى قوله تعالى: (فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ) («۱»).

ففى «نهج البلاغة» قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«أَيُّها النّاسُ، إِنَّما يَجْمَعُ النّاسَ الرِّضى والسُّخْطُ. وَإِنَّما عَقَرَ ناقَةَ ثَمُودَ رَجُلٌ واحِدٌ فَعَمَّهُمُ اللَّهُ بالْعَذابِ لَمّا عَمُّوهُ بالرِّضى، فَقالَ سُبْحانَهُ: (فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ)، فَما كانَ إِلَّا أَنْ خارَتْ أَرْضُهُمْ بِالْخَسْفَةِ خُوارَ السِّكَّةِ الْمُحْماةِ فى الْأَرْض الْخَوّارَةِ» («۲»).

ورواه الثقفى فى «الغارات» («۳»).

وكقوله تعالى فى جملة الآيات الواردة فى سورة البقرة وآل عمران والنساء والأعراف، وغيرها من السور الواردة فى توبيخ القرآن لليهود المعاصرين للنبىّ صلى الله عليه و آله بما فعل أسلافهم فى القرون السابقة من قتل الأنبياء، وعبادة العجل، والاعتداء بالصيد فى يوم السبت ومماطلتهم فى الطاعة، ومشاكستهم فى اتّباع الأوامر، ومن طلبهم رؤية اللَّه جهرة وغيرها من أفعال أسلافهم، فهذه العشرات من الآيات الموجّه فيها الخطاب، وعذل القرآن لليهود والمعاصرين لرسول اللَّه بفعل أسلافهم- وذمّه لهم بما فعلت الامم الماضية منهم- الوجه فيه والمسوّغ لهذا الخطاب وهذه المحاسبة هو رضى اليهود بأفعال الامم الماضية منهم.

وهذا هو مفاد ما روى فى «تفسير العسكرى عليه السلام» عنه عليه السلام عن الباقر عليه السلام، قال فى حديث: «أنّ علىّ بن الحسين قال له بعض من فى مجلسه: يابن رسول اللَّه، كيف يعاقب اللَّه ويوبّخ هؤلاء الأخلاف على قبائح أتى بها أسلافهم وهو يقول: (وَلَا تَزِرُ

وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) («۱»)؟

فقال زين العابدين عليه السلام: إنّ القرآن نزل بلغة العرب، فهو يخاطب فيه أهل اللسان بلغتهم، يقول الرجل التميمى وقد أغار قومه على بلد وقتلوا مَن فيه: قد أغرتم على بلد كذا وكذا، وفعلتم كذا وكذا، ويقول العربى أيضاً: نحن فعلنا ببنى فلان، ونحن سبينا آل فلان، ونحن خرّبنا بلد كذا، لا يريد أنّهم باشروا ذلك، ولكن يريد هؤلاء بالعذل وهؤلاء بالافتخار أنّ قومهم فعلوا كذا وكذا.

وقول اللَّه عزّ وجلّ فى هذه الآيات إنّما هو توبيخ لأسلافهم وتوبيخ العذل على هؤلاء الموجودين؛ لأنّ ذلك هو اللغة التى بها نزل القرآن، ولأنّ هؤلاء الأخلاف أيضاً راضون بما فعل أسلافهم، مصوّبون ذلك لهم، فجاز أن يقال: أنتم فعلتم إذ رضيتم قبيح فعلهم» («۲»).

القاعدة السابعة ...: ص: ۱۸۲

التولّى والتبرّى، والتضامن والإدانة، وهاتان القاعدتان ملحوظتان بوضوح فى نهج القرآن الكريم، وذلك من خلال استعراضه لتاريخ وأحوال الامم الماضية، حيث استعرض القرآن الكريم جملة الأحداث المهمّة من أوّل تاريخ البشريّة، كالذى جرى بين هابيل وقابيل وبين نوح والمؤمنين الذين معه، وبين قومه وبين الأنبياء السابقين وأقوامهم، وأصحاب الاخدود، ويوسف وإخوته إلى عصر الرسول صلى الله عليه و آله، بل تنبّأ بملاحم مستقبليّة أيضاً هامّة فى مصير البشريّة، وفى كلّ تلك التفاصيل التى يستعرضها يدأب القرآن على تمييز جانب الحقّ من جانب الباطل، والفصل بين المحقّ والمبطل، وكذلك التفرقة بين

المصلح والمفسد، وبين المظلوم والظالم، وهو يكرّس فى ذلك التضامن مع الفريق الأوّل، والتأييد له، ولنهجه، والإدانة والشجب والكراهة للفريق الثانى، وهو ما يعرف بالصلوات والتسليم فى مقابل اللعن، وهذا نمط تربوى لتعيش الأجيال على نهج السداد وإبعادهم عن نهج الضلال، بل إنّ المستغرق والمتدبّر لأساليب العرض القرآنى لتلك الأحداث يشاهد بوضوح تشويق القرآن وتحبيبه للفريق الأوّل بينما يشاهد تقريعه وتنفيره من الفريق الثانى، وهو ما يُعرف بالتولّى والتبرّى والتسليم.

فإنّ قوله تعالى: (لَاتَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) («... ۱») لا يقتصر فى تطبيقه على من حادد اللَّه فى زمن رسول اللَّه أو الزمن الراهن، بل هو شامل لقابيل ولعتاة أعداء الأنبياء، كفرعون ونمرود وأصحاب تبّع وأصحاب الرّس وقوم

عاد وثمود وقارون وهامان وأبى جهل والحكم بن العاص ومروان بن الحكم طريدا رسول اللّه، وكذلك قاتلى عترة الرسول صلى الله عليه و آله، وبعبارة اخرى: أنّ هذه الآية عامّة بعموم تاريخ الإنسان، ماضيها ومستقبلها وراهنها، وتبيّن للفرد المسلم أنّه لا ينحصر اهتمامه ولا يعيش فى نفس عصره فقط، بل أنّ الإنسانيّة أجمع بكافّة قرونها كأنّها تعيش فى حقبة واحدة تتفاعل اتّجاهاتها وتتجاذب فيما بين بعضها البعض، وهذه هى حقيقة الهويّة الإنسانيّة، فإنّها ليست مكوّنة من خصوص العصر الراهن الذى تعيشه، بل من مجموع تراكمات تاريخيّة تتفاعل وتفرز الهويّة الراهنة للإنسان، بل إنّ النظرة المستقبليّة هى الاخرى من مكوّنات الهويّة الراهنة.

ومن ثمّ نرى القرآن الكريم يبيّن أنّ الأنبياء السابقين قد بشّروا امممهم وأقوامهم

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۸۴

بخاتم المرسلين كما بشّروا بالآخرة، فلا يقرّ القرآن بالفواصل والحواجر التاريخيّة، بل هناك عولمة واحدة عبر كلّ الأزمان وليست العولمة هى بتساقط الفواصل الجغرافيّة المكانيّة، بل نرى فى تعاليم القرآن المعرفيّة وسننه فى اصول التربية الاجتماعيّة أنّه يسقط الفواصل فى الجغرافية الزمنيّة، فالإنسان لا يعيش حبيس عصره، بل هو منفتح على كلّ الأدوار الزمنيّة وكلّ الثقافات، وعلى وتيرة تفاعل وتأثير وتأثّر، ومن ثمّ لا نجد فى القرآن الكريم تكريساً لهذه الفواصل كما لا يعترف بهذه الجدر، بل يرى الحقب الزمانيّة منفتحة على بعضها البعض.

وهذا ما سيتجسّد عيناً فى عرصات المحشر، حيث ينادى القرآن الكريم:

(قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ* لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ) («۱»).

فالبشريّة بأفكارها ومدارسها واتّجاهاتها تعيش مشهداً واحداً روحيّاً وعقليّاً وثقافيّاً، تلمّ بالألوان وتلوّنات كثيرة، وليس بإمكان فرد أو حقبة زمنيّة أن تنأى بفكرها وعقلها وروحها عن بقيّة الحقب، إذ البيئة هذه لا تعرف الحدود الزمانيّة، وإن اختلفت الاتّجاهات والانتماءات والأهواء؛ وذلك لأنّ الإنسان لا يعيش ببدنه فقط المحبوس فى حقبة زمنيّة، بل من مكوّنات الإنسان الروح والعقل وقوّة الفكر والقلب بما يحمل من أحاسيس وعواطف وضمير، فإنّ هذه القوى والمكوّنات كما هى مقرّرة فى البحث العقلى موجودة فى افق ما وراء الزمان، ويهيمن على كلّ الأزمنة، أى‌مجرّدة عن هذه المادّة الغليظة الأرضيّة.

ومن ثمّ شأن أفعالها وأحكام أفعالها كما هو الحال فى أحكام المعارف لا يتقيّد بالزمان، فالتبرّى والقطيعة، والشجب والإدانة، لا يختصّ برؤوس الظلم الذين

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۸۵

يعاصرهم الإنسان، بل يعمّ رؤوس الظلم من بداية الخلقة إلى نهايتها، فالموقف واحد متّصل، كما فى قوله تعالى: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ) («۱»).

وهذه الآية فى سياق قوله تعالى فى أوائل السورة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ)... («۲»).

والقطيعة فى الآية الكريمة مع أعداء اللّه لا تختصّ بمن هو معاصر راهن، بل تعمّ كلّ من انطبق عليه هذا الوصف فى غابر التاريخ وفى مستقبله، فليس لمسلم ولا مؤمن أن يتّخذ قابيل وقارون ولا فرعون ولا نمرود قدوة ينتهج مسارهم أو نموذجاً يستأنس بسلوكيّاتهم، وهذه أحد حِكم القطيعة والتبرّى والمجافاة، والسبب فى هذا التعميم علاوة على عموم دلالة الآيات موضوعاً الواردة فى التبرّى أنّ مشاهد الحقب التاريخيّة وأشخاص الإنسانيّة شاخصة فى المنظر العقلى والذهنى والفكرى للبشريّة، وصوره حاضرة فى البصر الإنسانى غير غائبة، وإن غابت أبدانهم، إلّاأنّ أفعالهم وصفاتهم ماثلة للعيان فى النفس البشريّة الراهنة.

وهذا لا يقتصر على من مضى، بل يعمّ من هو آت، ولا يقتصر هذا التقريب على هاتين الآيتين من آيات التبرّى والقطيعة والمجانبة

لروّاد الضلال، بل هو فى جملة الآيات العديدة فى هذا المضمار.

وكذلك فى آيات التولّى والتضامن، والمساندة والدعم، والتأييد والاحتفاء،

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۸۶

والحفل برموز الهداية فى التاريخ، وروّاد الصلاح والعدل، فإنّ التركيز على هذه النماذج العالية ذو مغزى تربوى ومعرفى بالغ التأثير فى تربية الأجيال البشريّة على هذه القيم النبيلة وتجنيبهم الانزلاق فى حضيض الرذائل وإبعادهم عن الهوى فى سحيق الباطل، فلا يتوهّم أنّ التبرّى والقطيعة والمجانبة هى ثقافة كراهية وتكريس أحقاد وإحَن. وبعدما تبيّن بطلان المعنى الذى فسّرت به الآية فى نفسه لشواهد وقواعد دينيّة وعقليّة عديدة، نفحص حينئذٍ عن المعنى السديد لها.

تفسير ثانٍ للآية: بطلان التقليد وضرورة الفحص والتحقيق ... ص: ۱۸۶

اشارة

وتحقيق معنى الآية أنّه من ملاحظة سياق الآيات يظهر بوضوح أنّها فى صدد جواب جدال أهل الكتاب مع النبىّ صلى الله عليه و آله والمسلمين، وإصرارهم على ماهم عليه كما فى قوله تعالى فى الآية المتقدّمة عليها: (مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِن خَيْرٍ مِن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) («۱») (مَا نَنسَخْ مِن آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ* أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ) («۲»).

وفى هذه الآيات إشارة واضحة إلى نزاع أهل الكتاب وإصرارهم على بقاء شريعتهم وعدم نسفها وما هم عليه وحسدهم أن تنزل شريعة على النبىّ صلى الله عليه و آله للمسلمين، وإجابة منه تعالى أنّ النسخ سنّة إلهيّة فى الشرائع، لأنّ اللّه تعالى له ملك السموات والأرض وهو ولىّ كلّ شىء، فأىّ مجال لإنكار أهل الكتاب

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۸۷

الشريعة الجديدة، ثمّ تتابع الآيات: (وَدَّ كَثِيرٌ مِن أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِن عِندِ أَنفُسِهِم مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ... وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ* وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَىْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ) («۱»).

وفى هذه الآيات تخطئة لأهل الكتاب فى حصرهم الهداية بشريعتهم، وذلك تخطئة لهم فى التخاصم الدائر بينهم، وهذا ببيان قاعدة فى النجاة، وهى التسليم للّه تعالى مع الإحسان، أى أنّ صراط الهداية واحد، وهو الدين الواحد الذى اتّفقت عليه وبعثت به جميع الأنبياء والمرسلين، وهو التسليم للّه تعالى والعمل بالمحاسن، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم.

ثمّ تتابع الآيات فى قوله تعالى: (وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ) («۲»).

ثمّ تستعرض الآيات ملّة إبراهيم ودينه، وأنّه كان دين الإسلام، وكذلك إسماعيل، وأنّه وصيّة إبراهيم لبنيه، كما أنّ دين الإسلام وصيّة يعقوب لبنيه، ثمّ قوله تعالى: (أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ* تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۸۸

يَعْمَلُونَ* وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) («۱»).

ثمّ تتابع الآيات التأكيد على ضرورة وحدة الإيمان بكلّ ما انزل على الأنبياء السابقين وجميع النبيّين وعدم التفرقة بين أحد منهم، وأنّ صبغة اللَّه هى دين الإسلام، وأنّ محاجّة اليهود على المسلمين فى اللَّه مبنيّة على زعمهم الاختصاص به تعالى، مع أنّ اللَّه ربّ الجميع على نحو الاستواء، وكلٌّ مسؤول عن عمله، كما تحاجهم الآيات فى قوله تعالى: (أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ* تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوْا يَعْمَلُونَ) («۲»).

فمقتضى كلّ هذا السياق هو التأكيد على عدم صحّة التبعيّة والتقليد من أهل الكتاب المعاصرين للمسلمين لأسلافهم واممهم التى قد خلت، لأنّ النسخ لمّا كان جائزاً فمن غير الصحيح بقاء أهل الكتاب فى عهد النبىّ على شرائع الأنبياء السابقين، إذ لكلّ امّة وظيفتها وتكليفها، وأنّه لو سُلّم أنّهم كانوا على غير دين الإسلام ما جاز لهم أن يتركوا ما يوحى اللَّه عزّ وجلّ على لسان محمّد صلى الله عليه و آله من وحى بالبيّنات والمعجزات. إذن انّ للَّه‌تعالى أن ينسخ من الشريعة ما شاء على ما يعلم فى ذلك من وجوه الحكمة، وأنّه إذا كان الإنسان لا يؤاخذ إلّابعمله، فلا بدّ عليه من استبيان الحجّة بنفسه والتنقيب عن الأدلّة ابتداءاً، ولا يتّكل على فضائل الآباء والأجداد والأسلاف، فإنّ ذلك لا ينفع إذا خالف أمر اللَّه

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۸۹

فيما أوجب عليه، وتكون إشارةً إلى أنّ من سلف من آباء أهل الكتاب ممّن كان على ملّة اليهوديّة والنصرانيّة يحرم على أخلافهم ممّن كانوا فى عهد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله التبعيّة والتقليد لُاولئك الأسلاف بنحو التبعيّة والتقليد العمياوى، بل لا بدّ من التمحيص والتنقيب والفحص عن الأدلّة والبراهين واصول المعرفة الحقّة التى فيها أساس التوحيد.

عدم حجّيّة النهج السلفى ... ص: ۱۸۹

فهاتان الآيتان تناديان وترفعان شعار نبذ التقليد، ولزوم التحرّى والفحص والتنقيب عن الحقائق عبر الأدلّة والبراهين، وعدم الاكتفاء بطريقة نهج الأسلاف، وما كانوا عليه فإنّ ذلك لا يشكّل مستنداً علميّاً، ولا برهان، فلا يحتجّ بالامّة التى خلت بل بالدليل ولا يحتجّ ولا يسوغ عذراً بأنّه لا يجوز مخالفة الامم السابقة، فإنّ المدار على حكم اللَّه وسلطانه وأوامره ونواهيه، وما يتعبّد به الخلائق فى كلّ زمن حتّى أنّ بعض المفسّرين، كالطوسى فى التبيان وغيره، ذكروا بأنّ مقتضى السياق فى معنى الآية الاولى أنّه لو سلم أنّ الأنبياء العظام السابقين كانوا على ما يذكره ويدّعيه اليهود والنصارى لما جاز لليهود فى زمن رسول اللَّه رغم ذلك البقاء على اليهوديّة والنصرانيّة، بل اللازم عليهم هو اتّباع سلطان اللَّه تعالى وولايته، والوحى الذى ينزله فى زمان النبىّ صلى الله عليه و آله، أىلما كان لهم أن يتركوا الفحص عن ما هو أبين وأكثر حجّيّة، والتعويل على ما هو دون ذلك فى الدلالة والاحتجاج.

وعلى ذلك يكون معنى الآية ليس فقط نبذ التقليد، بل ضرورة التحرّى عن ما هو أبلغ حجّة وأشدّ إيقاناً وأكبر دلالة، وعدم الاكتفاء والركون إلى ما هو دون وإن كان فى نفسه حجّة بعد وضوح أنّ للحجج مراتب بعضها أعلى من بعض،

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۹۰

وبعضها أكبر وبعضها أصغر، ولا يبرّر ترك العالى بالتشبّث بالمتوسّط، والدانى فى الحجّيّة. فإذا كان الحال فى عموم عدم الاحتجاج بأفعال الامم السابقة ولو كانوا من الأنبياء العظام فى مقابل ما هو أبلغ وأكبر حجّيّة، فكيف الحال فى الاحتجاج بمن هو دونهم.

توسعة معنى التقليد فى القرآن ... ص: ۱۹۰

على ضوء ما تقدّم من المعنى السياقى للآية وتطبيقها على الأنبياء العظام يظهر للتقليد مفهوم ومنظور يعمّ كلّ اتباع ولو لبعض الأنبياء السابقين فى مقابل الدليل الذى هو أكبر حجّيّة، وأبلغ برهاناً، فإنّ سلوك التبعيّة بطبعه من البواعث التى تشدّ وتغالب تنبيه الإنسان إلى الفحص عمّا هو أحرى بالأخذ والانتهاج، فمجرّد كون النبىّ هو نبىّ من العظام السابقين على شريعة بعث بها هو غير موجب لصحّة اتّباعه على شريعته، وإن كان قد تلقّاها بوحى من اللّه فى مقابل الحجّة الأبلغ الراهنة، وهى وحى اللّه لسيّد الأنبياء صلى الله عليه و آله بضميمة أنّ نسخ الشرائع هى من صلاحيّات البارى تعالى التى هى فوق صلاحيّات الأنبياء، فلا يساوى بين حجّيّة النبىّ السابق وولايته ومقامه، مع حجّية البارى تعالى وولايته ومقامه الربوبى، كما يشير إليه قوله تعالى: (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) («۱»).

وقوله تعالى: (مَا نَنسَخْ مِن آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) («۲») أى أنّ البارى تعالى هو المالك لكلّ شىء، وهو الولىّ

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۹۱

فوق كلّ شىء، وهو القادر على كلّ شىء، ولا يعجزه شىء، فكيف لا ينقاد إلى مقامه تعالى ويتّبع مقام من دونه.

فإذا قوبل بين الحجّتين ورتبة الولايتين والمقامين، واتّبع الأدنى السابق وترك الأعلى اللاحق كان تقليداً مذموماً واتّباعاً واحتجاجاً امّة قد خلت لها ما كسبت، ولا يبرّر ما يكسبه المرء فى ظرفه الراهن من لزوم وضرورة الاستناد إلى الحجّة الأبلغ، وهذا المعنى فيه تعميم لمعنى التقليد لكلّ متاركة للأدلّة البالغة وإن كان باتباع الحجج الأدنى السابقة فإنّ الاتّباع من دون الأدلّة البالغة أبين تقليداً ويعمّه ذم التقليد.

التدافع بين تفسيرى الآية ... ص: ۱۹۱

فهناك بون شاسع بين المعنى الذى ترمى إليه الآية وبين المعنى الذى شيّده بنو اميّة لتحريفها، فإنّ المعنى الذى صاغوه يرسم للُامم السابقة حصانة عن النقد وعن الفحص والتفتيش والمحاسبة والتمحيص والغربلة، كما يوجب تلميع السالفين بالنعوت الجميلة، وإضفاء الحجّيّة لهم من دون سبر وغور فى الأدلّة.

وهذا على الطرف النقيض تماماً من معنى الآية التى هى فى صدد بيانه من نبذ التقليد والاتّباع من دون دليل، حتّى أنّ الآية صاعدت من عموم المعنى إلى تطبيق التقليد حتّى على اتّباع الأنبياء العظام فى قبال ما هو أبلغ وأبين من الأدلّة والبراهين الإلهيّة، وهو خاتم وسيّد الأنبياء، فكيف الحال بمن دونهم.

وجوب التمحيص فى سيرة الأنبياء فضلًا عن غيرهم ... ص: ۱۹۱

بل إنّ القارئ لسياق الآيات يشاهد بإلحاح تعليمها وحثّها على الفحص عن حقيقة أحوال الأنبياء العظام، وما كانوا عليه، وعدم الاكتفاء بما يزعمه

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۹۲

الآخرون عنهم ممّن يدّعى التبعيّة لهم من اليهود والنصارى، فضلًا عن الحال فى لزوم الفحص عن حقيقة أحوال غير الأنبياء.

وكم تمحّص هذه الآيات ما كانوا عليه من جهات وحدة، وهى دين الإسلام وجهات اختلاف وهى الشرائع المتعدّدة، ولا تكتفى الآيات بسرد حالهم الإجمالى، بل تمعن فى التفصيل والتنقيب، وبيان مدى حجّيّة كلّ جهة فى سلوكياتهم، وأنّ أيّها عامّ عميم شامل للمكلّفين فى عصر نزول الآية، وأيّها خاصّ منسوخ قد تصرّمت وانقطعت حجّيّته.

عدم حجّيّة سيرة الأنبياء إلّابالتمحيص ... ص: ۱۹۲

كلّ ذلك لئلّا يكون هناك اتّباع لسيرتهم من دون تمحيصها على الأدلّة القاطعة الأبلغ من حجّيّة اولئك الأنبياء، فإنّ بديهيّات العقل الفطريّة التى لا يختلف فيها اثنان هى منطلق لمعرفة التوحيد فما دونه، كما أنّ معرفة التوحيد أساس فى عموم معارف الإيمان من إثبات كلّ كمال له تعالى وتنزيهه عن كلّ نقص وشين، وأنّه تعالى مالك لكلّ الكمالات والكلّ مفتقر إليه، وأنّ مقتضى ربوبيّته تعالى طاعة الخلق له، وشكره على إنعامه وإفضاله، والدين والتسليم والمثول والانقياد إلى إرادته وفرائضه على العباد، وهذه الفرائض من الإيمان باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبما بلّغت به رسله من دار القرار وعهد الميثاق وأركان الدين واصول الواجبات، فجملة هذه الفرائض هى من الطاعة- للَّهوالانقياد لولايته وحكمه- الشاملة فى عمومها على كلّ مخلوق من نبيّ مرسل، أو ملك مقرّب، أو وليّ ممتحن، فضلًا عمّن دونهم.

فحجّة بديهة العقل تهدى إلى حجّة معرفة الربّ تعالى، ومن بعد ذلك تلزم العباد طاعة الرسل وذروتهم سيّدهم، المأخوذ طاعته على جميعهم،

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۹۳

وهذه هى الحجّة الثالثة، ثمّ من بعد ذلك تلزم العباد حجّيّة الأوصياء، إلى غير ذلك من مراتب الحجج، وكلّ حجّة تفوق الاخرى وتهيمن عليها، وتحدّد أمدها وحدودها، ولذلك أشارت الآيات إلى الاستدلال بصفات اللَّه من أنّه مالك للسموات والأرض وما فيهنّ، وأنّه وليّ كلّ الأولياء لبيان أنّ هناك مراتب فى الحجّيّة والدلائل، وتفاوت فى درجاتها، واللازم مراعاة سلسلة تلك المراتب، وما هو أكبر وأبلغ، كاستدلال لدحض ما يزعمه اليهود والنصارى من لزوم اتّباع ما يزعمونه من يهوديّة ونصرانيّة النبيّ إبراهيم والأنبياء السابقين، حيث أنّ ولاية اللَّه فوق ولاية الأنبياء وصلاحيّاته فى الحكم والتشريع فوق صلاحيات الأنبياء فى الشرائع، فكيف يترك أهل الكتاب الدلائل على المشيئة الإلهيّة فى مقابل ما يزعمونه من حجّيّة يتبعونها.

بطلان التقليد للتفكيك فى حساب الأعمال ... ص: ۱۹۳

والتفكيك فى الوظائف والمسؤوليّات ... ص: ۱۹۳

وبأنّه لو سُلّم لكم أنّ السابقين كانوا على ما تذكرونه ما جاز لكم أن تتركوا ما اتّضح لكم من بيّنات ومعجزات لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله، كإبلاغ عن اللَّه تعالى على لسان رسوله محمّد صلى الله عليه و آله، وأنّه لا بدّ أن تتبيّن الامور بدلائل وبيّنات تراعى فيها المراتب واختلاف الموازين لا باتباع من سبق، لأنّ تقليدهم لا يغنى شيئاً، إذ ليسوا ملزمين بتقليدهم لأنّهم لا يسألون عمّا يفعلون وعمّا كانت وظيفتهم، فقوله تعالى: (وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أى كلّ مطالب بالعمل بالحجّة التى تقوم لديه، ولا يتّحد الجميع فى نمط المسؤوليّة ونوع الوظيفة كى يسوّغ لأجل ذلك التقليد والاتّباع، ولا سيّما وأنّ المساءلة والمحاسبة، والعقوبة والمؤاخذة تختلف من شخص لآخر، ومن امّة لُاخرى، ومن جيل لآخر،

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۹۴

ومن زمن سابق للاحق بحسب اختلاف العقول ودركها والأفهام ووعيها، وقيام الدلائل وتنوّعها، هذا فضلًا عن اختلاف واقع الأحوال وتجدّد الحكم الإلهى والتشريع، ومن ثمّ ليس لأحد من هذه الامّة ولا لجيل أن يكتفى ويتّبع ما فعله الأوائل من صدر هذه الامّة إذا قام لديه الدليل والبيان والحجّة على لزوم منهاج هدى وتبيّن له سبيل الرشاد قصر عنه السابقون زمناً، فبطلان التقليد أمام الدليل والدلائل يستلزم تكامل المعرفة الدينيّة وإن لم يدركها السلف السابق زمناً.

جدلیّة تکامل المعرفة الدینیّة وبطلان التقلید للسلف ... ص: ۱۹۴

ومن ثمّ لا مجال لما یثار ویعترض علی اتّباع أهل البیت وعلمائهم فی العصر الراهن من أنّ مذهب أهل البیت علیهم السلام مرّ بأطوار وتطوّر ضمن مراحل إلی أن بلغ ما هو علیه الآن فی الوقت الحاضر الراهن وأنّکم تبدّهون مسائل عقدیّة لم تکن بتلک الدرجة من الوضوح عند أوائل الرواة والأجیال التی تربّت فی کنف الأئمّة من أهل البیت علیهم السلام، فکیف تشیّدون معارف ومعالم فی العقائد لم یعهدها اولئک الرواة، ومن ثمّ تنبری دعوات وإثارات إلی نبذ هذه المعارف والمفاهیم العقدیّة، کلّ ذلک تحت وطئة أنّ الامم السابقة من أتباع أهل البیت علیهم السلام ومن المسلمین لم یعهدوا ولم یألفوا مثل هذه الامور، ورغم أنّ هذه المقالة مدحوضة:

بلوغ بعض أصحابهم علیهم السلام ذورة المعرفة ... ص: ۱۹۴

أوّلًا: بوجود فئات وعیّنات فی الأجیال الاولی منذ صدر الإسلام کانت تعی وتتفهّم عمق المعارف وغور المفاهیم، کسلمان وأبی ذرّ والمقداد میثم التمّار ورشید الهجری وجابر بن یزید الجعفی، وأمثالهم، وکانت هناک إرهاصات قد توصم بالإفراطیّة وقد اتّهمت ورمیت بالغلوّ والتألیه، حتّی أنّ النبیّ صلی الله علیه و آله قال

تفسیر ملاحم المحکمات، ص: ۱۹۵

فی علیّ یوم خیبر: «لولا أن تقول فیک طوائف من امّتی ما قالته النصاری فی عیسی بن مریم لقلت فیک الیوم مقالًا لا تمرّ علی ملأ من المسلمین إلّاأخذوا من تراب رجلیک وفضل طهورک یستشفون به» («۱»).

مضافاً إلی ظاهرة السبئیّة والمغیریّة والخطّابیّة وغیرهم من الفئات الذین طعن علیهم بالغلوّ من قِبل الآخرین، بغضّ النظر عن تمحیص ما قالت تلک الفئات أنّه هل یستدعی ما طعن علیهم به، أو أنّ ما کانوا یقولون به («۲») فی وادی وما انطبع عند الآخرین فی وادٍ آخر، فإنّ تلک الظواهر والاتّجاهات والمدارس تبیّن أنّ الأجیال الاولی لم تکن علی سطح واحد أو درجة متّحدة من المعرفة، بل فی کتاب البخاری: روی عن المسوّر بن مخرمة ومروان فی حدیث صلح الحدیبیة أنّ عروة بن مسعود جعل یرمق أصحاب النبیّ صلی الله علیه و آله بعینیه، قال: فواللَّه ما تنخّم رسول اللَّه صلی الله علیه و آله نخامة إلّاوقعت فی کفّ رجل منهم فدلک بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضّأ کادوا یقتتلون علی وضوئه، وإذا تکلّم خفضوا أصواتهم عنده، وما یحدّون إلیه النظر تعظیماً له، فرجع عروة إلی أصحابه فقال: أیقوم واللَّه لقد وفدت علی الملوک، ووفدت علی قیصر وکسری والنجاشی، واللَّه إن رأیت ملکاً قطّ یعظّمه أصحابه ما یعظّم أصحاب محمّد محمّداً» («۳»).

تفسیر ملاحم المحکمات، ص: ۱۹۶

وکذلک ما روی من استلام زین العابدین علیه السلام الحجر الأسود، وانفراج الناس له فی الحجّ سماطین، بینما لم یفسحوا المجال لهشام بن عبدالملک المروانی مع أنّه کان ولیّ العهد فی الخلافة الأمویّة، وکان فی زمرة البلاط محتفّین حوله، وحینها قال الفرزدق قصیدته المشهورة، وهی الاخری تحمل من أسمی المعانی العالیة.

المنهج التجریدی عن التقلیدی ... ص: ۱۹۶

ثانیاً: لو سُلّم عدم وجود نماذج وعیّنات تحمل مثل ذلک المستوی من المعرفة، إلّاأنّ الاحتکام إلی ما کان علیه الأجیال والامم السابقة دون الأدلّة القائمة

تفسیر ملاحم المحکمات، ص: ۱۹۷

ليس إلّااحتكاماً إلى التقليد فى قبال الأدلّة البالغة والحجج الظاهرة، والمفروض الاحتكام إلى الدليل لا الاحتجاج بالتبعيّة، فأين الموضوعيّة العلميّة والمنهج التجريدى عن التقليد؟!

أوليس الآية الكريمة تبطل التقليد أن (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) من مستوى وقدرة من المعرفة ووظيفة هم مؤاخذون بها بحسب ما لهم من فهم وعلم وقدرة.

المعرفة الدينيّة لا تقف عند حد ... ص: ۱۹۷

ثالثاً: إنّ واقعيّة الدين وسعته الحقيقيّة غير متناهية كما يشير إلى ذلك قول رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «ربّ حامل فقه وليس بفقيه، وربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه» («۱»).

فإلى ماذا يشير رسول اللّه صلى الله عليه و آله؟ أوليس يشير إلى أنّ مواد الوحى ليس الكلّ ينتهل منها بدرجة واحدة، بل هذان الحديثان يشيران إلى سنّة تكامل المعرفة بحسب الأجيال، ومن ثمّ ورد فى الحديث النبوىّ الشريف ما مضمونه: «أنّ جيل آخر الزمان من هذه الامّة هم من أعقل الأجيال»، كالذى ورد أنّهم يؤمنون بحبر على ورق، أى أنّ إيمانهم بالبراهين لا بالحسّ، أو أنّ فيهم المتعمّقون.

بل إنّ فى الآيات الكريمة إشارة إلى هذه السُّنّة، كما فى قوله: (وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ) («۲»)، ممّا يدلّ على وجود أعماق فى المعانى، وليست الحقائق

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۹۸

مقصورة على السطح الظاهر، حيث تشير الآية إلى أنّ الدين والمعرفة الدينيّة هى ذات درجات وأعماق، ولا تقتصر على سطح التنزيل.

كما فى قوله تعالى: (وَلَوْ أَنَّمَا فِى الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) («۱»).

وقوله تعالى: (قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً) («۲»).

وقوله تعالى: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ) («۳»).

تفسير ثالث للآية: الفخر المذموم والممدوح ... ص: ۱۹۸

وقد ذكر غير واحد من المفسّرين معنى آخر للآية ومحصّله أنّ الآية فى صدد مواجهة خُلق خاطئ فى الإنسان والناس، وهو التفاخر بفضائل الأسلاف، وأنّ هذا معيار خاطئ فى الفخر، لأنّ فضيلة الإنسان إنّما هى بأعماله لا بأعمال آبائه وأجداده وعشيرته وقبيلته، (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ) («۴») (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) («۵»)، فالآية واردة بذمّ اليهود على مفاخرتهم بأنّ أجدادهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وكلّهم من الأنبياء، فعلى هذا المعنى تبيّن الآية أنّه

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۱۹۹

لا يصحّ الاعتماد على أمجاد الأجداد والآباء ولو كانوا أنبياء.

واستشهد لهذا القول بقوله صلى الله عليه و آله: «يا بنى هاشم، لا تأتونى يوم القيامة بأنسابكم، وائتونى بأعمالكم» («۱»).

تقييم هذا المعنى ... ص: ۱۹۹

أوّلًا: وهذا المعنى وإن كان لا يخلو من وجه، إلّاأنّه ليس المعنى العمدة الذى فى صدده الآية، وذلك لأنّ سياق الآيات قبل الموضع

الأوّل للآية، وكذلك السياق فى الآيات قبل الموضع الثانى، وهو فيما بين الموضعين ليست فى سياق مفاخرة اليهود بآبائهم، بل فى صدد محاججتهم بصحّة اليهوديّة أو النصرانيّة فيما كان عليه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فمحتدم الجدال بينهم وبين المسلمين هو فى الدين الصحيح والشريعة القويمة، فلم يكن الحديث فيما بينهم وبين المسلمين حول مفاخرتهم بآبائهم من الأنبياء إلّابالعرض لا بالأصالة.

ثانياً: إنّ الفخر المذموم إنّما هو على تفصيل لا- مطلقاً، أى‌فيما كان المرء يتّكل على أمجاد آبائه ويترك العمل، أو فيما كان يفتخر بأمجاد آبائه بقصد وغرض النكاية والتحقير للآخرين، أو فيما كان افتخاره بأسلافه رغم أنّهم كانوا ذوى عمل سيّء تعصّباً بالأسلاف، وفى غير ذلك فالانتساب إلى الأسلاف الصالحين هى فضيلة، ومن تبرّأ من نسبه فهو على حدّ الكفر.

وقد ورد عنه صلى الله عليه و آله: «كلّ نسب وسبب منقطع يوم القيامة إلّانسبى وسببى» («۲»).

كما حكى اللَّه على لسان يوسف: (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَىْءٍ ذلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ) («۳»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۰۰

وقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ* ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) («۱»).

وكذا قوله تعالى فى آل موسى وآل هارون: (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِى ذَ لِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ) («۲»).

وكذلك قوله تعالى فى آل النبىّ: (سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ) («۳»).

وكذا فى آل داوود: (اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً) («۴»).

وكذلك فى قوله تعالى: (فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً) («۵»).

إبادة حقائق القرآن بتحريف معانيه ... ص: ۲۰۰

إنّ ما فعلته السلطات السياسيّة والخلافة الأمويّة من قلب معنى هذه الآيات ومسخ معناها الحقيقى إلى معنى محرّف إلى درجة شديدة من الغسيل الفكرى آل الأمر إلى هجران حقيقة المعنى وإلى تبدّه ونقيضه، وهذا يُعدّ من الملاحم الهامّة فى تاريخ القرآن عند المسلمين وهى بصمة من بصمات كثيرة موجودة فى تحريف وطمس معانى وحقائق القرآن الكريم، فتعود حقائقه بالية عن الأذهان

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۰۱

لتستغيث بمجدّد يحيى الكتاب ليأتى إلى الناس بكتاب جديد فى معانيه التى هى حقائقه الأصليّة المطموسة دهوراً وأحقاباً، فيجدّد إظهار تلك الحقائق المندرسة، وكم فى القرآن الكريم من امّهات الآيات المحكمات ومعاقد معانيه قد حُرّفت معانيها وطمسوها، بل جعلوا لها نقيض معانيها الأصليّة، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: (وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) («۱»).

وقوله تعالى: (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ) («۲»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۰۵

التشدّد والترهّب والرياضات غير المأثورة

اشارة

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ* وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ* لَايُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِن أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) («۱»)

التشدّد والترهّب والرياضات غير المأثورة ... ص: ۲۰۵

قيل: إنّ الآيـة الاولى- ۸۷- نزلت فى أمير المؤمنين عليه السـلام وبلال وعثمـان بن مظعون، فأمّا أمير المؤمنين عليه السـلام كما روت العامّة، وروى القمّى فى تفسيره: عن أبيه، عن ابن أبى عمير، عن بعض رجاله، عن أبى عبداللَّه عليه السلام فى قوله تعالى:

(لَاتُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ)، قال: «نزلت فى أمير المؤمنين عليه السلام وبلال وعثمان بن مظعون، فأمّا أمير المؤمنين عليه السلام فحلف أن لا ينام بالليل أبداً، وأمّا بلال فإنّه لا يفطر بالنهار أبداً، وأمّا عثمان بن مظعون فحلف أن لا ينكح أبداً، فدخلت امرأة

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۰۶

عثمان على عائشة، وكانت امرأة جميلة، فقالت عائشة: ما لى أراك متعطّلة؟

فقالت: ولِمَن أتزيّن؟ فواللَّه ما قاربنى زوجى منذ كذا وكذا، فإنّه قد ترهّب ولبس المسوح وزهد فى الدنيا، فلمّا دخل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أخبرته عائشة بذلك، فخرج فنادى: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، فصعد المنبر، فحمد اللَّه وأثنى عليه، ثمّ قال:

ما بال أقوام يحرّمون على أنفسهم الطيّبات؟ ألا إنّى أنام بالليل، وأنكح، وأفطر بالنهار، فمن رغب عن سنّتى فليس منّى.

فقام هؤلاء فقالوا: يا رسول اللَّه، فقد حلفنا على ذلك، فأنزل اللَّه تعالى عليه:

(لَايُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ) ... إلى آخر الآية» («۱»).

وأوردها ابن شهرآشوب فى «المناقب» عن ابن عبّاس ومجاهد وقتادة فى قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتُحَرِّمُوا) ... الآية، نزلت فى علىّ بن أبى طالب وأبى ذرّ وسلمان والمقداد وعثمان بن مظعون وسالم أنّهم اتّفقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا بالليل، ولا يناموا على الفراش، ولا يأكلوا اللحم، ولا يقربوا النساء والطيب، ويلبسوا المسوح، ويرفضوا الدنيا، ويسيحوا فى الأرض، ويرفضوا الدنيا وهمّ بعضهم أن يُجبّ مذاكيره، فخطب النبىّ صلى الله عليه و آله، وقال: ما بال أقوام حرّموا النساء والطيب والنوم وشهوات الدنيا، أما إنّى لست آمركم أن تكونوا قسسة ورهباناً، فإنّه ليس فى دينى ترك النساء واللحم واتّخاذ الصوامع، وأنّ سياحة امّتى ورهبانيّتهم الجهاد» («۲»).

وروى الطبرسى عن الشعبى وأبى مخنف ويزيد بن أبى حبيب المصرى:

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۰۷

أنّه ... حيث رووا محاججة معاوية وحزبه من بنى اميّة وبنى العاص والمغيرة، محاججتهم مع الإمام الحسن بن علىّ عليهما السلام، وتواطأهم عليه، فأدلوا بطعونهم على الإمام الحسن عليه السلام، فأجابهم، ثمّ أخذ يذكر مقامات علىّ عليه السلام وأهل البيت عليهم السلام، ثمّ قال: انْشُدُكُمْ باللَّهَ! أَتَعْلَمونَ أَنَّ عَلِيّاً أوّلُ مَنْ حَرَّمَ الشَّهَواتِ كلّها عَلى نَفْسِهِ مِنْ أَصْحابِ رَسولِ اللَّهِ صلى الله عليه و آله، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ* وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ) («۱»)» («۲»).

وروى «تفسير فرات الكوفى» ذلك أيضاً أنّها نزلت فى علىّ وأصحابه، منهم عثمان بن مظعون وعمّار بن ياسر وسلمان، حرّموا على أنفسهم الشهوات («۳»).

وقد أشكل بعض المخالفين المعنى، وأنّه منقصة وذمّ، بل ادّعى بعضهم أنّ هذا من التطرّف والافراط، وأنّ هذه الظاهرة حدثت قبل

ظاهرة الخوارج.

الجواب:

أوّلًا: فى رواية تفسير النعمانى ظاهرها أنّ الذين قاموا بذلك هم عثمان بن مظعون وجمع من الصحابة هم غير علىّ بن أبى طالب عليه السلام، فقد روى علىّ بن الحسين الشريف المرتضى فى «رسالة المحكم والمتشابه» نقلًا عن تفسير النعمانى: بإسناده عن علىّ عليه السلام، قال: «إنّ جماعة من الصحابة كانوا حرّموا على أنفسهم النساء والإفطار بالنهار والنوم بالليل، فأخبرت امّ سلمة رسول اللّه صلى الله عليه و آله، فخرج إلى أصحابه فقال: أترغبون عن النساء؟ إنّى آتى النساء، وآكل بالنهار، وأنام بالليل،

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۰۸

فمن رغب عن سنّتى فليس منّى، وأنزل اللّه: (لَاتُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ* وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ).

فقالوا: يا رسول اللّه، إنّا قد حلفنا على ذلك؟

فأنزل اللّه: (لَايُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَانِكُمْ ... ذلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ)» («۱»).

ولا يخفى دلالة مواضع منها على المغايرة بين من قاموا بذلك وأمير المؤمنين، مع أنّ أكثر الروايات الواردة فى سبب النزول عامّيّة، ومع أنّ أكثر رواياتهم لم تشتمل على ذكر اسم أمير المؤمنين.

نعم، قد مرّ فى «تفسير القمّى» روايته ذلك عن الصادق عليه السلام، وتحتمل الرواية للتقيّة كما هو معهود فى جملة من الموارد من اتّقاء الصادق عليه السلام فى نسبة فعل أو سيرة لأمير المؤمنين حسب زعم العامّة، مع أنّ فى روايات اخرى عنه عليه السلام نفى ذلك، وأمّا رواية الطبرسى فى «الاحتجاج» فهى عامّيّة أيضاً، نعم وبقيّة الروايات من طرقنا مرسلة.

وممّا يعضد ذلك ما روى من أنّ عثمان بن مظعون، قال: «أتيت النبىّ صلى الله عليه و آله فقلت: يا رسول اللّه، ائذن لى فى الترهّب.

فقال: لا، إنّما رهبانيّة امّتى فى الجلوس فى المسجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة.

فقلت: يا رسول اللّه، أتأذن لى فى السياحة؟

قال: سياحة امّتى الجهاد فى سبيل اللّه.

فقلت: يا رسول اللّه، أتأذن لى فى الاختصاء؟

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۰۹

فقال: ليس منّا من خصى واختصى، إنّما اختصاء امّتى الصوم» («۱»).

فيظهر منها أنّ ابن مظعون هو المتصدّر لهذا الأمر وجماعة آخرون من أصحابه، ومن ثمّ فى رواية اخرى أنّه صلى الله عليه و آله قال لامرأة عثمان بن مظعون: أحقّ ما بلغنى عن زوجك وأصحابه؟

والتعبير بأصحاب عثمان بن مظعون لا يشمل عليّاً عليه السلام بعد كونه غير تابع لابن مظعون.

ثانياً: فى «الاحتجاج» روى عن الشعبى وأبى مخنف ويزيد بن أبى حبيب المصرى، أنّهم قالوا ...: وذكروا احتجاج الحسن بن علىّ عليهما السلام على جماعة من بنى اميّة وفيهم المغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان، وفى الرواية المزبورة احتجاجه عليه السلام على اولئك بقوله عليه السلام: وَانْشُدُكُمُ اللَّهَ، أَتَعْلَمونَ أَنَّ عَلِيّاً أَوَّلُ مَنْ حَرَّمَ الشَّهَواتِ كُلَّها عَلى نَفْسِهِ مِنْ أَصْحابِ رَسولِ اللَّهِ صلى الله عليه و آله، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ* وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ) («۲»)، وكان عندهم علم المنايا، وعلم القضايا، وفصل الكتاب، ورسوخ العلم، ومنزل القرآن، وكان رهط لا نعلمهم يتمّمون عشرة نبّأهم اللّه أنّهم مؤمنون، وأنتم فى رهط قريب من عدّة اولئك لعنوا على لسان رسول اللّه صلى الله عليه و آله فاشهد لكم واشهد عليكم أنّكم لعناء اللّه على لسان نبيّه كلّكم» («۳»).

واستشهد الفيض فى تفسيره «الصافى» بهذه الروايۀ قائلًا: «ليس فى مثل هذا

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۱۰

الخطاب والعتاب منقصۀ على المخاطب والمعاتب إن لم يكن محمدۀ، نظيره قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ* قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) («۱»)، وقد ورد القرآن كلّه تقريع وظاهره تقريب» («۲»).

أى أنّ لحن الخطاب وإن كان فيه العقاب، لكنّه بداعى الحنان والعطف والرأفۀ نظير قوله تعالى: (طه* مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)، ونظير ما استشهد به الفيض آيۀ سورۀ التحريم من أنّ ظاهرها عتاب، ولكنّ الغايۀ المرادۀ جدّاً هو الدفاع من اللَّه عزّ وجلّ عن نبيّه فى قبال أزواجه، ويدعم هذا الاستظهار أيضاً ما أشارت إليه روايۀ «الاحتجاج» من نعت اللَّه لهم بالإيمان.

وبعبارۀ اخرى: أنّ النهى عن هذا النمط من الترهّب والانقطاع عن الشهوات، إنّما صدر تشريعه بنزول هذه الآيۀ وصدور النهى النبوىّ فى هذه الواقعۀ، وأمّا قبل هذه الواقعۀ فكان ذلك مندرجاً فى عمومات التشريع غير منهىّ عنه، وأمّا قوله تعالى فى الآيۀ (وَلَا تَعْتَدُوا) فقد يفسّر- كما ذكر القطب الراوندى («۳»)-، أى لا تعتدوا إلى ما حرّم عليكم ونهى عنه الحكيم، وزجر عنه، واعتداء الحدّ مجاوزۀ لحكمه، وعلى هذا التفسير فلا يكون المخاطب ب (لا تعتدوا) مَن نزلت الآيۀ فيهم فى صدر الآيۀ، بل يكون هذا الذيل توصيۀ عامّۀ لبيان النهى عن الطرفين: طرف تحريم الطيّبات والطرف المقابل، وهو الوقوع فى المحرّمات، أى لا تنقطعوا عن الشهوات بالمرّۀ كما لا توغلوا،

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۱۱

وتوصى بالتوسّط، وهذه قاعدۀ مهمّۀ فى أسباب النزول، اشير إليها فى روايات أهل البيت عليهم السلام أنّ الآيۀ صدرها قد يكون فى شخص ومورد معيّن ووسطها فى آخر وذيلها فى ثالث.

وفى الروايۀ النبويّۀ الواردۀ فى شأن عثمان بن مظعون: «مَن رغب عن سنّتى فليس منّى، واستقيموا يستقم لكم، فإنّما هلك مَن كان قبلكم بالتشديد ... شدّدوا على أنفسهم فشدّد اللَّه عليهم، فاولئك بقاياهم فى الديارات والصوامع، فأنزل اللَّه الآيۀ» («۱»).

وذيل قوله صلى الله عليه و آله يشير إلى قوله تعالى: (وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) («۲»).

وفى جملۀ من الروايات الواردۀ عنهم عليهم السلام تفسير الرهبانيّۀ (إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ) بصلاۀ الليل («۳») كما احتمله المجلسى («۴»)، وهذه الآيۀ فى سورۀ الحديد هى الاخرى من ملاحم الآيات التى تنهى عن التشديد والترهّب، وإن وقع لكثير من المفسّرين فى غير ما تومى إليه الآيۀ، فظنّوا أنّ ذيل الآيۀ مديح مع أنّ الصحيح- حسب الروايات- أنّ الذيل هو بيان لغايتهم والهدف الذى قصدوه من ابتداع الرهبانيّۀ.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۱۲

فقد روى ابن مسعود عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، قال: «كنت رديف رسول اللَّه صلى الله عليه و آله على حمار، فقال: يابن امّ عبد، هل تدرى من أين أحدثت بنو إسرائيل الرهبانيّۀ؟

فقال: اللَّه ورسوله أعلم.

فقال: ظهرت عليهم الجبابرۀ بعد عيسى عليه السلام يعملون بمعاصى اللَّه، فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم، فهزمهم أهل الإيمان ثلاث مرّات، فلم يبق منهم إلّاالقليل، فقالوا:

إن ظهرنا هؤلاء أفنونا ولم يبق للدين أحد يدعو إليه، فتعالوا نتفرّق فى الأرض إلى أن يبعث اللَّه النبىّ الذى وعدنا به عيسى عليه السلام يعنون محمّداً صلى الله عليه و آله، فتفرّقوا فى غيران الجبال وأحدثوا رهبانيّۀ، فمنهم مَن تمسّك بدينه، ومنهم مَن كفر، ثمّ تلا

هذه الآية:

(وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا)....

ثمّ قال: يابن امّ عبد، أتدرى ما رهبانيّة امّتى؟.

قلت: اللّه ورسوله أعلم.

قال: الهجرة والجهاد والصلاة والصوم والحجّ والعمرة».

وفى حديث آخر عن ابن مسعود: «أنّه صلى الله عليه و آله قال: من آمن بى وصدّقنى واتّبعنى فقد رعاها حقّ رعايتها، ومَن لم يؤمن بى فاولئك هم الهالكون» («۱»).

ويظهر من الرواية بوضوح أنّ المراد ب «ما رعوها حقّ رعايتها» هو الدعوة إلى النبىّ صلى الله عليه و آله والإيمان به، لأنّ غايتهم من ابتداع الرهبانيّة هو الإبقاء على أنفسهم كى يدعوا إلى الدين الذى يبشّر بسيّد الأنبياء.

ويشهد لمفاد هذه الرواية ذيل الآية من قوله تعالى: (فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)، أى أنّ الرعاية هى بلحاظ الإيمان بسيّد الرسل،

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۱۳

فالمديح فى الرعاية التى هى الغاية لما ابتدعوه وليس للبدعة التى ابتدعوها والترهّب الذى ألزموا أنفسهم به.

فقوله تعالى: (إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ) شرح للغاية التى قصدوها من هذه البدعة وهى الإيمان بسيّد الأنبياء، فلا يستفاد من هذه الآية من سورة الحديد امتداح التشدّد والترهّب كما توهّم ذلك الكثير من المفسّرين فجعلوا مفاد الآية بأنّ تلك البدعة وإن لم يكتبها اللّه عليهم، إلّاأنّه امتدحهم عليها، فتطابق آية الحديد وآية المائدة فى ذمّ التشدّد والترهّب، بعدما وُصِف فى الآية الاولى بأنّه اعتداء.

وكذا ما فى قوله تعالى: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِىَّ الْأُمِّىَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) («۱»)، فإنّه متطابق مع الآيتين على ما استظهر من لفظ (وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ) أى ثقلهم، شبّه ما كان على بنى إسرائيل من التكليف الشديد بالثقل، وذلك أنّ اللّه سبحانه جعل توبتهم أن يقتل بعضهم بعضاً، بينما جعل توبة هذه الامّة الندم بالقلب حرمة للنبىّ صلى الله عليه و آله، والأغلال التى عليهم نظير قرض ما يصيبه البول من أجسادهم، وأشبه ذلك من تحريم السبت، وتحريم العروق فى اللحم والشحوم، وقطع الأعضاء الخاطئة، ووجوب القصاص دون الدية حتّى فى الخطأ وغيرها.

وهذا التشديد بعد أن شدّدوا على أنفسهم فشدّد اللّه عليهم، كما يشير إليه قوله تعالى: (فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۱۴

اللَّهِ كَثِيراً) («۱»).

وقوله تعالى: (كُلُّ الطَّعامِ كَانَ حِلّاً لِبَنِى إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) («۲»).

اعتراض وجواب: قد يقال إنّ هناك جملة من الشواهد يستفاد منها رجحان الترهّب:

الأوّل: قوله تعالى: (وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارى ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لَايَسْتَكْبِرُونَ* وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا) («۳») يفيد امتداح الرهبانيّة والقسّيسيّة، والتعليل بهما أنّهما السبب لمودّة النصارى للذين آمنوا، وأنّهما السبب للتواضع ولرقّة القلب لو أنّ القسّيسيّة والرهبنة ممدوحة فى سياق التواضع وعدم الاستكبار

ورقّة القلب.

الثانى: أنّ الرهبنة من الرهبة، وهى المخافة مع التحرّز والاضطراب، والترهّب التخلّى من أشغال الدنيا وترك ملاذّها والزهد فيها، والعزلة عن أهلها، وتعهّد مشاقّها، وترهّب الرجل: إذا صار راهباً يخشى اللَّه، والخوف من اللَّه أمرٌ ممدوح وكلّ عمل من خشية اللَّه فهو فضيلة.

الثالث: دعاء امّ داود: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى الْأَبْدالِ، وَالْأَوْتادِ، وَالسُّيّاحِ، وَالْعُبّادِ، وَالْمُخْلِصينَ، وَالزُّهّادِ، وَأَهْلِ الْجِدِّ وَالْإِجْتِهادِ»، ويستفاد من ذلك الدعاء بالمديح

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۱۵

للسيّاح والأوتاد والعبّاد والزهّاد («۱»).

الرابع: ما كان فى سيرة النبىّ فى جملة من الموارد من التشدّد فى العبادة.

منها: أنّ النبىّ صلى الله عليه و آله قد كان يتعبّد فى غارحراء كلّ عام، ويعتزل الناس إلى أن بُعث رسولًا، قد أورد المجلسى فى «البحار» عن بعض الكتب أنّه قد ورد فى الكتب الصحاح أنّه كان يجاور فى حراء من كلّ سنة شهراً، وكان يطعم فى ذلك الشهر من جاءه من المساكين، فإذا قضى جواره من حراء كان أوّل ما يبدأ به إذا انصرف أن يأتى باب الكعبة قبل أن يدخل بيته فيطوف بها سبعاً أو ما شاء اللَّه من ذلك، ثمّ يرجع إلى بيته حتّى جاءت السنة التى أكرمه اللَّه تعالى فيها بالرسالة («۲»).

ومنها: ما فى قوله تعالى: (طه* مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى) («۳»)، ففى موثّق أبى بصير عن أبى جعفر: «وكان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقوم على أطراف أصابع رجليه، فأنزل اللَّه سبحانه (طه) الآية» («۴»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۱۶

وفى رواية اخرى لأبى بصير فى «تفسير القمّى» عنهما عليهما السلام، قالا: «كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إذا صلّى قام على أصابع رجليه حتّى تورّمت، فأنزل اللَّه تبارك وتعالى الآية» («۱»).

وروى الطبرسى فى «الاحتجاج» عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال فى وصف النبىّ:

«إنّه كان إذا قام إلى الصلاة سمع لصدره أزيز كأزيز المرجل على الأثافى من شدّة البكاء، وقد آمنه اللَّه عزّ وجلّ من عقابه، فأراد أن يتخشّع لربّه ببكائه ويكون إماماً لمن اقتدى به، ولقد قام عشر سنين على أطراف أصابعه حتّى تورّمت قدماه، واصفرّ وجهه، يقوم الليل أجمع حتّى عوتب فى ذلك، فقال اللَّه عزّ وجلّ: (طه* مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى) بل لتسعد به، ولقد كان يبكى حتّى يُغشى عليه، فقيل:

يا رسول اللَّه، أليس قد غفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟

قال: بلى، أفلا أكون عبداً شكوراً» («۲»).

قال فى «مجمع البيان»: «أنّ النبىّ كان يرفع إحدى رجليه فى الصلاة ليزيد تعبه، فأنزل اللَّه: (طه* مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)، فوضعها. قال: وروى ذلك عن أبى عبداللَّه عليه السلام («۳»).

وفى موثّق ابن بكير، عن أبى عبداللَّه عليه السلام، قال: «إنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بعدما عَظُم أو بعدما ثَقُلَ، كان يصلّى وهو قائم، ورفع إحدى رجليه حتّى أنزل اللَّه تعالى: (طه* مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)، فوضعها» («۴»).

وقد ذهب غير واحد من الأعلام إلى جواز الوقوف على الواحدة عملًا بإطلاق

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۱۷

الأدلّة فى القيام، وأنّ الآية الكريمة غير ناسخة فى المقام، كما قد جوّز جماعة الوقوف على بعض الأصابع أو الاصول، لإطلاق الأدلّة، والآية ناظرة لنفى الالزام نظير قوله تعالى: (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِن حَرَجٍ) («۱»)، فلا تدلّ على نفى المشروعيّة، والكيفيّة المزبورة باقية على ما هى عليه من الرجحان والمحبوبيّة غايته أنّها غير واجبة، وسياق الآية يشهد بورودها فى مقام الامتنان، ورفع ما

يوجب الشقاء والتعب والكلفة عن النبيّ الأقدس صلى الله عليه و آله.

نعم، ما كان يصدر منه صلى الله عليه و آله لم يكن على اللزوم والوجوب لترفعه الآية، بل من باب أن أفضل الأعمال أحمزها، فنزلت الآية إشفاقاً به، لكنّ الآية لا تنفى المشروعيّة، بل نفى أفضليّة هذا العرض.

هذا ما قرّره غير واحد من الأعلام، ولعلّ سائل يسأل عن سبب التأخير فى نزول الآية، مع أنّه صلى الله عليه و آله كان يمارسه عشر سنين؟

ومن ثمّ لعلّ الوجه فى مفاد الآية هو نفى الاستمرار والدوام على هذا الفرد لإيجاب الاستمرار والدوام فى الوقوع فى المشقّة لا نفى الأفضليّة، ولا- نفى أنّ أفضل الأفراد أحمزها، أو أنّ الأحمزيّة وإن كانت أفضل، إلّاأنّها قد تزاحم بعنوان آخر أرجح منها، أو أنّ الأحمزيّة أفضل ما لم توجب المشقّة الشديدة، ومفاد هذه الآية حينئذٍ يخرّج قاعدة عامّة فى باب العبادات والرياضات السلوكيّة الشرعيّة أنّه لا بدّ فيها من مراعاة عدم الوقوع فى إشقاء النفس، نظير ما روى عن أبى جعفر عليه السلام، قال: «قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: إنّ هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق، ولا تكرّهوا عبادة اللَّه إلى عباد اللَّه، فتكونوا كالراكب المنبت الذى لا سفر قطع،

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۱۸

ولا ظهراً أبقى» («۱»).

الخامس: ما ورد أنّ أفضل الأعمال أحمزها («۲»).

السادس: ما رواه الصدوق فى «الأمالى» فى صحيح هشام بن سالم، عن جعفر بن محمّد عليهما السلام قال: «إنّ داود عليه السلام: خرج ذات يوم يقرأ الزبور، وكان إذا قرأ الزبور لا- يبقى جبل ولا- حجر ولا- طائر ولا سبع إلّاجاوبه، فما زال يمرّ حتّى انتهى إلى جبل، فإذا على ذلك الجبل نبيّ عابد يقال له حزقيل، فلمّا سمع دويّ الجبال وأصوات السباع والطير علم أنّه داود عليه السلام، فقال داود: يا حزقيل، أتأذن لى فأصعد إليك؟

قال: لا، فبكى داود عليه السلام، فأوحى اللَّه جلّ جلاله إليه: يا حزقيل، لا تعيّر داود، وسلنى العافية، فقام حزقيل فأخذ بيد داود فرفعه إليه، فقال داود: يا حزقيل، هل هممت بخطيئة قطّ؟ قال: لا.

قال: فهل دخلك العجب ممّا أنت فيه من عبادة اللَّه عزّ وجلّ؟ قال: لا.

قال: فهل ركنت إلى الدنيا فأحببت أن تأخذ من شهوتها ولذّتها؟ قال: بلى، ربّما عرض بقلبى» الحديث («۳»).

وهذه الرواية تتضمّن الدلالة على رجحان التعبّد فوق الجبال بنحو الانعزال فى شرائع الأنبياء السابقين.

السابع: ما فى قوله تعالى: (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً) («۴»)، حيث امتدحت الصوامع

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۱۹

للرهبان فى سياق المساجد، وأنّها يُذكر فيها اسم اللَّه.

ولتنقيح الحال فى الشواهد السابقة على مسألة حكم الترهّب، والأوّل وهو قوله تعالى: (ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لَايَسْتَكْبِرُونَ* وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ) («... ۱»)، فهو وإن استفيد منه امتداح لين جانبهم ورقّة قلوبهم، وقلّة حرصهم على الدنيا، واهتمامهم بالعلم والعمل، حيث أنّ عنوان القساوسة إشارة إلى الموقعيّة فى العلم، والرهبنة إشارة إلى قلّة حرصهم على الدنيا، وفيض أعينهم من الدمع إلى رقّة قلوبهم، وأنّهم لا يستكبرون إشارة إلى لين جانبهم، إلّا أنّه قيّد باستجابتهم للإيمان برسول اللَّه، وما أنزل إليه، وذلك لا يستفاد منه امتداح الوسيلة التى ترهبنوا بها، فمدح الغاية لا يستلزم التقرير بالطريق إليها.

كما أنّ تخطئة الطريق لا تستلزم تخطئة الغاية، كما فى قوله: (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا إِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) («۲»)، فكون بعض الجهات سلبيّة لا تنفى الجهات الإيجابيّة ولا العكس كذلك، وهذا ممّا يصعب تفكيكه على الكثير، والشنآن فى اللغة

البغض والعداوة، فمجرّد كون الطرف الآخر عدوّ لا يستلزم التفريط بالموازين معه فى الجوانب الاخرى، وهذا نمط من التفكيك من الجهات والحيثيّات.

ونظير قوله تعالى: (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ) («۳»)، فمجرّد بدو الخيانة منهم لا يستلزم المبادرة بنكث العهد

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۲۰

معهم قبلهم، بل لا بدّ من اعتماد طريق منصف بين الطرفين.

ونظير قوله عليه السلام: «لا تقتلوا الخوارج بعدى، فليس مَن طلب الحقّ فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه (يعنى معاوية وأصحابه)»، فالخوارج رغم أنّهم من أصحاب النار، بل وصفوا فى الحديث النبوىّ بأنّهم كلاب النار، إلّاأنّه عليه السلام ميّز بين ما رفعوه من شعار وبين ما اعتقدوه من منهج خاطئ ومنحرف، بخلاف معاوية وأصحابه، وهذا التمييز بين الفرقتين رغم أنّ كلتيهما من فِرق الباطل، يندرج فى التفكيك بين الحيثيّات.

فكون الخوارج قد حبط عملهم وآلوا إلى الردى والهلاك، لا ينافى تمييز ما فيهم من بعض جهات الصواب، والموازنة بهذا المقدار من أصعب الصعاب التى تحتاج إلى علم وافر وصدر منشرح للإحاطة بجميع الحيثيّات، ومراعاة الموازين المتعدّدة، فلا جهة الصواب فى الخوارج توجب انخداع الباحث عن تردّى محصّلة أعمالهم وسوء العاقبة، ولا سوء عاقبتهم تحجب الباحث عن جهة الصواب فى بعض الحيثيّات التى لديهم.

وروى: «أنّ إبليس مرّ بيحيى ومعه رغيف شعير، فقال: أنت تزعم أنّك زاهد وقد ادّخرت رغيف شعير.

فقال يحيى: يا ملعون، هو القوت.

فقال إبليس: إنّ أقلّ من القوت يكفى لمن يموت.

فأوحى اللَّه إليه: اعقل ما يقول لك» («۱»).

فمع كون إبليس عدوّ مبين ولعين رجيم، إلّاأنّ ذلك لا يمنع أخذ الحكمة ولو من الكافر، فإنّ الحكمة ضالّة المؤمن بعد أن يعلم وجهها.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۲۱

فتحصّل: أنّه لا تدافع بين آية المائدة المادحة لجملة من النصارى، وهم الذين يؤمنون بخاتم الأنبياء بمقتضى وصيّة الدين الذى بُعث به عيسى عليه السلام لا مطلق النصارى، كما هو مقتضى التقييد الموجود فى الآية الكريمة، ونبّه عليه أبو جعفر عليه السلام، كما روى عنه فى ذيل الآية، وتعليل مدحهم لوجود العلم والرهبنة فيهم (أىالزهد فى الدنيا) هو بلحاظ تأدية العلم والزهد إلى الغاية الحميدة، وهى الإيمان بخاتم الأنبياء.

وبذلك يظهر تطابق مفاد هذه الآية مع مفاد آية الحديد، حيث أنّ فى آية الحديد امتداح الغاية فى قوله تعالى: (إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ)، ففى آية الحديد أيضاً تفكيك بين إيجابيّة الغاية وإيجابيّة الزهد عن الدنيا فى نفسه مع ذمّ حيثيّة اخرى، وهو ابتداع طريقة الرهبنة، فيتطابق مع مفاد الآيتين.

وسيتحصّل من مفادهما أنّ مدح الغاية لا يستلزم مدح الوسيلة، كما أنّ الوسيلة قد تكون فى نفسها مشروعة، إلّاأنّ الغاية مذمومة، وهذا من المداقّة فى الميزان والموازنة والتمييز بين الصواب والخطأ من دون الاجحاف لجهة من الجهات.

ومن ذلك يظهر الجواب عن الثانى، فإنّ التخلّى عن التشبّث والاشتغال بالدنيا وملاذّها والخوف والخشية من اللَّه، وإن كانت فى نفسها ممدوحة وراجحة عظيمة، إلّاأنّ ذلك لا يلازم رجحان أىوسيلة تُتّخذ طريقاً لتلك الغاية، ومنه يُفهم مغزى النهى النبوىّ الوارد عن الرهبانيّة وعن السياحة أنّ النفى لهذه الرهبانيّة والسياحة بلحاظ ما ابتدعه النصارى من طريقة أو ما كانت عليه الشرائع السابقة من

السياحة فى الأرض، وأمّا بيان متحصّل الجمع بين مدح الزهد فى الدنيا كغاية والإيمان بسيّد الأنبياء، وبين النهى عن طريقة الرهبنة بقول مطلق والسياحة،

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۲۲

فقد مرّت الإشارة إلى جملة من الروايات المستفيضة عند الفريقين الناهية عن الرهبانيّة والسياحة فى الإسلام.

وقد روى فى «الدعائم» أيضاً عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: أنّه نهى عن الترهّب، قال: «لا رهبانيّة فى الإسلام، تزوّجوا فإنّى مكاثر بكم الامم»، ونهى عن التبتّل، ونهى النساء أن يتبتّلن ويقطعن أنفسهنّ عن الأزواج» («۱»).

روى فى «الكافى»: عن أبى عبداللَّه عليه السلام، قال: «إنّ اللَّه تبارك وتعالى أعطى محمّداً صلى الله عليه و آله شرائع نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام: التوحيد والإخلاص وخلع الأنداد والفطرة الحنيفيّة السمحة، ولا رهبانيّة ولا سياحة، أحلّ فيها الطيّبات، وحَرّم فيها الخبائث، ووضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم، ثمّ افترض عليه فيها الصلاة والزكاة» («... ۲»).

وهناك لسان آخر يحصر طريقة الرهبانيّة والسياحة فى الجهاد أو حجّ بيت اللَّه الحرام أو الذهاب إلى المساجد أو الجلوس فى المساجد وانتظار الصلاة والصومعة بالجلوس والاختصاء أو الحصوريّة فى الصوم.

روى الصدوق فى «الخصال»: عن زيد بن علىّ، عن آبائه، عن علىّ عليهم السلام، قال: «قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: ليس فى امّتى رهبانيّة ولا سياحة ولا زَمّ» («۳»).

وروى الصدوق حصر الرهبانيّة بالجهاد فى سبيل اللَّه («۴»).

وقد تقدّم بعض الروايات النبويّة فى ذلك.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۲۳

وفى «الكافى» معتبرة السكونى عن أبى عبداللَّه عليه السلام، قال: «قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله:

الّاتكاء فى المسجد رهابنيّة العرب. إنّ المؤمن مجلسه مسجده، وصومعته بيته» («۱»).

وقد مرّ فى جملة من الروايات أنّ تفسير الرهبانيّة المبتدعة بصلاة الليل، ولعلّ الظاهر تفسير رضوان اللَّه لا تفسير الرهبانيّة، فقد روى الكلينى عن أبى الحسن عليه السلام فى قول اللَّه عزّ وجلّ: (وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ)، قال: صلاة الليل» («۲»).

وفسّر المجلسى فى «مرآة العقول» الجواب بأنّه راجع إلى رضوان اللَّه («۳»).

فهو أنّ الغاية وإن كانت ممدوحة للرهبانيّة والاختصاء والسياحة والزمّ- وهو الصوم من الكلام-، إلّاأنّ الشارع رغم امتداحه لهذه الغايات، قد ردع عن الوسائل والطرق السابقة فى تلك الشرائع، أو التى لدى أتباعها من أنفسهم، واستبدلها بوسائل وطرق اخرى، وهذا ممّا يعطى قاعدة عامّة فى باب الرياضات والسلوكيّات الروحيّة العباديّة من الوصول للغايات النهائيّة فى العبادات لا يكون ولا يسوغ بأى وسيلة، بل لا بدّ من الاعتماد على الوسائل المشروعة.

وبعبارة اخرى: أنّ فى العبادات والسلوكيّات الروحيّة والرياضات النفسيّة مدارج من الغايات كطبقات تتلو بعضها البعض، نظير ترتّب الصفات على الأفعال، وترتّب الملكات على الصفات، ولكلّ من الملكات طبقات، كما أنّ للصفات طبقات، وكذلك للأفعال طبقات، والوصول من طبقة إلى طبقة اخرى هو بتوسّط جوادّ الشريعة والطريقة القويمة.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۲۴

ومن الواضح خطورة وحسّاسيّة سبل الوصول إلى الغايات، فإنّ بينها تفاوت بالغ التأثير فى الوصول إلى المقاصد، ومن ثمّ اختلفت الشرائع كما فى قوله تعالى: (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً) («۱»)، مع أنّ الدين الذى هو غاية للشرائع واحد عند جميع الأنبياء، كما فى قوله تعالى: (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) («۲»)، والمناهج كما يستفاد من رواياتهم عليهم السلام من مثيل السبل فى الشريعة

الواحدة، فالشريعة يسنّها الأنبياء، والمناهج يسنّها الأوصياء والأئمّة، وكذلك الشأن فى الطريقة، كما فى قوله تعالى: (وَأَ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَاءً غَدَقاً) («۳»).

وبالشريعة والمنهاج والطريقة يصاب الدين، وقد ورد عنهم عليهم السلام: «أنّ الدين لا يصاب بالعقول»، فقد روى الصدوق بسنده: عن أبى حمزة الثمالى، قال:

«قال علىّ بن الحسين عليه السلام: إِنَّ دينَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَايُصابُ بِالْعُقولِ النّاقِصَةِ، وَالْآراءِ الْباطِلَةِ، وَالْمَقاييسِ الْفاسِدَةِ، وَلَا يُصابُ إِلَّا بِالتَّسْليمِ، فَمَنْ سَلَّمَ لَنا سَلِمَ، وَمَنِ اقْتَدى بِنا هُدِىَ، وَمَنْ كانَ يَعْمَلُ بِالْقِياسِ وَالرَّأْى هَلَكَ، وَمَنْ وَجَدَ فى نَفْسِهِ شَيْئاً مِمّا نَقولُهُ أَوْ نَقْضى بِهِ حَرَجاً كَفَرَ بِالَّذى أَنْزَلَ السَّبْعَ الْمَثانِىَ وَالْقُرْآنَ الْعَظيمِ وَهُوَ لَايَعْلَمُ» («۴»).

وبعبارة ثالثة اصطلاحيّة أنّ هناك عمومات وقواعد فوقيّة تتنزّل منها عمومات وقواعد اخرى، ويكون هذا التنزّل ذو مراتب، فالعمومات والقواعد المتنزّلة لا يصحّ التمسّك بالفوقىّ منها مع وجود العموم الذى هو نازل فى المرتبة الثانية،

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۲۵

فلا يصحّ التمسّك بالعمومات الفوقيّة مع وجود العمومات التنزّليّة، لأنّها بمثابة المخصّصات والمقيّدات والمفسّرات للعمومات الفوقيّة، فلا تبقى العمومات الفوقيّة على إطلاقها، فإنّ دور العموم النازل هو تحديد مسار التطبيقىّ للعموم الفوقىّ، فيحدّد إطار نزوله وتنزّله فى القالب الذى اشتمل عليه العموم النازل، ومن ثمّ سمّى العموم النازل مخصّصاً ومبيّناً ومقيّداً.

وبهذا البيان يظهر تطابق الآيتين الواردة فى الرهبانيّة مع قوله تعالى:

(لَاتُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)، وكم هو بيّن مفاد آية المائدة فى النهى عن اتّخاذ وابتداع طرق وسبل لم ترشد إليها الشريعة ولا مناهج الأوصياء فيتطابق مفاد الآيات بعضها مع بعض.

الابتداع والسنن الحسنة ... ص: ۲۲۶

ثمّ لا بدّ للالفات إلى الضابطة المائزة بين الابتداع المذموم وبين القاعدة النبويّة الواردة: «مَن سنّ سنّة حسنة كان له أجرها وأجر مَن عمل بها إلى يوم القيامة»، فإنّ الفارق بين الموردين هو أنّ فى البدعة اتّخاذ طريقة ومنهاج لا يندرج فى العمومات النازلة، وإن اندرج فى العمومات الفوقيّة، أى أنّ البدعة تتخطّى فيها القواعد المبيّنة فى الأدلّة المفسّرة للوسائل والطرق الموصلة للأهداف الشرعيّة فيتّخذ وسيلة فى عرض الوسائل والسنن المحدّدة فى الشرع، فلا يكفى فى تثبيت المشروعيّة والشرعيّة اندراج الفعل فى العمومات الشرعيّة فحسب، بل لا بدّ من اندراجه فى الأدلّة المفسّرة للعمومات، أو فقل: لا بدّ أن لا يتنافى الفعل مع المخصّصات الواردة، أى لا بدّ أن يندرج تحت آخر عموم نازل مفسّر ومطبق للعمومات الفوقيّة.

ولذلك سمّى القرآن ما صنعه الرهبان ابتداع ما كُتب عليهم، مع أنّه يندرج

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۲۶

فى عموم الزهد والخشية وعدم الإخلاد إلى الدنيا، والمرابطة والمحافظة على بقاء الدين، وهذه العمومات المندرج فيها فعلهم، هى بمثابة غاية امتدحتها الآية، إلّاأنّها ذمّت الوسيلة، وذلك بتحديد الشرائع السابقة وسائل خاصّة للوصول للغاية المنشودة، حيث قام الرهبان بنبذ تلك الوسائل واستبدالها بوسائل من عندهم، أو من عند أنفسهم، ومن ذلك يتبيّن أنّه لا يكفى فى المشروعيّة للفعل مجرّد الاندراج فى عموم من العمومات الواردة والمتضمّنة للحكم الشرعى ولا مجرّد الاندراج فى الأحكام العقليّة العامّة، بل لا بدّ من الاندراج فى العمومات التحتانيّة غير المخصّصة ولا المقيّدة، وأمّا السنّة الحسنة فتتبيّن ضابطتها ممّا مرّ من أنّها كلّ عادة أو عرف اجتماعىّ يؤسّس فى الظاهرة الاجتماعيّة، ويكون مندرجاً فى العموم التحتانىّ، ولا يكون بذلك بدعة أو ابتداعاً، وذلك لأنّ إرسال الشارع لذلك العموم من دون تقييد أو تخصيص بآليّة خاصّة، يفيد الترخيص والإذن منه فى تطبيق العنوان والطبيعة المأخوذة فى

العموم على أىّ مصداقٍ يستحدث ويوجد لتلك الطبيعة.

أمّا الشاهد الثالث وهو المديح الوارد فى جملة من الأدعية للسيّاح والعبّاد والزهّاد وأهل الجدّ والاجتهاد، وكذا الشاهد الرابع وهو ما كان من سيرة النبىّ صلى الله عليه و آله من التعبّد فى غار حراء كلّ عام شهراً أو قيامه صلى الله عليه و آله على أطراف أصابعه، أو الوقوف على رجل واحدة فى الصلاة، ونحوها...

فأمّا السياحة، فما ورد من نصوص مستفيضة فى تفسيرها بالجهاد أو الجلوس فى المساجد ونحوه، أو بالصوم بضميمة النهى والنفى لما فى الشرائع السابقة من سياحة، فلا يتوهّم من المديح لهذا العنوان إرادة ما فى الشرائع السابقة، هذا مضافاً إلى اختلاف عنوان السياحة والحصوريّة التى كانت لدى النبىّ عيسى

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۲۷

ويحيى عليهما السلام هى من تشريعات الأنبياء السابقين وليس من ابتداع البشر، وهى وإن كانت منسوخة فى شريعتنا، إلّاأنّه كما بيّنا فى حلقة النسخ أنّه وإن كان عزيمة فى نفى المشروعيّة، إلّاأنّه لا ينافى الرجحان الذاتىّ فى نفسه، وإن لم يستلزم ذلك بقاء المشروعيّة.

فكم فرق وبون كبير بين ما شُرّع على أيدى الأنبياء ونُسخ فى شريعة خاتم الأنبياء، وبين ما ابتدع من قِبل سائر البشر وأتباع الأنبياء، وأمّا الموارد التى كانت فى سيرة النبىّ صلى الله عليه و آله فقد تقدّم نقل الأقوال فى بقاء مشروعيّة تلك الأفعال، وأنّها لم تنسخ، وأنّ المحصّل من الآيات الواردة فى شأنه صلى الله عليه و آله هو نفى الاستمرار والدوام على أحمز الأعمال وأشقّها، وأنّه سيحصل من تلك الآيات قاعدة فى باب العبادات والرياضات الشرعيّة، وهى مراعاة عدم الوقوع فى إشقاء النفس، وتوخّى الرفق والتدرّج فيها، فما فى آية سورة طه يتطابق مع ما فى آيتى الرهبانيّة وآية المائدة، من نفى الشدّة والشقاء فى العبادات والرياضات الشرعيّة، ولزوم توخّى ما سُنّ فى شريعة خاتم الأنبياء من الوسائل الموصوفة بكونها الشريعة السمحة السهلة، إذ قال جملة من المحقّقين: «أنّ ما فى سنن خاتم الأنبياء صلى الله عليه و آله هو أشدّ امتحاناً للنفس ممّا فى سنن الأنبياء السابقين، وذلك لسهولة الانقطاع بنحو البتر والبتل عن غرائز النفس بنحو دفعى أو ببناء عادة دائمة، وهذا بخلاف إذاقة النفس جملة من اللذائذ، الفينة بعد الاخرى، مع ترويض إمساكها، فإنّ ذلك أصعب وأشدّ فى الاستقامة».

فتبيّن أنّ ما فى سيرته صلى الله عليه و آله لا ينطبق مع ما عليه الترهّب عند النصارى حتّى اعتكافه صلى الله عليه و آله فى غار حراء، فإنّه لم يكن انقطاعاً دائماً عن الناس وإرشاد العباد، بل هو نظير ما روى من مماثلة أمير المؤمنين لما قام به صلى الله عليه و آله من عبادته وتهجّده ليلًا

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۲۸

فى بساتين المدينة منقطعاً عن الناس فى تلك الساعات، أو خروجه عليه السلام إلى ظهر الكوفة ممّا يلى البريّة، وكذا خروج زين العابدين عليه السلام إلى بعض أطراف البريّة للتعبّد والانقطاع بعض الأوقات، ونظير ما روى عن موسى بن جعفر عليهما السلام من شكره للّه‌تعالى أن فرّغه لعبادته فى السجن، وهو نحو انقطاع غيرهم من أئمّة أهل البيت عليهم السلام فى حالاتهم وسيرتهم، بل وروى ذلك أيضاً فى بعض سيرته صلى الله عليه و آله لمّا هاجر إلى المدينة، حيث اتّخذ مشربة امّ إبراهيم مكاناً ينقطع إليه فى بعض الأوقات.

أمّا الشاهد الخامس، وهو ما روى: «أنّ أفضل الأعمال أحمزها»، وقد تبيّن أنّ جملة من الآيات، نظير (طه* مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى).

وقوله تعالى: (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِن حَرَجٍ).

وقوله تعالى: (لَاتُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ).

وقوله تعالى أيضاً: (وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ) («۱»)، وغيرها من الآيات والروايات أنّ قاعدة (أفضل الأعمال أحمزها) مقيّدة بعدم التأبيد والدوام، فإنّ اللَّه كما يحبّ أن يؤخذ بعزامه أن يؤخذ برخصه، وأنّ الشريعة سهلة سمحاء، ومقيّدة بعدم إشقاء النفس لنفس تلك الآيات والروايات بعد التأكيد على الرفق واللين فى الامور كلّها، فلا بدّ أن تقيّد القاعدة بهذين القيدين.

ثمّ إنّه لا بدّ من الخوض فى معنى تحريم الطيّبات، هل هو المشارطة بترك الطيّبات والمباحات بتوسّط اليمين والحلف بأسماء اللَّه أو العهد أو النذر،

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۲۹

أو المشارطة ضمن العقد أو الالتزام بمحظوريّة المباحة، فعلًا أو تركاً، وإن لم ينسب الحظر والمنع إلى الشارع؟ أىيكون متعلّق الالتزام نفس الحذر والمنع لا- الفعل والترك؟ أو التزام الفعل المباح أو الترك المباح بنحو التأبيد؟ أو التزام الفعل أو الترك ولو لمدّة محدودة؟

قد يقال: إنّ التحريم إنّما يصدق فيما لو بنى على الحرمة مع نسبتها إلى الشرع دون ما التزم بالحرمة والمنع والحظر، مع الالتفات إلى عدم نسبتها إلى الشرع، وإنّما يتبنّاها الشخص فيما بينه وبين نفسه، أو يتبنّاها عرف خاصّ مع الالتفات إلى قطع نسبتها إلى الشارع، فإنّ ذلك لا يكون تحريماً.

فضلًا عمّا لو التزم بالفعل المباح أو الترك المباح بنحو التأبيد من دون تعلّق الالتزام بالحظر أو المنع كصفة للعمل، فضلًا عن الصورة للشقّ الأخير، وهو ما لو التزم الفعل أو الترك مدّة.

ولكن الصحيح أنّ التحريم المنهىّ عنه لا يختصّ بما لو التزم بالحظر مع نسبته للشرع، أىلا يخصّ النهى عن تحريم الطيّبات بالحرمة التشريعيّة، بل يعمّ الحرمة والحظر والمنع المقطوع والمنفىّ نسبتها إلى الشارع.

كما لا يختصّ بما لو كان هذا التبنّى للحرمة والمنع والحظر بما لو كان بتوسّط القسم أو العهد أو النذر ونحوها، بل يشمل ما لو كان ذلك بتبنّى الشخص فيما بينه وبين نفسه بأن يجعل الحرمة من نفسه لنفسه من دون أن ينسبها إلى الشارع، أو يجعل أصحاب عرف خاصّ أو مجتمع، ذلك لأنفسهم من أنفسهم من دون أن ينسبه إلى البارى تعالى، فإنّ الالتزام والتعهّد بالحظر والمنع أيضاً ينطبق عليه أنّه تحريم للطيّبات كما هو الحال فى التقنينات وقوانين الأنظمة والدول الوضعيّة.

ومنه يظهر أنّ التحريم ليس محصوراً فى الإنشاء النظرى للحرمة، أو نسبتها

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۳۰

إلى الشارع، بل يشمل التبنّى العملىّ التطبيقىّ لمفاد المنع والحذر، وإن لم ينسب إلى الشارع.

والظاهر أنّ الابتداع الذى مرّ فى آية الحديد (الرهبانيّة) هو الآخر لا يختصّ بما ينشئ بزعم نسبته إلى الشارع ممّا ليس فى الشريعة، بل يشمل كلّ تشريع يتناول العلاقة فيما بين الإنسان والبارى تعالى، وهذا تعريف أعمّ للبدعة والابتداع، وبالتالى فإنّ فى المقام ظاهرة مشتركة تشير إليها جملة من الآيات بعنوان التعدّى عن حدود ما قرّره الشارع من باب الإفراط أو نشوء السلوك الاجتماعىّ الفاسد الذى يوصف فى الآيات بالأغلال والإصر وبالجاهليّة.

وكذلك فى الجانب العبادىّ بعنوان الابتداع، فهذه موارد وبيئات متعدّدة يردع فيها القرآن عن السلوكيّات المنحرفة الفرديّة أو الروحيّة أو الاجتماعيّة أو العباديّة أو على صعيد التعامل والمواثيق.

أمّا الشاهد السادس والسابع، فيظهر الحال فيهما بما تقدّم من الشواهد السابقة من أنّ أصل التعبّد بالانقطاع فى الجملة لا ضير فيه، وأنّ الممنوع هو التأبيد، وأنّ الصوامع والبِيع من حيث ذكر اللَّه فيها، هى جانب إيجابىّ وإن كانت الجوانب السلبيّة من جهة تحريف اتّباع الأنبياء السابقين هى سلبيّة لا يغفل عنها.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۳۱

الانفاق بين العدل والإحسان

اشارة

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۳۳

(يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً أ ۷ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً أ ۸ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَانُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً أ ۹ إِنَّا نَخَافُ مِن رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً أ ۱۰ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً أ ۱۱ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً أ ۱۲ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَايَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً أ ۱۳ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا أ ۱۴ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا أ ۱۵ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً أ ۱۶ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا أ ۱۷ عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا أ ۱۸ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنثُوراً أ ۱۹ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً أ ۲۰ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً أ ۲۱ إِنَّ هذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَشْكُوراً أ ۲۲) («۱»)

وفى السورة أبحاث:

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۳۴

الأوّل: أسباب النزول ... ص: ۲۲۴

ذكر السيوطى فى «الدرّ المنثور»، قال: أخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس فى قوله: (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ) الآية، قال: نزلت هذه الآية فى علىّ بن أبى طالب وفاطمة عليهما السلام («۱»).

وذكر الواحدى فى «أسباب النزول»: عن عطاء، عن ابن عبّاس، أنّها نزلت فى علىّ بن أبى طالب عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام («۲»).

وعن الثعلبى: أنّه أخرج ذلك فى تفسيره من رواية القاسم بن بهرام ورواية الكلبى كذلك («۳»).

ورواه ابن الجوزى أيضاً فى «الموضوعات» بطريق آخر («۴»).

وأخرجه الحسكانى فى «شواهد التنزيل» («۵»).

وقد أجاب سبط ابن الجوزى عن تمجمج جدّه فى قبول الحديث («۶»).

وعن ابن عساكر فى تاريخ دمشق.

وعن الحموينى فى «فرائد السمطين» («۷»).

وعن أبى جعفر الكوفى الزيدى القاضى المعاصر لفرات الكوفى («۸»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۳۵

وعن الحكيم الترمذى فى الرابع والأربعين، وإن تمجمج وتلجلج شدقاه فى قبول الحديث.

ورواه الزمخشرى فى كشّافه («۱»).

وعن الواحدى فى كتاب البسيط.

وأمّا روايات أهل البيت عليهم السلام فهى مستفيضة، بل متواترة فى نزولها فى أصحاب الكساء، فقد روى الصدوق بإسناده: عن

الصادق جعفر بن محمّد، عن أبيه عليهما السلام فى قوله عزّ وجلّ: (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ)، قال: «مرض الحسن والحسين وهما صبيّان صغيران، فعادهما رسول اللَّه ومعه رجلان، فقال أحدهما: يا أبا الحسن، لو نذرت لابنيك نذراً للَّه إن عافاهما.

فقال: أصوم ثلاثة أيّام شكراً للَّه عزّ وجلّ، فكذلك قالت فاطمة، وقال الصبيّان:

ونحن أيضاً نصوم ثلاثة أيّام، وكذلك قالت جاريتهم فضّة، فألبسهما اللَّه العافية، فأصبحوا صائمين وليس عندهم طعام، فانطلق علىّ عليه السلام إلى جارٍ يقال له (شمعون) يعالج الصوف، فقال: هل لك أن تعطينى جزّة تغزلها [لك] ابنة محمّد بثلاثة أصوعٍ من شعير.

قال: نعم، فأعطاه، فجاء بالصوف والشعير فأخبر فاطمة عليها السلام فقبلت وأطاعت، ثمّ عمدت فغزلت ثلث الصوف فأخذت صاعاً من الشعير فطحنته وعجنته وخبزت خمسة أقراص، لكلّ منهم قرص، وصلّى علىّ عليه السلام مع النبىّ صلى الله عليه و آله ثمّ أتى منزله، فوضع الخوان وجلسوا خمستهم، فأوّل لقمة كسرها علىّ عليه السلام إذا مسكين واقف بالباب، فقال: السلام عليكم يا أهل بيت محمّد، أنا مسكين من مساكين المسلمين، أطعمونى ممّا تأكلون أطعمكم اللَّه على موائد الجنّة، فوضع اللقمة من يده،

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۳۶

ثمّ قال» ...: الحديث («۱»).

ثمّ ذكر عليه السلام أشعاراً لعلىّ عليه السلام يستحثّ فاطمة عليها السلام بالصدقة، وفيها مجاوبتها عليها السلام على التصدّق، وأنّه تكرّر هذا المشهد مرّة ثانية فى اليوم الثانى مع يتيم من يتامى المسلمين، وتكرّر هذا المشهد أيضاً فى اليوم الثالث مع أسير من أسرى المشركين، فأعطوه أيضاً وباتوا جياعاً وأصبحوا مفطرين وليس عندهم شىء، وأقبل علىّ عليه السلام بالحسنين نحو رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وهما يرتعشان كالفراخ من شدّة الجوع، فلمّا بصر بهما رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: يا أبا الحسن، شدّما يسوؤنى ما أرى بكم، انطلق إلى ابنتى فاطمة، فانطلقوا إليها وهى فى محرابها قد لصق بطنها بظهرها من شدّة الجوع، وغارت عيناها، فلمّا رآها رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ضمّها إليه، فقال: وا غوثاه، أنتم منذ ثلاث فيما أرى، فهبط جبرئيل عليه السلام فقال: يا محمّد، خذها هيّأ اللَّه لك فى أهل بيتك، قال: وما آخذ يا جبرئيل؟

قال: (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ) حتّى إذا بلغ (إِنَّ هذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَشْكُوراً).

ورويت هذه الرواية بصيغ اخرى.

الثانى: مقام عباد اللَّه فوق الأبرار ... ص: ۲۳۶

ومن غفلات مفسّرى العامّة أنّهم ظنّوا اندراج أصحاب الكساء فى الأبرار فى آيات هذه السورة، وهم منهم لعدم التفاتهم إلى ما ترشده روايات أهل البيت عليهم السلام من بيان فى ظهور الآية، حيث أنّ سياق السورة يبيّن أنّ هناك أربعة أقسامٍ من البشر، الكافرين ومقامهم، والأبرار ومقامهم، وعباد اللَّه ومقامهم،

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۳۷

ورسول اللَّه ومقامه.

والذين وصفوا ب (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ) هم عباد اللَّه الذين فى مقامهم يُشرفون على مقام الأبرار، ويُفجّرون لهم عين الكافور، فمقام الأبرار دونهم، وشراب الأبرار من كأس ممتزج بشىء من الكافور وليس بخالص من الكافور، فأهل البيت عليهم السلام بحسب الآيات يندرجون فى عباد اللَّه الذين يشرفون على الأبرار، وهذا ما يتطابق مع ما فى سورة المطفّفين من أنّ مقام الأبرار يُشرف عليه المقرّبون، وأنّ المقرّبون يشهدون كتاب أعمال الأبرار الذى هو فى علّيين، فمقام المقرّبين وهو مقام عباد اللَّه فوق العلّيين، كما أنّ الأبرار يشربون من الرحيق المختوم ممتزجاً بشىء من عين التسنيم، وعين التسنيم عين يشرب منها المقرّبون، فذكر فى سورة المطفّفين جملة من مقامات عباد اللَّه، منها: أنّهم شهداء أعمال العباد فضلًا عمّن دونهم.

ومنها: أنّ عين التسنيم لهم.

ومنها: أنّهم المقرّبون، كما أنّ سورة الواقعة قد أفصحت عن أنّ المقرّبين هم السابقون، وسورة الواقعة أيضاً تبيّن إشراف السابقين والمقرّبين وعباد اللّه على مقام الأبرار، وهذا ما يتطابق مع ما فى سور اخرى مع آية الكساء، وهم أهل آية التطهير، يشهدون أعمال العباد، وهم الشهداء على الناس والرسول صلى الله عليه و آله عليهم شهيد، وهذا تطابق متّسق متّحد فى السور القرآنيّة العديدة عن مقام أصحاب الكساء عليهم السلام.

كما أنّ فى السورة دلالة أيضاً على أنّ الفيض الإلهى يصل إلى الأبرار عبر وبواسطة عباد اللّه حيث بيّنت أنّ الكأس الذى يشرب منه الأبرار يمزج بشىء من الكافور، والمازج لهم بذلك هم عباد اللّه حيث أنّهم يقومون ويتولّون بتفجير

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۳۸

عين الكافور وسقى الأبرار بمزاج منها.

فقد روى الصدوق فى «الأمالى»: بسنده عن سلمة بن خالد، عن الصادق عليه السلام، عن أبيه عليه السلام فى قوله عزّ وجلّ: (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ) فهبط جبرئيل عليه السلام بهذه الآيات (إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً* عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً) («۱»)، قال: هى عين فى دار النبيّ صلى الله عليه و آله تفجّر إلى دور الأنبياء والمؤمنين» («۲»).

ورواه بطريق آخر: عن ابن عبّاس («۳»)، ورواه الثعلبى فى تفسيره، كما حكاه عنه ابن بطريق فى «العمدة» («۴»).

ولا يخفى أنّ التفجير وإن كان فى دار الدنيا هو تشقيق الأرض ليجرى الماء وتنبع العين، إلّاأنّ الشأن فى الدار الآخرة ليس كذلك، حيث أنّ الامور هى بمشيئة أهل الجنان توجد، فتفجير عباد اللّه المقرّبين هذه العين للأبرار يفيد أنّهم الموجدون لتلك العين، لأنّ أحكام دار الآخرة أنّ الأشياء تحصل بالمشيئة، فهم يوجدون هذه العين ويسقون الأبرار منها ممزوجاً، ولا يخفى أنّ الشراب هو رمز لماء البقاء والحياة.

وقد اشير إلى نظير هذا المعنى فى سورة المطفّفين، وقد مرّت الإشارة إلى التطابق فى مفاد السورتين، حيث بُيّن فى سورة المطفّفين إشراف وعلوّ مقام المقرّبين على مقام الأبرار، وأنّ الأبرار يشربون ويسقون من رحيق مختوم يمزج لهم فيه من تسنيم، وأنّ التسنيم عين يشرب بها المقرّبون، فشرابها لهم خالصة

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۳۹

صافية، فهم الذين يزوّدون الأبرار بذلك المزاج، وقد ورد فى رواياتهم عليهم السلام إلى تضمّن سورة المطفّفين فى قوله تعالى: (كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ* كِتَابٌ مَرْقُومٌ* يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ) («۱») الإشارة إلى مسألة الطينة من أنّ نفوس وأرواح الأبرار مخلوقة من فاضل طينة أبدان المقرّبين.

ووجه الإشارة فى الآيات أنّ كتاب الأبرار هو عبارة عن نفوسهم وأرواحهم، كما أشير إليه فى قوله تعالى: (اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً) («۲»)، وغيره من الآيات، وهو الطائر الذى فى عنق الإنسان، أى‌فى أعالى وجوده الذى يلقاه يوم القيامة منشوراً، فإذا كان كتاب الأبرار الذى هو فى علّيين، ومرقوم فيه كلّ أعمالهم، يشهده المقرّبون بحواسّهم، فيكون رتبة أرواح الأبرار وأنفسهم، يُشرف عليها، لأنّ الشاهد محيط بالمشهود، وقد جعل الشاهد هنا ذات المقرّب بمراتبها لا مجرّد مرتبة كتابه فقط، بينما الذين فى علّيين من الأبرار، كتابهم لا ذواتهم بتمام مراتبها، بل ذواتهم البدنية فى النعيم، وأبهم فى السورة مرتبة كتاب المقرّبين، لكن قد تضمّنت الإشارة إلى أنّ كتابهم فوق علّيين.

وهذا ما اشير إليه فيما رواه الكلينى بسنده إلى أبى حمزة الثمالى، قال:

«سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إنّ اللّه عزّ وجلّ خلقنا من أعلى علّيين وخلق قلوب شيعتنا منه، وخلق أبدانهم من دون ذلك، وقلوبهم تهوى إلينا لأنّها خُلقت ممّا خُلقنا منه، ثمّ تلا هذه الآية: (كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ* كِتَابٌ

مَرْقُومٌ) («۳»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۴۰

وخلق عدوّنا من سجّين، وخلق قلوب شيعتهم ممّا خلقهم منه وأبدانهم من دون ذلك، فقلوبهم تهوى إليهم لأنّها خلقت ممّا خلقوا منه، ثمّ تلا هذه الآية:

(كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ* كِتَابٌ مَرْقُومٌ* وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) («۱»)» («۲»).

وهذه الرواية تبيّن تسانخ أرواح المؤمنين مع أبدان المعصومين، وتسانخ أرواح الفجّار مع أبدان أئمّة النار، ومن ثمّ تعكس المحبّة القلبيّة نمط تسانخ فى الطينة والماديّة الروحيّة مع المحبوب، ونحو ارتباط وثيق، ومن ثمّ ورد:

«من أحبّ عمل قوم اشرك فى عملهم» («۳»).

وعلى أىّ تقدير، ليس الحديث هاهنا عن بحث الطينة وأصل الخلقة، وإنّما لبيان وساطة المقرّبين فى الفيض الإلهىّ، ولا يتوهّم بيان الطينة ونشأة الخلقة والروحيّة أنّ مقتضاها الجبر، بل أنّها من باب بيان المقتضيات، إذ معنى الاختيار ليس التفويض وإنّما أمرٌ بين أمرين.

وفى رواية أبى الجارود، عن أبى جعفر عليه السلام، قال: «السجّين الأرض السابعة، وعلّيون السماء السابعة» («۴»).

ومفادها أنّ البدن الاخروىّ للمؤمنين من السماء السابعة وهى علّيون، والبدن الاخروىّ للفجّار هى الأرض السابعة، وهى سجّين، وإطلاق القلب أو الروح على البدن الاخروىّ باعتبار أنّ تشفّف الجسد وتلطّفه تروّح، والجسم اللطيف

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۴۱

باطن للجسم الغليظ والكثيف، فيكون بمثابة الروح له، فكلّ تلطّف تروّح، كما أنّ كلّ تكثّف وتغلّظ هو تجسّد.

وأمّا اشتمال البدن الاخروى على آثار جميع أعمال الإنسان، فلأجل قابليّة ذلك الجسد على اختزان جميع الآثار، فيكون بمثابة الصفحة التى ينتقش ويرقم فيها جميع الأعمال.

الثالث: الميزان فى الإنفاق ... ص: ۲۴۱

اشارة

قد يتساءل عن وجه الحكمة فى نزول سورة بأكملها فى أصحاب الكساء عليهم السلام مع أنّه إيثار فى واقعة ما، وربّما اعترض بعض مفسّرى العامّة على الآيات أو على مفاد الروايات الواردة فى أسباب النزول كالذى قاله القرطبى:

«قال الترمذى فى «نوادر الاصول»: فهذا حديث مزوغ مزيّف قد تطرّف فيه صاحبه حتّى تشبهه على المستمعين، فالجاهل بهذا الحديث يعضّ شفتيه تلهّفاً أن لا يكون بهذه الصفة، ولا يعلم أنّ صاحب هذا الفعل مذموم، وقد قال اللَّه تعالى فى تنزيله: (وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ) («۱»)، وهو الفضل الذى يفضل عن نفسك وعيالك.

وجرت الأخبار عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله متواترة: «بأنّ خير الصدقة ما كان عن ظهر غنىً»، و: «ابدأ بنفسك ثمّ بمن تعول»، وافترض اللَّه على الأزواج نفقة أهاليهم وأولادهم، وقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «كفى بالمرء إثماً أن يُضيّع من يقوت»، فكيف أجهد صبياناً صغاراً من أبناء خمس أو ستّ على جوع ثلاثة أيّام ولياليهنّ حتّى تضوّر من الجوع وغارت العيون منهم لخلوّ أجوافهم حتّى أبكى رسول

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۴۲

اللَّه صلى الله عليه و آله ما بهم من الجهد» («۱»).

ولتنقیح الحال فی موارد الإیثار المحمود عن موارد البسط المذموم لا بدّ من التعرّض لجملهٔ الآیات الواردهٔ فی هذا المضمار.
فإنّ هناک طائفتین من الآیات:

الاولی: تدلّ علی مطلق الایثار ... ص: ۲۴۲

کقوله تعالی: (وَلَا یَجِدُونَ فِی صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَیُؤْثِرُونَ عَلَی أَنفُسِهِمْ وَلَوْ کَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن یُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) («۲»).

وقوله تعالی: (لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّی تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَیْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِیمٌ) («۳»).

سورهٔ الدهر وإمامهٔ أهل البیت علیهم السلام ووساطتهم فی الفیض الإلهی

ولا یخفی أنّه من دلالـهٔ السورهٔ علی فوقیّهٔ عباد اللّه علی الأبرار هیمنـهٔ مقامهم علی شـهادهٔ أعمال الأبرار إنّ هذا المعنی هو من شؤون معنی الإمامهٔ، بل من مهامّها، فإنّ الشاهد علی الأعمال هو الهادی الذی یوصل المشـهود علیه إلی منازل الزلفی والقرب الإلهیّ ویهدیه إلی لقاء اللّه والمعاد.

وقوله تعالی: (الَّذِینَ یُنْفِقُونَ فِی السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْکَاظِمِینَ الْغَیْظَ وَالْعَافِینَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ یُحِبُّ الْمُحْسِنِینَ) («۴»).

تفسیر ملاحم المحکمات، ص: ۲۴۳

وقوله تعالی: (قُلْ إِنَّ رَبِّی یَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن یَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَیَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِن شَیْءٍ فَهُوَ یُخْلِفُهُ وَهُوَ خَیْرُ الرَّازِقِینَ) («۱»).

وقوله تعالی: (وَمَا تُنفِقُوا مِن خَیْرٍ یُوَفَّ إِلَیْکُمْ وَأَنْتُمْ لَاتُظْلَمُونَ) («۲»).

الثانیهٔ: ما یدلّ علی التوسّط فی الإنفاق ... ص: ۲۴۳

کقوله تعـالی: (وَلَـا تَجْعَـلْ یَـدَکَ مَغْلُولَـةً إِلَی عُنُقِـکَ وَلَـا تَبْسُـطْهَا کُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُـدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً* إِنَّ رَبَّکَ یَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن یَشَاءُ وَیَقْدِرُ إِنَّهُ کَانَ بِعِبَادِهِ خَبِیراً بَصِیراً) («۳»).

وقوله تعالی: (وَأَنفِقُوْا فِی سَبِیلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَیْدِیکُمْ إِلَی التَّهْلُکَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ یُحِبُّ الْمُحْسِنِینَ) («۴»).

وقوله تعالی: (وَالَّذِینَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ یُسْرِفُوا وَلَمْ یَقْتُرُوا وَکَانَ بَیْنَ ذلِکَ قَوَاماً) («۵»).

وقوله تعالی: (لِیُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَیْهِ رِزْقُهُ فَلْیُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا یُکَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا سَیَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ یُسْراً) («۶»).

وقوله تعالی: (یَسْأَ لُونَکَ مَاذَا یُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِن خَیْرٍ فَلِلْوَالِدَیْنِ وَالْأَقْرَبِینَ

تفسیر ملاحم المحکمات، ص: ۲۴۴

وَالْیَتَامَی وَالْمَسَاکِینِ وَابْنِ السَّبِیلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَیْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِیمٌ) («۱»).

وقوله تعالی: (وَیَسْأَ لُونَکَ مَاذَا یُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ کَذَ لِکَ یُبَیِّنُ اللَّهُ لَکُمُ الْآیَاتِ لَعَلَّکُمْ تَتَفَکَّرُونَ) («۲»).

لسان الأوّل من الروایات کمفاد الطائفهٔ الاولی من الروایات

فقد روی عنهم علیهم السـلام، وقد ورد فی الروایات السـتّهٔ فی النفقهٔ، ففی بعضـها عنهم علیهم السـلام: «اسـتنزلوا الرزق بالصدقهٔ، من أیقن بالخلف جاد بالعطیّهٔ، إنّ اللّه یُنزل المعونهٔ علی قدر المؤونهٔ» («۳»).

وورد عن علیّ علیه السلام فی «نهج البلاغهٔ»: «إذا أملقتم فتاجروا اللّه بالصدقهٔ» («۴»).

وورد عنهم علیهم السـلام: «لاـ یکمل إیمان العبـد حتّی یکون فیه أربع خصال: یحسن خُلقه، وتسـخو نفسه، ویمسک الفضل من قوله، ویُخرج الفضل من ماله» («۵»).

وعنه صلى الله عليه و آله فى وصيّة لأمير المؤمنين عليه السلام: «فأمّا الصدقة فجهدك جهدك حتّى تقول قد أسرفت، ولم تسرف» («۶»).

وعن أبان بن تغلب، عن أبى عبداللَّه عليه السلام فى حديث أنّه قال له: أخبرنى عن حقّ المؤمن على المؤمن، فقال له: دعه لا تردّه.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۴۵

قلت: بلى جعلت فداك، فلم أزل اردّد عليه.

قال: يا أبان، تقاسمه شطر مالك.

ثمّ نظر إلىَّ فرأى ما دخلنى، فقال: يا أبان، أما تعلم أنّ اللَّه قد ذكر المؤثرين على أنفسهم؟

قلت: بلى جعلت فداك.

فقال: أنت إذا قاسمته فلم تُؤثره بَعدُ، إنّما أنت وهو سواء، إنّما تُؤثره إذا أنت أعطيته من النصف الآخر» («۱»).

وفى حديث جميل أنّه قال لأبى عبداللَّه عليه السلام: مَنْ غُرَرُ أصحابى؟

قال عليه السلام: «هم البارّون بالإخوان فى العسر واليسر.

ثمّ قال: يا جميل، أما إنّ صاحب الكثير يهون عليه ذلك، وقد مدح اللَّه فى ذلك صاحب القليل، فقال فى كتابه: (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) («۲»)» («۳»).

وعنه عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام فى وصيّة النبىّ صلى الله عليه و آله لعلىّ عليه السلام، قال: «يا علىّ، ثلاث من حقائق الإيمان: الإنفاق من الإقتار، وإنصاف الناس من نفسك، وبذل العلم للمتعلّم» («۴»).

لسان الثانى: وهو كمفاد الطائفة الثانية:

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۴۶

ما روى عنهم عليهم السلام: «لا صدقة وذو رحم محتاج» («۱»).

وعنهم عليهم السلام: «فأعطِ الفضل ولا تعجز نفسك» («۲»).

وعن أبى عبداللَّه عليه السلام، قال: «سئل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: أىّ الصدقة أفضل؟

قال: على ذى الرحم الكاشح» («۳»).

وعنهم عليهم السلام: «لا يقبل اللَّه الصدقة وذو رحم محتاج» («۴»).

الطائفة الثالثة: وهى الجامعة بين اللسانين.

كموثّق سماعة، قال: «سألت أبا عبداللَّه عليه السلام عن الرجل ليس عنده إلّاقوت يومه أيعطف مَن عنده قوت يومه على مَن ليس عنده شىء؟ ويعطف على مَن عنده قوت شهر على مَن دونه؟ والسّنة على نحو ذلك؟ أم ذلك كلّه الكفاف الذى لا يُلام عليه.

فقال: هو أمران: أفضلكم فيه أحرصكم على الرغبة والإثرة على نفسه، فإنّ اللَّه عزّ وجلّ يقول: (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ).

والأمر الآخر لا يُلام على الكفاف، واليد العليا خير من اليد السفلى، وإبدأ بمن تعول» («۵»).

وفى رواية علىّ بن سويد السائى، عن أبى الحسن موسى عليه السلام حيث اشتكى

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۴۷

الراوى له عليه السلام قلّة ذات يده، فقال عليه السلام: تصدّق بما رزقك اللَّه ولو آثرت على نفسك» («۱»).

وفى موثّق أبى بصير، عن أحدهما عليهما السلام، قال: «قلت: أىّ الصدقة أفضل؟

قال: جُهد المُقلّ، أما سمعت اللَّه تعالى يقول: (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) ترى هاهنا فضلًا» («۲»).

وموثّق مسعدة بن صدقة، عن أبى عبداللّه عليه السلام فى حديث طويل من احتجاج الصوفيّة عليه بقوله تعالى: (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ).

فقال عليه السلام: إخبار اللّه عزّ وجلّ إيّانا فى كتابه عن القوم الذين أخبر عنهم بحسن فعالهم، فقد كان مباحاً جائزاً ولم يكونوا نهوا عنه وثوابهم منهم على اللّه عزّ وجلّ، وذلك أنّ اللّه جلّ وتقدّس أمر بخلاف ما عملوا به، فصار أمره ناسخاً لفعلهم، وكان نهى اللّه تبارك وتعالى رحمة منه للمؤمنين ونظراً، لكى لا يضرّوا بأنفسهم وعيالاتهم، منهم الضعفة الصغار، والولدان، والشيخ الفانى، والعجوز الكبيرة، الذين لا يصبرون على الجوع» ... الحديث.

ثمّ بيّن عليه السلام أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال مبيّناً قوله تعالى: (لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا)، وقوله تعالى: (وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ) يقول: «إنّ الناس قد يسألونك ولا يعذرونك، فإذا أعطيت جميع ما عندك من المال، كنت قد حُسرت من المال» («۳»).

وقوله عليه السلام فى توقيعه للحميرى: أنّه كتب إليه يسأله عن الرجل ينوى إخراج شىء من ماله وأن يدفعه إلى رجل من إخوانه، ثمّ يجد فى أقربائه محتاجاً أيصرف

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۴۸

ذلك عمّن نواه له إلى قرابته؟

فأجابه عليه السلام: يصرفه إلى أدناهما وأقربهما من مذهبه، فإن ذهب إلى قول العالم عليه السلام:

لا يقبل اللّه الصدقة وذو رحم محتاج، فليقسم فى القرابة وبين الذى نوى حتّى يكون قد أخذ بالفضل كلّه» («۱»).

وغيرها من الروايات الجامعة المؤلّفة بين ألسن طوائف الآيات والروايات ويتحصّل منها عدّة وجوه من الجمع:

الأوّل: إنّ الإيثار فى موارد لا تسبّب تصدّع قوام المعيشة بحيث يكون سبباً لإقعاد المرء عن معيشته، بخلاف ما إذا لم تكن كذلك، فالوسطيّة فى الإنفاق للمحافظة على قوام المعيشة.

الثانى: إنّ الإيثار فى الموارد التى يصبر فيها المنفق أو يصبر ذووه مع كون مورد النفقة هو من أشدّ منه حاجة، بخلاف التوسّط فإنّه فى الموارد الاخرى.

الثالث: إنّ الإيثار خلق خاصّ رفيع شديد كمعالى الإحسان، فهو سياسة خاصّة بينما التوسّط فى الإنفاق هو سياسة عامّة.

ومن ثمّ ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «سئل عليه السلام أيّهما أفضل العدل أم الجود؟

فقال عليه السلام: العدل يضع الامور مواضعها، والجود يُخرجها من جهتها، والعدل سائس عامّ، والجود عارض خاصّ، فالعدل أشرفهما وأفضلهما» («۲»).

أى أنّ العمل مقياس عامّ يحمل عليه عامّة الناس، وأمّا الإحسان مع أنّه من المعالى لا يجعل ضابطة لعموم الناس لا يجابه حينئذٍ الاخلال بالنظم العامّ،

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۴۹

وهذا ما يشير إليه الإمام الصادق عليه السلام فى موثّقة مسعدة.

الرابع: إنّ الإيثار فى المورد الذى لا يمنع ولا يزاحم بحقوق اخرى كما فى مورد النبىّ صلى الله عليه و آله حيث أنه وليّ عام، فاللازم فى شأنه صلى الله عليه و آله أن لا يبسطها لكى يعمّ فى عطائه للجميع، وكذلك لو كان له ذو قرابة ونحو ذلك، فمن ثمّ لا بدّ من ضبط الموارد والموازنة بين الفضائل فيما بينها والواجبات فيما بينها.

قاعدة: العموم والخصوص فى الفضائل ... ص: ۲۴۹

وممّا تقدّم يتبيّن أنّ الفضائل والمكارم والمعالى، قسم منها خاصّ، وقسم منها عامّ، فصرف كون المكرمة مكرمة، والفضيلة فضيلة، لا

يعنى عموميّتها للكلّ، ومن ثمّ ورد أنّ لأهل اليقين طرائق ومناهج يختصّون بها فوق أهل التقوى، وكذلك للمتّقين فوق المؤمنين، وللمؤمنين فوق المسلمين، ومن ذلك ما نسب له صلى الله عليه و آله: «حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين» («۱»).

وكذلك ماورد أنّ للإيمان عشر درجات، وأنّ صاحب الدرجة الدانية لا يتحمّل ما يتحمّله صاحب الدرجة العالية، وأنّ أبا ذرّ لو علم ما فى قلب سلمان لقتله («۲»).

ومنه قول علىّ بن الحسين عليهما السلام:

إنّى لأكتم من علمى جواهره كيلا يرى الحقّ ذو جهلٍ فيفتتنا

وقد تقدّم فى هذا أبو حسن إلى الحسين وأوصى قبله الحسنا

فربّ جوهر علم لو أبوح به لقيل لى أنت ممّن يعبد الوثنا («۳»)

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۵۰

ومن ذلك يتبيّن أنّ هذا ليس مختصّاً بالفضائل والمكارم، بل يعمّ المعارف والعقائد أيضاً، فإنّ قسماً وافراً من المعتقدات الحقّة البرهانيّة والقرآنيّة لا يتحمّل إدراكها عموم الناس، بل لا يتحمّلون سماعها، فضلًا عن الإذعان بها، وكذلك الحال فى بعض مندوبات الفضائل والمكارم، فإنّ سماعها من العامّة يوجب شيوع الفساد فى أعمالهم بدل الصلاح والإصلاح.

ومن ذلك يتبيّن أنّ ما أورده القرطبى خلط بين الفضيلة الخاصّيّة والفضيلة العامّة، والغريب منه أنّه ناقض نفسه فيما ذكره فى ذيل آية فى سورة الحشر حيث ذكر ما روته العامّة من رواية فى إيثار عائشة وابن عمر وعمر بن الخطّاب وأبى عبيدة الجرّاح، ومعاذ بن جبل، فقال: «فإن قيل: وردت أخبار صحيحة فى النهى عن التصدّق بجميع ما يملكه المرء، قيل له: إنّما كره ذلك فى حقّ مَن لا يوثق منه الصبر على الفقر وخاف أن يتعرّض للمسألة إذا فقد ما ينفقه، فأمّا الأنصار الذين أثنى اللَّه عليهم بالإيثار على أنفسهم فلم يكونوا بهذه الصفة، بل كانوا كما قال اللَّه تعالى: (وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ) («۱»)، وكان الإيثار فيهم أفضل من الإمساك، والإمساك لمن لا يصبر ويتعرّض للمسألة أوْلى من الإيثار».

وقال قبل ذلك أيضاً: «الإيثار هو تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنياويّة ورغبة فى الحظوظ الدينيّة، وذلك ينشأ من قوّة اليقين وتوكيد المحبّة والصبر على المشقّة».

وقال أيضاً: «والإيثار بالنفس فوق الإيثار بالمال، وإن عاد إلى النفس، وفى عبارات الصوفيّة الرشيقة فى حدّ المحبّة أنّها الإيثار وأفضل الجود بالنفس

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۵۱

الجود على حماية رسول اللَّه صلى الله عليه و آله» («۱»)، انتهى.

ولا عجب فى أنّ تعميه العصبيّة فينكره فى أهل البيت ويقبله فى غيرهم امتثالًا للأمر فى قوله تعالى: (قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) («۲»)، وإلّا فمن آثر النبىّ ليلة المبيت بنفسه وفى بدر واحد، وكان يدور حول رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فقال جبرئيل يوم احد: يا محمّد، إنّ هذه لهى المواساة من علىّ، قال: لأنّه منّى وأنا منه.

فقال جبرئيل: وأنا منكما يا رسول اللَّه («۳»).

وكذلك فى حنين وخيبر والأحزاب والخندق فى بروزه لعمرو بن عبد ودّ وجبن جميع الصحابة، وورد فى المبرزين منهم فى خيبر أنّه رجع غير واحد يجبّن أصحابه ويجبّنونه، وفرارهم فى احد معلوم حتّى عيّرهم بها اللَّه عزّ وجلّ فى كتابه.

فيتبيّن من ذلك من هو أشدّ حبّاً للَّهولرسوله من علىّ، وثمّ قال اللَّه تعالى فيه: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ) («۴»)، وقال فيه رسول اللَّه:

«لأعطينّ الراية غداً رجلًا يحبّ اللَّه ورسوله، ويحبّه اللَّه ورسوله، كرّاراً غير فرّار، لا يرجع حتّى يفتح اللَّه على يديه» («۵»).

ولا يخفى أنّ قوله تعالى: (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۵۲

هى من الآيات النازلة فى علىّ عليه السلام وأصحاب الكساء عليهم السلام، وقد بسطنا القول فى ذلك ثمّة.

الجهة الثانية: الإيثار وإقامة العدل ... ص: ۲۵۲

ربّما يطرح تساؤل عن أسباب نزول سورة بأكملها فى أصحاب الكساء نتيجة فعل واحد فى حادثة ما، وهو الإيثار فى مورد معيّن، فما هو وجه التأكيد والاهتمام القرآنى بذلك وتعظيمه، وهل هو من الأهمّيّة بمكان بحيث يستحقّ مثل هذا التركيز.

والإجابة على ذلك: أنّ صفة الإيثار التى اهتمّت بها السورة هى صفة ضرورىّ توفّرها فى الحاكم كى يتسنّى له إقامة العدل فى الأرض، وبدونها يمتنع إرساء قواعد العدل، فالإيثار لا بدّ من توفّره فى الحاكم على صعيد تنظيم القانون والتقنين، فضلًا عن صعيد التطبيق والتنفيذ.

كما أنّ أساب العدوان والظلم والعداوة فى الأرض هو حبّ النفس الذى هو رأس كلّ خطيئة وهو معلَم طبيعة الحياة الدنيويّة، كما قال تعالى: (اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) («۱»).

ولا يظنّ ظانّ أنّ الإيثار واقعة ما فى مورد، بل له مواطن ومنازل ودرجات وأنواع، وربّ مؤثر فى مورد حريص طامع فى آخر، أو صاحب إيثار فى درجة لكنّه يتقاصر عنه فى درجة اخرى، إذ لكلّ فضيلة من الفضائل أبواب ومنازل ومقامات وعقبات وآفاق تختلف وتتنوّع وتتلوّن بحسبها، كما أنّ لها درجات تشتدّ وتضعف بحسبها.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۵۳

فالسورة الشريفة تبيّن أساس الصلاح والإصلاح والعدل فى الأرض يكمن فى صفة للحاكم كما أنّها ترشد إلى أنّ أساس الظلم والجور يرجع إلى حبّ النفس والذات. كيف لا والإيثار خلوص وخلاص من النفس وإخلاص للّه، فدرجات الإخلاص مقرونة بدرجات الإيثار، ومَوَتان، وتماوت النفس. وفى قبالها الظلم والجور يرجع إلى حبّ النفس، وإذا اشتدّ صار تكبّراً وفرعونيّة وادّعاء للربوبيّة، ولم يرشّح القرآن لقصّة مقام الإيثار من المصطفين والمنتجبين والمطهّرين من الأنبياء والمرسلين والحجج سوى أهل البيت فى قوله تعالى: (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِن أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَىْ لَايَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ) («۱»).

فعلّلت الآية حصر ولاية ثروات الأرض (الفيء) باللّه وبرسوله وبذى القربى أنّه لأجل استتباب العدل ولئلّا تكون الأموال حكراً على الأغنياء، وفى الآية ملحمة يشير إليها القرآن، كما تقدّمت الإشارة إليها فى سورة الحشر من أنّ إرساء العدل فى الأرض لم ولن ولا يتم إلّابأهل البيت عليهم السلام، وهذا ما نشهده فى تاريخ البشريّة والعصر الراهن حيث لم يتمّ الوصول إلى العدل على صعيد النظريّة والتنظير، فما بالك على صعيد التنفيذ، فإنّ كلّاً من الشيوعيّة فى قبال الرأسماليّة، ثمّ من بعدها الاشتراكيّة، وكذلك الليبراليّة أو نظام السوق أو التجارة الحرّة، أو غيرها من الاطروحات البشريّة لم تستطع إلى حدّ الآن أن تتوصّل إلى تنظير الاقتصاد العادل والقوانين الماليّة العادلة والسياسة النقديّة ولا النظام المصرفى ولا التجارى والصناعى ولا الزراعى ولا فى بقيّة البيئات والمجالات والأصعدة بحيث تقتلع الاقطاع والاستئثار والأثرة من على وجه الأرض.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۵۴

فالبشريّة عاجزة فى مقام العلم والمعرفة بالقوانين المتكفّلة للعدالة فضلًا عن مقام العمل والأداء، فهو ممّا يتوقّف على إمداد لدنىّ إلهىّ فى الجانب العلمىّ والجانب العملىّ.

ومن ثمّ ورد فى سيرة أمير المؤمنين عليه السلام فى خلافته، وكذلك ستكون سيرة الإمام المهدىّ أنّه على الجَشَب والتقشّف وخشونة

العيش ولباسه الغليظ وطعامه الشعير.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۵۵

مقام أصحاب الأعراف

اشارة

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۵۷

(وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَاوَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ* الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ* وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلّاً بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ* وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَاتَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ* وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُم قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ* أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَايَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَاخَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ* وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ) («۱»)

۱- مَن هم أصحاب الأعراف ...؟ ص: ۲۵۷

قد احتدم البحث بين المفسّرين فى معرفة الرجال الذين هم على الأعراف، وما المقصود بالأعراف؟

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۵۸

ولطائف دلائل الآيات كما تنبّه عليه روايات أهل البيت عليهم السلام تشير بشكل متّسق على أنّهم أرفع مقاماً من أصحاب الجنّة، وأنّهم مشرفون مهيمنون على كلّ من الفريقين (أىعلى أصحاب الجنّة وأصحاب النار)، وأنّهم يداينون كلّاً من الفريقين بالحساب، وأنّ أصحاب الأعراف ولاة الحساب وديّانون يوم الدين، وبهم يقام الجزاء لكلّ فريق يوم الجزاء.

وبيان ذلك: أنّ الآيات الشريفة المتقدّمة بمناداة أصحاب الجنّة لأصحاب النار، ثمّ تبيّن الآيات أنّ هناك حجاب بين الفريقين بقرينة:

أوّلًا: وصف الرجال الذين هم على الأعراف أنّهم يعرفون كلّاً من الفريقين بسيماهم، وهذا مقام رفيع، وهو علم التَّوسُّم، وأصحاب الأعراف هم المتوسّمون الذين اشير إليهم فى قوله تعالى: (إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ) («۱»)، ومعرفة كلّاً من الفريقين بسيمائهم يدلّ على أنّ الرجال الذين هم أصحاب الأعراف هم الشهداء على أعمال الناس، أىأنّ لهم مقام الشهادة الذى اشير إليه فى الآيات العديدة المتعرّضة للشهادة على الأعمال، وسيأتى بيان هويّتهم بحسب الآيات الاخرى المشيرة إلى أنّهم أهل البيت عليهم السلام.

وثانياً: إنّ فى بيان أنّ المعرفة للفريقين بسيمائهم دلالة على أنّ الفريقين لمّا يدخلوا الجنّة والنار، وإلّا لكانت المعرفة بمثواهم لا بسيمائهم، أىأنّ هذا المشهد التى تتعرّض له الآيات هو قبل دخول الفريقين إلى الجنّة والنار، أى مع كونهم فى عرصات المحشر، ولا ينافى ذلك قول أصحاب الجنّة لأصحاب النار فى بدايات الآيات: (أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَاوَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً)، وذلك لأنّ وجدان الوعد الإلهى حقّاً يتمّ بقيام القيامة والحشر ومشاهدة

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۵۹

فزع وأهوال ذلك اليوم، كما أنّ الجنّة والنار تشاهدان قبل الدخول إليهما.

وثالثاً: تبيّن الآية (۴۶) أنّ أصحاب الأعراف ينادون أصحاب الجنّة ويسلّمون عليهم، وهذا ممّا يدلّ على أنّ لأصحاب الأعراف مقام إشراف، لأنّهم يبشّرون أصحاب الجنّة بدار السلام، وهى الجنّة.

ورابعاً: قوله تعالى: (لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ) قد وقع أكثر المفسّرين فى غفلة فى إرجاع الضمير، حيث أرجعوا الضمير إلى رجال أصحاب الأعراف، والحال أنّ الضمير يرجع إلى الأقرب، وهم أصحاب الجنّة، أى أنّ أصحاب الجنّة لم يدخلوا الجنّة بعد وهم لا زالوا فى أرض المحشر وهم يطمعون فى دخولها.

وكذا قوله تعالى: (وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَاتَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ).

وربّما يُعترض بأنّ هذه الآية (۴۷) دالّة على أنّ أصحاب الجنّة عرفوا أصحاب النار بأنّهم قوم ظالمون، وأنّهم من أصحاب النار، بينما الآيات السابقة تبيّن ميزة وخصيصة خاصّة بأصحاب الأعراف أنّهم هم الذين يعرفون الفريقين بسيماهم.

والإجابة عن ذلك:

أنّ تخصيص أصحاب الأعراف بتحيّة أصحاب الجنّة بالسلام عليهم دون أصحاب النار، مع كون أصحاب الأعراف على مكانة عالية فى ذلك المشهد؛ بشارة وإفصاح بوصف أصحاب الجنّة، وتمييزهم عن أصحاب النار.

خامساً: الآية (۴۸) من قوله تعالى: (وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ) تبيّن أنّ الرجال الذين هم على الأعراف قد عُبّر عنهم فى هذه الآية بأصحاب الأعراف، وأنّهم ينادون مرّة اخرى رجالًا من أصحاب النار، فالمناداة من أصحاب الأعراف لكلا الفريقين إشراف على كلّ أصحاب المحشر، والمناداة لجميعهم تفيد

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۶۰

أنّ لأصحاب الأعراف مقام المحاسبة والمداينة لكلّ من فريق أصحاب الجنّة فيبشّروهم بدار السلام، وهو إثابتهم لأصحاب الجنّة جزاء أعمالهم، كما أنّ أصحاب الأعراف يتوعّدون روّاد أصحاب النار ويقرعون بالعتاب، وأنّ أصحاب الأعراف يعرفون اولئك الرجال بسيماهم، كما مرّ نعت أصحاب الأعراف بذلك فى الآية (۴۶).

سادساً: فيقول أصحاب الأعراف لُاولئك الرجال من أصحاب النار (مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ)، وهذه المقالة من أصحاب الأعراف لروّاد أصحاب النار هى محاسبة ومداينة منهم لأصحاب النار.

ويظهر أنّ أصحاب الأعراف يخاطبون بهذا المقال أئمّة الضلالة أو الكفر.

سابعاً: تبيّن هذه الآية أنّ أصحاب الأعراف هم الشهداء على أعمال الخلق لمعرفتهم بأعمالهم.

ثامناً: تتابع أصحاب الأعراف قولهم للرجال الذين هم أئمّة الضلال أو الكفر مخاطبين إيّاهم: (أَهؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ) والمشار إليهم فى هؤلاء هم أصحاب الجنّة، والمشير هم أصحاب الأعراف، والمخاطب هم أئمّة الضلال أو الكفر، أى فيقول أصحاب الأعراف مخاطبين أصحاب النار: (أَهؤُلَاءِ) أى أصحاب الجنّة (الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ) أنتم أئمّة الضلالة والكفر (لَايَنَالُهُمُ) لا ينال اللّه أصحاب الجنّة الذين كانوا مستضعفين فى الدنيا، (اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ).

تاسعاً: تتابع الآية إيذان أصحاب الأعراف وإعطاءهم الإذن لأصحاب الجنّة بدخول الجنّة، قولهم لهم (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَاخَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ)، وهذا ممّا يبيّن أنّ أصحاب الأعراف هم ولاة إقامة الحساب الموكّلين على ذلك من قِبل اللّه تعالى، كما أنّهم ولاة الجنّة يأذنون لأصحاب الجنّة بدخولها، كما أنّهم

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۶۱

يعاتبون ويقرّعون أئمّة الضلال والكفر، وهذا يدلّل على تمكينهم مقام المحاسبة والمجازاة، ويوكل إليهم منه تعالى مقام ديّان يوم الدين بإذن منه تعالى وإقدار لهم على ذلك.

عاشراً: كما أنّ التعبير المتقدّم فى الآية (وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ) بورود لفظ (وَعَلَى) التى هى للعلوّ والإشراف، يفيد إعطاءهم المعرفة بأعمال الخلائق ولمقام الشهادة على الخلق وعلى أعمالهم، وأنّهم المعنيّون بقوله تعالى:

(لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً) («۱»)، ثمّ تتابع الآيات (۵۰) نداء أصحاب النار أصحاب الجنّة بعد دخولهم

الجنّة، فيطلبون منهم أن يفيضوا عليهم من الماء وممّا رزقهم اللّه من النعيم فى الجنّة فيجيبهم أصحاب الجنّة (إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ).

۲- أصحاب الأعراف: أصحاب المعرفة، وهم أهل البيت عليهم السلام ... ص: ۲۶۱

فقد ورد فى الروايات عنهم عليهم السلام كما فى «تفسير القمّى» و «الكافى» و «معانى الأخبار» أنّ المؤذّن بين الفريقين هو علىّ عليه السلام، بل روى ذلك فى مصادر العامّة («۲»)، كما ورد فى مستفيض الروايات أنّهم الرجال الذين على الأعراف يعرفون كلّا بسيماهم، وأنّهم الأعراف الذين يعرفون أنصارهم بسيماهم، وأنّهم الأعراف الذين لا يُعرف اللّه عزّ وجلّ إلّابسبيل معرفتهم.

فقد روى فى «الكافى» عن مقرن، قال: «سمعت أبا عبداللّه عليه السلام يقول: جاء

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۶۲

ابن الكوّاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: يا أمير المؤمنين، (وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ)، فقال: نحن على الأعراف، ونحن نعرف أنصارنا بسيماهم، ونحن الأعراف الذين لا يُعرف اللّه عزّ وجلّ إلّابسبيل معرفتنا، ونحن الأعراف يوقفنا اللّه عزّ وجلّ يوم القيامة يوم الصراط، فلا يدخل الجنّة إلّامن عرفنا وعرفناه، ولا يدخل النار إلّامن أنكرنا وأنكرناه.

إنّ اللّه تبارك وتعالى لو شاء لعرّف الناس نفسه حتّى يعرفوا حدّه، ويأتوه من بابه، ولكنّه جعلنا أبوابه وصراطه وسبيله وبابه الذى يؤتى منه، فمن عدل عن ولايتنا أو فضّل علينا غيرنا، فهم على الصراط لناكبون، فلا سواء من اعتصم الناس به ولا سواء حيث ذهب الناس إلى عيون كدِرةٌ يفرع بعضها فى بعض، وذهب من ذهب إلينا إلى عيون صافية تجرى بأمر ربّها، لا نفاد لها ولا انقطاع» («۱»).

وفى هذا الحديث أشار عليه السلام إلى ثلاثة معانى للأعراف:

۱- ما فى ظاهر الآية الكريمة من معرفتهم عليهم السلام لأنصارهم.

۲- كونهم من معالم الطريق إلى معرفة اللّه عزّ وجلّ.

۳- كونهم من معالم الطريق والصراط إلى الآخرة.

وهذا المعنى الثالث يستشفّ من آيات الأعراف، وبمضمون هذا الحديث جملة أحاديث اخرى، ذكرها فى «تفسير البرهان» فى ذيل الآية، فلاحظ.

ويشير إلى المعنى الثانى ما فى نفس السورة من الآية (۴۰) من قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَاتُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذلِكَ نَجْزِى الْمُجْرِمِينَ)، وقد مرّ تفصيل

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۶۳

مفاد الآية، وأنّ المراد بهذه الآيات التى هى أبواب سماء الحضرة الإلهيّة هم حجج اللّه، فهم أبواب معرفته تعالى، وهم حجج اللّه على البلايا، وهم الذين لا يدخل أحد الجنّة إلّابتصديقهم ومعرفتهم وطاعتهم والتولّى لهم، فتطابق الآية آيات (وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ) فى المعنى الثانى والثالث، وقد روى الشيبانى فى تفسيره عن أبى جعفر محمّد بن علىّ بن الحسين عليهم السلام:

«الرجال هاهنا الأئمّة عليهم السلام يكونون على الأعراف حول النبىّ صلى الله عليه و آله يعرفون المؤمنين بسيماهم فيدخلون الجنّة كلّ مَن عرفهم وعرفوه، ويدخلوه النار كلّ من أنكرهم وأنكروه» («۱»).

وفى هذه الرواية إشارة إلى أنّ رئيس مجموعة أصحاب الأعراف، والذى يشرف عليهم، هو سيّد الأنبياء، وسيأتى فى آيات الشهادة على الأعمال تطابقها مع آيات أصحاب الأعراف، وأنّ الشاهد على الشهداء على أعمال الخلائق هو رسول اللّه صلى الله عليه و آله.

قال فى «لسان العرب»: «عريف القوم: سيّدهم، والعريف: القيّم والسيّد لمعرفته بسياسة القوم، والعريف: النقيب، والجمع عرفاء. وعن

ابن عبّاس:

أهل القرآن عرفاء أهل الجنّة» («۲»).

وقال فى «مفردات الراغب»: «والعريف بمن يعرف الناس ويعرّفهم، قال الشاعر: (بعثوا إلىَّ عريفَهم يتوسّم)» («۳»).

وفى «اللسان» أيضاً: «وعرف الرمل والجبل وكلّ عال، ظهره وأعاليه،

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۶۴

والجمع أعراف، وقوله تعالى: (وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ)، الأعراف فى اللغة جمع عرف، وهو كلّ عالٍ مرتفع. قال الزجّاج: الأعراف أعالى السور ...، قال:

ويجوز أن يكون معناه- واللّه أعلم-: على الأعراف على معرفة أهل الجنّة وأهل النار هؤلاء الرجال ... وقيل: أصحاب الأعراف أنبياء، وقيل: ملائكة، ومعرفتهم كُلّاً بسيماهم أنّهم يعرفون أصحاب الجنّة بأنّ سيماهم إسفار الوجوه والضحك والاستبشار كما قال تعالى: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ* ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ) ويعرفون أصحاب النار بسيماهم، وسيماهم سواد الوجوه وغبرتها ... والعرف:

الرمل المرتفع» («۱»).

فيلاحظ من كلمات اللغويّون أنّ مادّة الأعراف معنى متّصل بالمعرفة وبالمقام العالى، وهذا هو الذى ترشد إليه الآية من قوله تعالى: (وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلّاً بِسِيمَاهُمْ).

وقد مرّ أنّ أصحاب الأعراف بحسب الآيات المتقدّمة يعرفون أعمال أصحاب الجنّة كما يعرفون أعمال أصحاب النار.

۳- من مقوّمات الإمامة: الشهادة على الأعمال ومقام الأعراف ... ص: ۲۶۴

وقد عبّر عن مقام معرفة أعمال العباد فى طوائف الآيات القرآنيّة الاخرى بمقام الشهادة على أعمال العباد، وأفصح عنهم أنّ رئيسهم النبىّ صلى الله عليه و آله ومن بعده أهل بيته، كما فى قوله تعالى: (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِن أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هؤُلَاءِ) («۲»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۶۵

وقوله تعالى: (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هؤُلَاءِ شَهِيداً) («۱»)، فهاتان الآيتان وغيرهما تفصح عن أنّ الشهيد والرئيس على شهداء الأعمال هو سيّد الأنبياء صلى الله عليه و آله، وكذا قوله تعالى: (هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِن حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) («۲»).

وفى هذه الآية تصريح بأنّ الشهداء على جميع الناس هم من هذه الامّة الإسلاميّة من نسل إبراهيم وإسماعيل، أىهم الذين اشير إليهم فى سورة البقرة فى قوله تعالى- على لسان إبراهيم وإسماعيل-: (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ* رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) («۳»).

(وَكَذَ لِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً) («۴»).

فهذه الامّة المسلمة التى هى بعض ذرّيّة إبراهيم وإسماعيل هى التى سمّاهم إبراهيم عليه السلام بالمسلمين، وهم مجتبون (أىمصطفون)، وهم الشهداء على الناس

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۶۶

والرسول عليهم شهيداً (أىهم الذين دعا فى شأنهم إبراهيم عندما قال له تعالى:

(إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَايَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ) («۱»)، وهم الذين دعا فى شأنهم النبىّ إبراهيم أن يبعث سيّد

الأنبياء فيهم ويعلّمهم الكتاب كلّه والحكمة ويزكّيهم، فهم من ذرّيّة إبراهيم وإسماعيل وعلى صلة بخاتم الأنبياء، كما يشير إليه قوله تعالى: (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) («۲»)، فهم امّة من ذرّيّة إبراهيم وإسماعيل لا كلّ ذرّيّة إسماعيل وكلّ قريش، فهم المعنيّون بقوله تعالى فى سياق تلك الآيات، (وَكَذَ لِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً)، أىالتى فى قول إبراهيم وإسماعيل (وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَّكَ).

وممّا يؤكّد أنّ المراد من (المجتبون) من ذرّيّة إسماعيل الذين دعا إبراهيم أن تكون الإمامة فيهم أيضاً، وهم من قربى سيّد الأنبياء، والذين أنذرهم بالإنذار الخاصّ دون الإنذار العامّ عامّة البشريّة.

وممّا يفصح عن كون الامّة الوسط الذين هم الشهداء على الناس وعلى أعمالهم هم أهل البيت عليهم السلام ما تفيده آية التطهير (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) («۳»)، وسورة الواقعة من قوله تعالى:

(إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ* فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ* لَايَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) («۴»)، حيث أنّ مسّهم واطّلاعهم على الكتاب المكنون فى اللوح المحفوظ وهو الكتاب المبين الذى يستطر فيه كلّ شىء، فما من غائبة فى السماء ولا أكبر ولا أصغر إلّافيه، ومن

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۶۷

ثمّ وبتوسّط علمهم بالكتاب المبين يعلمون صحائف أعمال العباد، ويكونون هم المعنيّون فىقوله تعالى: (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) («۱»)، فسورة الحجّ بيّنت أنّ الشهداء على الناس هم من نسل إبراهيم وإسماعيل من ذرّيتهما وقد سمّاهم إبراهيم بالامّة المسلمة، أىدعا لهم بذلك وهم المجتبون من قِبل اللّه تعالى.

وفى سورة البقرة بيّنت أنّ هذه الذرّيّة والامّة المسلمة قد دعا النبىّ إبراهيم أن يبعث فيهم خاتم النبيّين ليعلّمهم الكتاب كلّه، وهم بعض ذرّيّة إسماعيل لا كلّهم، وأنّ هم الذين دعا النبىّ إبراهيم فى حقّهم أن تكون فيهم الإمامة باقية إلى يوم القيامة.

وقد وصف الإمام فى سورة ياسين: (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِى إِمَامٍ مُبِينٍ) («۲»)، والمهيمن عليهم هو خاتم النبيّين.

وممّا يجدر الالتفات إليه أنّ أصحاب الأعراف وهم أهل البيت وزعيمهم سيّد الأنبياء (صلوات اللّه عليهم أجمعين) قد نعتتهم سورة الأعراف أنّهم يعرفون أصحاب الجنّة من الأوّلين والآخرين وأصحاب النار من الأوّلين والآخرين، بل مقتضى شهادتهم على الناس أجمعين أنّهم شاهدون وحاضرون عند أعمال الخلائق من أوّل الدنيا إلى آخرها، لا بحضور أبدانهم الشريفة المخلوقة من الولادة، بل بمراتب وجودهم العِلويّة، كما ورد عنه صلى الله عليه و آله: «كنت نبيّاً وآدم بين الماء والطين» («۳»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۶۸

ويشير إلى ذلك قوله تعالى فى سورة النحل المتقدّمة الآية (۸۹)، حيث يكون الرسول صلى الله عليه و آله شاهداً على كلّ شاهد من كلّ امّة من الامم، أىجميع الامم من الأوّلين والآخرين.

وكذا ما فى سورة النساء (۴۱)، ومقتضى كونه صلى الله عليه و آله شاهداً على الشهداء أنّه تحمّل تلك الشهادة فى مشهد الأعمال، كما أنّ إطلاق الناس فى قوله: (لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)، والآية (۷۸) من سورة الحجّ (وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)، كما أنّ ذلك مقتضى مسّهم الكتاب كلّه الذى يستطر فيه كلّ شىء، فتحصّل من مجموع هذه الآيات أنّ الإمام هو الذى يحصى اللّه تعالى فيه العلم والمعرفة بأعمال جميع العباد، ومن ثمّ يكون صاحب الأعراف يعرف كلّ فريق بسيماهم وهو مقام الشهادة على أعمال العباد.

۴- النبىّ صلى الله عليه و آله إمام الأئمّة ... ص: ۲۶۸

ويدلّ على ذلك الآيات المتقدّمة الدالّة على أنّ النبىّ صلى الله عليه و آله شاهد على الأشهاد وعلى جميع الشهداء على أعمال العباد، ومقام الشهادة قد مرّ أنّه مقام الإمامة.

ويظهر من قوله تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً) («۱»).

(إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا) («۲»)، إنّ مقام إمامة النبيّ صلى الله عليه و آله مقدّم على رسالته ونبوّته، كما أنّ مقام إمامته مقدّم على مقام إمامة أهل بيته، فضلًا عن جميع الأنبياء والرسل، ومن ثمّ كان صلى الله عليه و آله شاهداً

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۶۹

على أهل بيته، وأهل بيته شهداء على الناس، كما أنّه صلى الله عليه و آله شاهداً على جميع الشهداء على جميع الامم.

۵- أهل البيت الحكّام وولاة الحساب يوم الدين بإذن اللّه ... ص: ۲۶۹

اشارة

أوّلًا: يدلّ على ذلك إشهادهم أعمال العباد، كما فى آيات الشهادة المتقدّمة، إذ لا يفصل الحساب إلّابإقامة الشهادة، ويشير إليه قوله تعالى: (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) («۱»)، فسمّى يوم الحساب يوم الأشهاد تنبيهاً على أهمّيّة إقامة الشهادة فى الحساب.

وكذا قوله تعالى: (أُولئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِين كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) («۲»).

ثانياً: وكذلك ما ورد من الآيات أنّه لا تحاسب أىامّة يوم القيامة إلّابمجيء الحجّة التى اصطفاها اللّه عليهم من بينهم، إماماً كان أو رسولًا، كقوله تعالى:

(يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ) («۳»)، أى كلّ امّة تدعى إلى حسابها بإمامها الذى جعله اللّه حجّة.

وقوله تعالى: (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) («۴»)، ولعلّ المراد بالرسول هنا ليس خصوص النبيّ والرسول، وإنّما مطلق من انتدب إلى مأموريّة إلهيّة من قِبل اللّه تعالى.

ثالثاً: ما فى آيات الأعراف من معرفة أصحاب الأعراف، وقد تقدّم فى الدلالة

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۷۰

القرآنيّة بأنّهم أهل البيت عليهم السلام لكلّ وجميع أصحاب الجنّة وأصحاب النار، ثمّ أعطائهم البشارة لأصحاب الجنّة (أن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ).

ثمّ عتابهم وتقريعهم روّاد أصحاب النار: (مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ)، وهو نمط من الحساب والمداينة، ثمّ إذنهم لأصحاب الجنّة بدخول الجنّة (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَاخَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ).

كما أنّ نعتهم بأنّهم (على الأعراف) أىمقام هيمنة وإشراف، وأنّ نعتهم (يعرفون كلّاً بسيماهم)، أىيعرفون صحائف أعمال البشر وما آلت إليه مصائرهم نتاجاً لأعمالهم، وقد خصّصت آيات الأعراف هذه المعرفة فى ذلك بهم دون غيرهم، وقد تقدّم أنّ الأعراف بحسب اللغة هى علوّ المكان والمقام.

كما أنّ مناداة أصحاب الأعراف لكلا الفريقين إشراف على جميع أصحاب المحشر للدلالة على أنّ لهم مقام المحاسبة والمداينة لكلّ من فريق أصحاب الجنّة، فيبشّروهم، ولأصحاب النار فيقرّعوهم.

كما أنّ التعبير فى قوله تعالى: (فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ)، أىبين الفريقين: فريق الجنّة والنار، أىينادى هذا المنادى بين الفريقين: (أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ* الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ).

فحيث وصف أنّ هذا المؤذّن هو بين الفريقين، أىهو من الفريق الثالث، وهم أصحاب الأعراف، كما صرّحت الآيات اللّاحقة بعتاب أصحاب الأعراف لروّاد أصحاب النار بنفس النبرة واللحن، وكلّ هذه التصرّفات والشؤون المذكورة لأصحاب الأعراف هى من موقع

المحاسب ووليّ المداينة، فهم مظهر ديّان يوم الدين، ضابطة أسماء الأفعال الإلهيّة ونعوتها إلى ولاته وأوليائه، وهذا على وتيرة نعت اللّه تعالى للمحيى والمميت، وأنّ (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۷۱

لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا) («۱»)، ومع ذلك قد أسندت الإمامة إلى ملك الموت، فقال تعالى: (قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ) («۲»).

وكذلك أسندت الإمامة إلى الملائكة أعوان (فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ) («۳»)، (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ) («۴»)، (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا) («۵»).

وغيرها من الآيات (النحل ۱۶: ۲۸، ۳۲).

فأسند الموت تارة إلى اللّه تعالى، فهو إسناد بالذات، واسند إلى ملك الموت، أى بإقدار من اللّه تعالى، وكما اسند إلى أعوان الملَك عزرائيل، أى‌بإقدار من اللّه وإشراف من ملك الموت، كذلك الحال فى الإحياء، كقوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِى أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) («۶»).

وقوله تعالى: (هُوَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ) («۷»).

وقوله تعالى: (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) («۸»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۷۲

وقوله تعالى: (وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى السَّماوَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ) («۱»).

وقوله تعالى: (فَإِذَا نُفِخَ فِى الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ) («۲»)، والنافخ فى الصور هو إسرافيل بإذن اللّه وأمر منه تعالى.

وقوله تعالى فى شأن عيسى: (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونَ طَيْراً بِإِذْنِى) («۳»).

ونظيرها فى المفاد: (وَرَسُولًا إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِن رَّبِّكُمْ أَنِّى أَخْلُقُ لَكُم مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَ لِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ) («۴»).

فاسند نفخ الروح فى الموجود الحىّ تارة إليه تعالى، واخرى إلى إسرافيل، وتارة إلى النبىّ عيسى فى بعض الموارد، والإسناد إليه تعالى بالأصالة، وأمّا الإسناد إلى إسرافيل وإلى النبىّ عيسى عليه السلام فهو بالتّبع، وإقدار وإذن من اللّه تعالى، وكذلك عنوان الخلق كقوله تعالى: (هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ) («۵»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۷۳

وقوله تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مَن مَاءٍ) («۱»).

وقوله تعالى: (وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً) («۲»)، وفى هذه الآيات فعل الخلق إليه تعالى.

وقوله تعالى: (أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ) («۳»)، فأسند الخلق للأنعام فى الآية إلى الأيدى الإلهيّة التى هى الأعوان الموكلة بذلك.

وقوله تعالى: (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى* الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى* وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى) («۴»)، وأسند الخلق فى الآية إلى الاسم الإلهى الذى هو مملوك للذات الإلهيّة.

وكذلك فعل الوحى، كما فى قوله تعالى: (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ) («۵»).

وقوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ) («۶»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۷۴

وقوله تعالى: (ذلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ) («۱»).

وقوله تعالى: (فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى* فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى) («۲»)، فأسند تعالى الوحى إلى الضمير المفرد الغائب، العائد إلى الذات الإلهيّة، واخرى إلى اسم الربّ، وثالثة إلى الضمير المتكلّم الجماعة.

وقوله تعالى: (كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) («۳»)، فأسند الوحى هنا إلى اسم الجلالة.

وقوله تعالى: (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ) («۴»)، فأسند الوحى هنا إلى الرسول الملك الذى يوحى إلى البشر من نبيّ أو صفيّ كمريم.

وقوله تعالى: (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ* ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ* مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ) («۵»)، فأسند القرآن كلّه إلى قول جبرئيل فى التنزيل الثانى النجومى للقرآن.

ففعل الوحى مع أنّه من أعاظم الأفعال الإلهيّة يُسند إلى الذات الإلهيّة بالأصالة، وإلى الوسائط الإلهيّة من روح القدس أو ملك بالتّبع ثانياً.

ومثله قوله تعالى: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ) («۶»).

وبالجملة: فأنماط وأقسام الوحى عديدة جدّاً أشارت إليها روايات أهل بيت

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۷۵

العصمة بحسب البيانات القرآنيّة فى السور المختلفة.

وكذلك فى فعل العذاب الإلهى، كقوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ* إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ* الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ* وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ* وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ* الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ* فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ* فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ* إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) («۱»).

وقوله تعالى: (إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ* فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ) («۲»).

وقوله تعالى فى شأن قوم لوط، ولقاء النبيّ إبراهيم مع جبرئيل عليهما السلام وبقيّة الملائكة الذين ارسلوا إلى إنزال العذاب على قوم لوط: (قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ* قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ* لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِن طِينٍ* مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ) («۳»).

وقوله تعالى: (خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ* ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِن عَذَابِ الْحَمِيمِ* ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) («۴»).

وقوله تعالى: (أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ* مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ) («۵»)، فأسند العذاب إلى الملائكة وإلى جبرئيل بالتّبع ثانية، كما أسند إلى اللّه بالذات وبالأصالة.

وكذلك فعل التدبير والرزق، فقال تعالى: (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) («۶»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۷۶

وقوله تعالى: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ) («۱»).

وقوله تعالى: (قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ) («۲»).

وقوله تعالى: (وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً* فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً* فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً) («۳»).

وقوله تعالى: (وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً* فَالْحامِلَاتِ وِقْراً* فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً* فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً) («۴»)، فإنّ التدبير اسند تارة إلى اللَّه بالذات والأصالة، وإلى الملائكة بالتّبع ثانياً.

وكذلك الرزق وأفعال الرزق من الذرو وحمل ماء المطر، وتقسيم الأمر.

وكذلك الشفاء من المرض فى قوله تعالى: (الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ* وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ* وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) («۵»).

وقوله تعالى خطاباً لعيسى عليه السلام: (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونَ طَيْراً بِإِذْنِى وَتُبْرِئ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِى) («۶»)، فأسند تعالى الشفاء من

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۷۷

المرض إليه بالذات وبالأصالة، وأسند إلى النبىّ عيسى عليه السلام بالتّبع ثانياً.

فالقاعدة فى إسناد الأفعال الإلهيّة إلى الذات المقدّسة أنّ ذلك الإسناد قد قرّر فى القرآن الكريم على أنماط متعدّدة، أى تارة إلى الذات الإلهيّة، واخرى إلى الوسائط من جنود اللَّه فى السماوات والأرض، والفاعل الحقيقىّ هو اللَّه، والوسائط هى أدوات الفعل الإلهى وهى التى تباشر الفعل، فإنّ نزع الروح- مثلًا- يكون هناك ارتباط بين الروح النازعة والروح المنتزعة، والبارى تعالى منزّه عن الاحتياج إلى مثل هذا الارتباط، وإنّما الذى يحتاج إلى مثل هذا الارتباط هو الذى يكون بعيداً.

وفى الحقيقة أنّ هذه الوسائط التى هى أدوات ومجرى للفعل الإلهى، أصل وجودها من البارى تعالى وقائم به، كما أنّ القدرة على الفعل التى تتمتّع بها تلك الوسائط هى بالإضافة منه تعالى بدءً واستمراراً، فهو أقدر منها على تلك القدرة التى أعطاها إيّاها، فمن ثمّ حقّ أن يقال: إنّ تلك الوسائط ما هى إلّامجرى لتلك الأفعال الصادرة منه تعالى، وهومعنى أنّها تفعل أفعالها بإذن اللَّه.

وكذلك الحال فى الحساب والقضاء والحكم يوم الدين، فإنّه تعالى ليس بجسم ولا جسمانى، ولا بروح ولا روحانى، ولا بنفس ولا نفسانى، ولا- بعقل ولا متعقّل، فلا يباشر ما تباشره الأجسام، ولا يتعلّق بما تتعلّق به النفوس، ولا يرتبط بما ترتبط به الأرواح، ولا يتقيّد بما تتقيّد به العقول، إذ أنّ هذه الموجودات تحتاج إلى هذه الملابسات واللوابس فى أفعالها، وهو تعالى لا يتّصف بالنقص والحاجة، غنىّ بذاته، فلا يتوهّم واهم أنّ هناك بقعة جغرافيّة وموقع مكانىّ فى ساحة الحشر يتّجه إليها أهل المحشر كى يقام عليهم الحساب بتباشر اللَّه معهم، فإنّ البارى تعالى لا يحدّه حدّ، ولا يُحاط بمكان، جلّ عمّا

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۷۸

يقوله الظالمون، فهو تعالى لا- يُكتنه ولا- يُجبه ولا يواجه ولا يحسّ ولا يمسّ ولا يُجسّ، فلا تصدر تلك الأفعال ولا تظهر إلّاعلى يد الوسائط الإلهيّة، فهم مظهر تلك الأفعال الصادرة من الساحة الإلهيّة، وتلك الوسائط آيات ربّانيّة تتجلّى منها تلك الأفعال الإلهيّة.

ومن ثمّ كان عيسى بن مريم وامّه آية، فكيف بمن هو أعظم، ويقع الوهم كثيراً حيث يقتصر فى تنزيه الساحة الإلهيّة عن تباشر الأفعال الماديّة المرتبطة بالحسّ دون الأفعال الروحيّة أو العقليّة ذات العلائق والقيود النفسانيّة أو اللوابس العقليّة، مع أنّ تنزيهه تعالى عن التلابس والتعلّق بها هو على حذو تنزيهه عن التباشر بالأفعال المادّيّة، بينما يتوهّم الكثير أنّ الأفعال العقليّة أو الروحيّة أو النفسانيّة لا يوجد غضاضة فى نسبتها نسبة مباشريّة إليه تعالى.

بينما البارى هو أكمل ومنزّه من الاحتياج إلى التباشر فى إصدار هذه الأفعال وصدورها عنه، وإنّما يفتقر إلى التباشر تلك الوسائط التى يسند إليها الفعل بنسبة عقليّة ما أو نسبة روحيّة أو نسبة نفسانيّة حيث تفتقر إلى ذلك الإعداد فى إيجاد الأفعال.

بل هناك من مراتب التنزيه فى الأفعال تدقّ لطافة، وإنّما تسند إلى الأسماء بنسب اسمائيّة ترفع الذات الأزليّة عن التقيّد بتلك النسب وشرحها له مقام آخر.

أصحاب الأعراف أئمّة أصحاب الجنّة، والمستكبرون فى الأرض أئمّة أصحاب النار ... ص: ۲۷۸

وذلك فى قوله تعالى: (وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُم قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ* أَهؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَايَنَالُهُمُ اللَّهُ

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۷۹

بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَاخَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ) («۱»).

وقد تقدّم شرح للآيتين، وأنّ أصحاب الأعراف يعرفون روّاد أصحاب النار بسيماهم، ويخاطبونهم ويقرّعونهم بالعتاب بما تقدّم من أعمالهم، ويظهر من وصفهم، أنّ أصحاب الأعراف يخاطبون جماعة خاصّة من أصحاب النار لهم الريادة والقيادة لأصحاب النار، وأنّهم كانوا أصحاب جمع وجماعة، وعدد وعُدّة، وكانوا مستكبرين فى الأرض (أى أصحاب سلطة وسلطان، وقدرة واقتدار) فى قبال أصحاب الجنّة، بمقتضى المقابلة أنّهم كانوا مستضعفون ومضطهدون فى الأرض، ومغلوبون على أمرهم، وهذا معلَمٌ مهمّ لفريق أهل النار وفريق أهل الجنّة، وأنّ أصحاب الأعراف هم أئمّة المضطهدين، وهكذا كانت سيرة أهل البيت عليهم السلام، فما منهم إلّامقتول أو مسموم، وقد ازعجوا عن حقّهم، ودُفعوا عن مقامهم، وشرّدوا عن أوطانهم، ولوحق أتباعهم وشيعتهم.

وقد مرّ أنّ أصحاب الأعراف المهيمنين على الحساب، يخاطبون قادة أهل النار بقولهم: (أَهؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ) (مشيرين بذلك إلى أصحاب الجنّة)، أى يخاطبون بهذا الكلام قادة أهل النار فى حال الإشارة لأصحاب الجنّة وتوصيفهم بذكر ما قد قاله أهل النار عنهم بذلك فى دار الدنيا.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۸۱

إمامة الرسول الأعظم

اشارة

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۸۳

(يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً*

وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً) («۱»)

إمامة الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله ... ص: ۲۸۳

وهذه الآية قد وردت أيضاً فى سورة الفتح الآية ۸، كما ورد قريباً منها ما فى سورة المزّمّل الآية ۱۵، وفى هذه الآيات تبيان فى أنّ المقام الأوّل الذى بعث به النبىّ صلى الله عليه و آله هو مقام الإمامة، لأنّ مقام الشهادة ممّا يرتبط بشؤون الإمامة بخلاف مقام البشارة والنذارة، فإنّهما مرتبطان بمقام النبوّة، وقد اشير إلى ذلك فى آيات عديدة.

منها: (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِن أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هؤُلَاءِ) («۲»).

ومنها: (هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِن حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۸۴

عَلَى النَّاسِ) («۱»).

وغيرها من الآيات فى السور الاخرى التى ذكرت هذا الوصف والمقام لرسول اللّه صلى الله عليه و آله، وبأنّه شاهد على جميع

الشهداء، وهو نظير ما فى قوله تعالى:

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) («۲»)، فهى شهادة على الأعمال لجميع الخلق.

أمّا ارتباط مقام الشهادة على الأعمال بالإمامة لا بالنبوّة، فلأنّ تعريف النبوّة هو فى الهداية الإرائيّة، أى‌التى تتكفّل البيان وإراءة الطريق، ومن ثمّ تسمّى بالنذارة والبشارة والإخبار عمّا سيقع.

أمّا الإمامة، فهى سلوك وحركة واتّباع من المأموم والإمام، فتكون الهداية فى الإمامة إيصاليّة، أى‌يأخذ بيد المأموم ويوصله إلى المطلوب، فالأعمال وسيرها كسلوك قاصدٍ إلى الغاية والغايات، فهو ممّا يرتبط بالإمامة والهداية الإيصاليّة، وهو ما بيّن فى قوله تعالى: (إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) («۳»).

وليس المراد من هذه المقابلة نفى مطلق الهداية للنذارة والنبوّة، كيف والحال أنّ النذارة تتضمّن الإراءة للطريق المطلوب والتحذير من جهنّم والدعوة إلى النجاة والجنان، بل هذه الآية المتضمّنة للمقابلة تقتضى التقابل والتغاير بين الهداية الإرائيّة والهداية الإيصاليّة المعتضدة بقرينة السياق، حيث أنّ فى صدر الآية الحديث عن تحقّق الإيمان والاستجابة العمليّة من الكفّار ممّا هو مرتبط بالسلوك والأعمال والسير نحو المطلوب الذى هو متّصل بشؤون الإمامة.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۸۵

ولا تدافع بين آية الرعد وما ذكرناه من الآيات الاخر التى تبيّن مقام الإمامة للرسول صلى الله عليه و آله، وهو من الهداية الإيصاليّة، فقد يتوهّم أنّه كيف تنفى آية الرعد ذلك المقام عنه صلى الله عليه و آله.

ووجه الدفع لهذا التوهّم والتنافى أنّ آية الرعد فى صدد بيان مسؤوليّة وشؤون النبوّة، والفرق بينها وبين مسؤوليّة وشؤون الإمامة ردّاً على اقتراح الكافرين أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله لو كان نبيّاً فلماذا لم يأتِ بما يحقّق وقوع الإيمان منهم والاستجابة العمليّة، فأجابتهم الآية بأنّ المسؤوليّة والوظيفة الملقاة على الأنبياء هى البشارة والنذارة، وهى الإبلاغ والبلاغ، كما فى قوله تعالى: (وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) («۱»).

وقوله تعالى: (فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) («۲»)، وقوله تعالى:

(فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) («۳»)، وغيرها من الآيات العديدة التى تبيّن أنّ وظيفة النبوّة هى الإبلاغ والبلاغ لا الإتيان بما يحقّق وقوع الهداية الموصلة إلى المطلوب.

وبعبارة اخرى: هناك فرق بين البيان الواضح المسمّى بالبلاغ المبين، وهو الإراءة للطريق الواضحة، وبين المجىء والإتيان بما يجذب العبد إلى سلوك طريق الحقّ، والثانى من وظائف الإمام، وهذا الاعتراض على الأنبياء كثير من أقوامهم، كما فى قوم عاد وشعيب وثمود ولوط، وكانت إجاباتهم عليهم السلام أنّ وظيفة الأنبياء هو البشارة والنذارة والبلاغ المبين، ومن ثمّ قد تعرّف النبوّة أنّها بمثابة

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۸۶

العقل النظرى فى باطن روح الإنسان ممّا يرى المطلوب بنحو تجريدىّ من دون جذب نفسانىّ بخلاف الإمام، فإنّه بمثابة قوّة العقل العملىّ، حيث أنّ هذه القوّة فى الإنسان تمارس التأثير والجذب على إرادة الإنسان لكن من دون جبر بل ينحفظ معها الاختيار أى‌تهيئة ألطاف فى النفس جاذبة نحو الخير، كما ورد فى رواياتهم عليهم السلام: «إنّ لنور الإمام فى قلوب المؤمنين أنور من الشمس المضيئة فى النار، وهم واللّه ينوّرون قلوب المؤمنين، ويحجب اللّه عزّ وجلّ نورهم عمّن يشاء فتظلم قلوبهم» («۱»).

ثمّ إنّ إسناد الإرسال إلى مقام الشهادة على الأعمال، أى‌أنّه أرسل صلى الله عليه و آله ليكون شاهداً على الأعمال، فإنّ هذا الإسناد يتضمّن أنّ الإمامة ممّا يتعلّق بها الإرسال، والحال أنّ المرسل هو النبىّ لا الإمام، فكيف يفسّر هذا الإسناد؟

والإجابة عن ذلك بأنّه قد تعلّق الإرسال بالإمامة أو شعبها أيضاً فى قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً) («۲»)، فتعلّقت البعثة بالإمامة التى عبّر عنها بالملك، إذ قد اصطفاه اللّه وزاده بسطة فى العلم،

وجعل لملك تدبيره آية، وهى (أن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ) («۳»).

فالإرسال والبعثة تتعلّق بكلّ من النبوّة والولاية التى أحد درجاتها العليا الإمامة، والظاهر أنّ لفظ المرسَل وصف وعنوان ومقام للنبيّ بما يتمتّع من مقام وشؤون الولاية، ويشير إلى ذلك قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۸۷

بِإِذْنِ اللَّهِ) («۱»)، ومن الواضح أنّ الطاعة ترتبط بمقام الولاية والإمامة.

واستعمل الإرسال فى القرآن الكريم لمطلق المأموريّة والوظيفة والمهمّة التى يندب إليها من يصطفيه اللَّه لتلك، كما فى قوله تعالى: (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ) («۲»).

وكما فى قوله تعالى: (بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) («۳»)، ومثلها: (إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ) («۴»).

وكقوله تعالى: (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَايُفَرِّطُونَ) («۵»)، ومثلها: (حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ) («۶»)، مع أنّ ما أمر به الملائكة كرسل فى هذه الآيات ليس إبلاغ الرسالة، بل القيام بمهمّة ومأموريّة.

نعم، أحد موارد الرسالة هو إبلاغ الشريعة، فيطلق على الشريعة الرسالة، لأنّ بعض الأنبياء يُندبون لتبليغها وإن لم يكن كلّ نبيّ مرسل صاحب شريعة، ومن ذلك يتبيّن أنّ المهمّة والمأموريّة التى ينتدب إليها الأنبياء متفاوتة، كما أنّ الحال فى شؤون الولاية ودرجاتها متفاوتة، ففى شأن النبيّ يونس عليه السلام قوله تعالى:

(وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ) («۷»)، مع أنّه لم يكن صاحب شريعة.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۸۸

وأمّا ما فى قوله تعالى: (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ) («۱»)، ومثلها: (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ) («۲»)، فلا يتوهّم تدافعها مع عموم موارد الرسالة الذى مرّ فى الآيات السابقة، لأنّ الحصر إضافىّ وليس مطلقاً، أى أنّ الآيتين فى صدد بيان أحد غايات الرسالة، وهى إقامة الحجّة على العباد، وليس الإلجاء التكوينىّ على الهداية كما هو واضح من سياق الآيات التى وقعت فيها الآيتان فى سورة الأنعام والكهف.

ومن ثمّ يدفع ما توهّمه جملة من الكُتّاب فى الثقافة الإسلاميّة من توهّم حصر مقام الرسول صلى الله عليه و آله وصلاحيّته وشؤونه فى الدعوة إلى دين اللَّه فقط من دون صلاحيّة إقامة نظام الحكم السياسى والقضائى.

كما استدلّوا بقوله تعالى أيضاً فى سورة الغاشية: (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ* لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ) («۳»)، وإلّا فإنّ أوامر إقامة الحكم والقضاء وجهاد المعتدين والظالمين وجباية الضرائب وغيرها من أنشطة الدولة قد امر بإقامتها النبيّ صلى الله عليه و آله والتفطّن بجهة الكلام وسياقته من الضروريّات البالغة الأهمّيّة فى عالم دلالة الألفاظ.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۸۹

خلود القرآن الكريم

اشارة

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۹۱

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) («۱»)

فقد روى ابن بابويه فى كتاب «الإمامة والتبصرة»: عن محمّد بن موسى، عن محمّد بن قتيبة، عن مؤدِّب كان لأبى جعفر عليه السلام أنّه قال: «كان بين يدىّ يوماً يقرأ اللوح إذ رمى اللوح من يده وقام فزعاً وهو يقول: إنّا للَّه وإنّا إليه راجعون، مضى (واللَّه) أبى (عليه

السلام).

فقلت: من أين علمت؟

فقال: دخلنى من إجلال اللّه وعظمته شيء لم أعهده.

فقلت: وقدمضى؟

فقال: دع عنك ذا. ائذن لى أن أدخل البيت وأخرج إليك واستعرضنى أىالقرآن شئت، أفى لك بحفظه.

فدخل البيت فقمت ودخلت فى طلبه إشفاقاً منّى عليه، فسألت عنه، فقيل:

دخل هـذا البيت وردّ الباب دونه، وقال: لا تؤذنوا علَىَّ أحداً حتّى أخرج إليكم، فخرج معبّراً وهو يقول: إنّا للّهوإنّا إليه راجعون، مضى واللّه أبى.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۹۲

فقلت: جعلت فداك، وقد مضى؟

فقال: نعم، ولّيت غسله وتكفينه وما كان ذلك لِيَلى منه غيرى.

ثمّ قال لى: دَعْ عنك هذا، استعرضنى أىالقرآن شئت، أفِدك بحفظه.

فقلت: الأعراف، فاستعاذ باللّه من الشيطان الرجيم، ثمّ قرأ:

(وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ) («۱»)

فقلت: (المص).

فقال: هـذا أوّل السورة، وهـذا ناسـخ وهذا منسوخ، وهذا محكم وهذا متشابه، وهذا خاصّ وهذا عامّ، وهذا ما غلط به الكُتّاب، وهذا ما اشتبه على الناس» («۲»).

ورواه الصـفّار فى «البصـائر»، إلّاأنّه لم يرو الـذيل، وذكر أنّ المؤدِّب كـان أبـا زكريّا وروى هـذه القضـيّة عن أبى الحسن الهادى عليه السلام، والراوى عن المؤدِّب رجل كان رضيع أبى جعفر عليه السلام («۳»).

وعلى أىّ تقدير، يسـتفاد من الروايـة أنّ القاعدة فى ترتيب آىالقرآن الكريم، أن يتقدّم الناسخ على المنسوخ، والمحكم على المتشابه، والخاصّ على العامّ، وأنّ الترتيب الموجود فى آىالسور ليس كما هو المقرّر شـرعاً فى جمع المصحف، وأنّ ابتداء سورة الأعراف هو الآية التى قرأها الإمام عليه السلام.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۹۳

خلود القرآن الكريم ... ص: ۲۹۳

إنّ من الشُّبه المثـارة، تاريخيّـة القرآن الكريم، ويقصـدون بـذلك أنّ نور الوحى الإلـهىّ وإن كان فوق الزمان والمكان من عالم النور المحيط بالأزمنـة والأمكنـة، إلّا أنّه عنـدما يتنزّل، يتأرّخ ببيئة النزول ويتلوّن بالموارد والحوادث التى هى محالّ انطباقه، فيأخذ أحكامها، فيتحـدّد ويتضـيّق ويتخصّـص أحكام وعلاجات وعادات وقيم بيئة النزول زماناً ومكاناً، فلا يتناسب مع بيئة الانتشار فى بُعد المكانى أو فى عمود الزمان.

فالقالب الوحيانى ينفعل بخصوصـيّة المتلقّى، ومن ثمّ عبّر بعضـهم (الحداثويّين الغربيّين، والفلاسـفة الألسنيّين) بأنّ النبوّة تجربة بشريّة، أو قد يصـيغون الإشـكال بصـيغة اخرى، وهو أنّ منبع الوحى الإلهى لا متناهى، بينما النبىّ فرد بشرىّ محدود فى تلقّيه وخصائصه، كما أنّه يعيش فى بيئـة خاصّـة متركّبـة هويّته منهـا ذهنيـاً وروحيّـاً وصـفاتيّاً، ومن ثمّ فينطبع الوحى الـذى يتلقّاه بخصائص ذلك الفرد، وأنّ التاريخانيّة من مقوّمات الفرد البشرىّ.

وقد تصاغ الشبهة بصياغة اخرى: أنّ الحوادث الواقعة فى مدّة نزول القرآن مهما تعدّدت، فهى محدودة لا تغطّى ولا تعمّ كلّ البيئات البشريّة، زماناً ومكاناً، بل تظلّ بيئة محدودة، ونزول القرآن كان يتقيّد بحسب تلك الحوادث المحدودة، فكلّما استجدّت حادثة نزل منه بعض الآى والسور، ولو قدّر أنّ سيّد الأنبياء صلى الله عليه و آله عاش أكثر أو ضعف ما عاش، لربّما شاهدنا ضعف المصحف الشريف هذا اليوم، ومن ثمّ زُعم أنّ النبوّة تجربة، فإنّ تلك الحوادث الواقعة كموارد وأسباب للنزول هى وليدة حركة تاريخيّة لعيّنة من أفراد البشر، فلا تعمّ حركة الإنسان المتنوّعة فى البقاع الاخرى والأزمنة اللّاحقة، فبيئة النزول هى مجموع عادات

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۹۴

وقيم محدودة، فالمعالجات القرآنيّة بلحاظها هى أيضاً كذلك، فتتغاير العادات والأعراف المنتشرة فى الحضارات المستجدّة الاخرى، وفرق بين النصّ المحدود وبين النصّ المنفتح على ما لا ينحصر من الموارد.

وللإجابة على هذه الوهميّة.

عموميّة موارد أسباب النزول ... ص: ۲۹۴

الاولى: إنّ موارد نزول القرآن لم تنحصر بالوقائع الحادثة فى الثلاثة والعشرين سنة من بعثة النبيّ صلى الله عليه و آله ولا اختصّت ببيئة العرب أو قريش فى ذلك الزمان، بل موارد النزول وبيئته قد شملت كلّ الماضى من لدن آدم حتّى بعثة الرسول، كما شملت موارد وبيئات تنبئ بها من بعد وفاة الرسول صلى الله عليه و آله إلى انتهاء الدنيا، فتعرّض إلى أخطر المنعطفات الماضية التى مرّ وسوف يمرّ بها البشر، وعالجها بمنتهى التفصيل والحكمة، بل قد تجاوز ما مضى وما هو مستقبلىّ فى دار الدنيا، وتعرّض على عوالم ودور مرّ بها الإنسان أو الخلقة والمخلوقات من عوالم ونشآت سابقة، كعالم الذرّ والأرحام والأصلاب والأرواح وعالم النور، وكذلك نشآت لاحقة لدار الدنيا، كعالم البرزخ والحشر والنشر والقيامة والجنّة والنار والصراط، عوالم الملائكة والجنّ، وأخبار أهل كلّ سماء من السبع.

وبالجملة: فيه تبيان كلّ شىء، ومن الامور المبيّنة فى الكتاب مرحلة الرجعة والحقائق الكونيّة، وبالجملة ففيه تبيان كلّ شىء، إلّاأنّه سيأتى أنّ المستخرج ذلك كلّه من القرآن ليس فى قدرة البشر، وإنّما هى مخصوصة بمن هم عِدل القرآن من العترة الطاهرة من أهل البيت عليهم السلام، وفى الحقيقة أنّ هذه الشبهة بمثابة البرهان على ضرورة وجودهم واضطرار البشر واحتياجهم إلى العترة.

وقد تعرّض القرآن الكريم لتصحيح جملة من المحاور العامّة فى مسيرة

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۹۵

البشر، والتى حرّفت صورة النقل لدى الأجيال المتأخّرة عن حقائق أحداثها، فمن ثمّ اشتمل القرآن الكريم على تصحيح جملة ممّا زيّف من قصص التاريخ فى التوراة والإنجيل المحرّفَين، كما اشتمل على إخبارات ممّا مضى لم توجد فى التاريخ، ولذلك روى عن النبيّ صلى الله عليه و آله من ملاحم ونبوّات مستقبليّة لتفسير إشارات قرآنيّة عن تلك الحوادث المستقبليّة، هو من الاستعراض الجم، وفيه تفاصيل عن الأحداث بالدقّة.

امومة مرجعيّة القرآن وشموليّته ... ص: ۲۹۵

الثانية: أنّه قد تقرّر فى البحث العقلىّ ونظام العلوم، وجود قضايا كلّيّة محيطة بكلّ الجزئيّات والبيئات المتغيّرة، وتلك القضايا العامّة الكلّيّة هى الجانب الثابت التى تنقّب الأبحاث والمسيرة فى العلوم عنها، سواء فى العلوم التجريبيّة الطبيعيّة والعلوم الإنسانيّة، كعلم القانون والحقوق وعلم النفس والأخلاق والاجتماع أو غيرها، أو أنظمة العلوم الصناعيّة والمهنيّة والفنّيّة والتقنيّة وغيرها من نظامات العلوم، ويرسم لذلك برهان، وهو كالتالى:

إنّه لو افترضنا تعاقب المسيرة العلميّة وقوافل البحث العلمىّ فى العلوم جيلًا بعد جيل، فإنّ الجيل الأخير من هذه النشأة الدنيويّة والتى نفترض أنّه تقوم عليه القيامة، يكون قد اكتسب مخزون العلوم والمعلومات التى سبقته فى الأجيال كلّها، وهذا المخزون الذى ورثه واكتسبه ينتظم ضمن مجموعة من الكلّيّات هى بمثابة القواعد الامّ فى كلّ علم، وتكون تلك القواعد شاملة للبيئات التى مرّت بها البشريّة أجمع، إذ المفروض أنّها فى كلّيّاتها وعموماتها هى الجانب والعنصر المشترك المستخلص من كلّ تلك البيئات، فلا تشذّ عنها بيئة من البيئات ولا حادثة من الحوادث، ولا زمن من الأزمنة، فإذا تقرّر وجود تلك القواعد

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۹۶

والمعادلات والقوانين الكلّيّة، وأنّه بإمكان أحد الأجيال البشريّة إدراكه والوصول إليه، فكيف لا يكون ذلك فى قدرة خالق البشر أن يصطفى ويختار فرد بشرىّ هو سيّد الأنبياء وسيّد البشر.

وأرقى ما يمكن أن تكون عليه الطبيعة البشريّة وغير الطبيعة البشريّة أن ينتجبه ويوحى إليه بتلك العلوم والمعلومات والتى تتجاوز محدودة بيئته الزمانيّة إلى بيئات سابقة منذ صدر البشريّة وإلى بيئات لاحقة، بل إنّ العقل يدرك أنّ هذا اللطف والعناية والرحمة ضرورة صدورها عن البارى للطفه بخلقه، إذ أنّ البشر فى منتصف الطريق لا يمكنهم أن يصلوا بأنفسهم إلى ما عليه واقع الأشياء فى مختلف المجالات من حقائق، ولذلك فى أنّ فى وجدان كلّ فرد بشرىّ أنّ المسيرة العلميّة وقافلة التحقيق لا يمكن أن تقف فى يوم ما عند حدٍّ معيّن، وتقنع بما اكتشفته من حقائق، بل مسيرة العلم متواصلة بحثاً وتنقيباً للوقوف على المجهول ليصبح معلوماً.

وهذا ممّا يقضى بكون الحقائق لا متناهية، ولن يقدّر للأجيال البشريّة وحتّى الأخير منها فى النشأة الدنيويّة، ليس بمقدوره أن يحيط بكلّ حقائق الأشياء والقوانين والمعادلات التى تحكم على الواقعيّات.

فمن ثمّ هذا برهان علمىّ وعقلىّ على ضرورة الحاجة إلى هداية السماء، وأنّ البشريّة ليس بإمكانها مهما تواصل البحث والتنقيب والاختبار العلمىّ، أن تصل إلى الإحاطة بالقواعد والمعادلات على حقائق الأشياء، فمن ثمّ تضطرّ البشريّة فى مسيرة التكامل والكمال أن تلتجئ إلى منبع آخر للعلم وهو الوحى الربّانى.

فهذه الشبهة هى برهان على ضرورة النبوّة، وضرورة وجود الوصىّ من

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۹۷

بعد النبىّ صلى الله عليه و آله.

ويمكن صياغة هذا البرهان ببيان آخر، وهو أنّ النزعة الفطريّة الموجودة لدى البشر فى مواصلة البحث والتنقيب العلمىّ هو لأجل الوصول إلى قواعد عامّة ثابتة شاملة للمتغيّرات وتحكم بها الجزئيّات، فنزعة البحث العلمىّ أدلّ شاهد على إيمان البشر بالبداهة على وجود تلك القواعد، وسعيه الحثيث للوصول إليها، كما أنّ هناك نزعة اخرى ذاتيّة للبشر، وهى إيمانه وقناعته باستمرار مسيرته العلميّة أبد الآبد، وهذا يكشف عن دواء قصور القدرة البشريّة عن الإحاطة بالواقع مع أنّ هاتين النزعتين برهان لوجود الحقائق، وأنّ صفة تلك الحقائق لا محدودة وغير منقطعة عند حدّ، وإلّا لوقف مسير السير العلمىّ فى يومٍ ما.

وهذا ما يكذّبه وجدان البشر، فمن ثمّ هناك اضطرار إلى الهداية السماويّة فى اكتشاف هذه الحقيقة اللا محدودة، وكيفيّة التعامل معها، ومن ثمّ جاء فى النصوص أنّ مبدأ كلّ علم هم الأنبياء والأوصياء، ولك أن تتمثّل فى العلوم الاخرى، فإنّ علم الرياضيّات- مثلًا- بما فيه من بديهيّات هى كفيلة لحلحلة كلّ مجهولات الرقميّة فى مقادير أبعاد الكون وإن كان الوصول إلى تلك الحلول والنتائج ليس فى قدرة البشر العادى، مع أنّ الأجوبة مطويّة طيّاً فى بديهيّات ذلك العلم بحيث لا يشذّ عنها أىمتغيّر بيئىّ فى الظواهر الكونيّة، فعموميّة تلك البديهيّات الشاملة لكلّ متغيّر أمر وشأن، والقدرة على استخراج كلّ المتغيّرات منها أمر وشأن آخر.

وعجز البشر عن استخراج تلك القواعد من البديهيّات لا يستلزم نفى وجود تلك القواعد وقابليّتها على الحلّ والإجابة على كلّ المسائل، بل هذه الظاهرة

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۹۸

تـدلّ على ضـرورة وجود فرد بشـرىّ مزوّد بالعناية الإلهيّة واللطف الربّانىّ قادر على اسـتنطاق هذه المعلومات من البديهيّات الرياضـيّة، فخلق البارى لمثل هذا النظام المعادلىّ الرياضـىّ لا تتمّ حكمته وكماله إلّابخلق فرد بشرىّ قادر على تفعيل هذا الرأس المال المذخور، وإلّا لكـان معطّلًا وهبـاءً منثور، ذلك الفرد البشـرىّ الـذى يتمتّع بعلم لـدنىّ منه تعالى غير مكتسب، وليس هـذا شأن علم الرياضـيات فحسب، بل العلوم الطبيعيّة كـذلك، كعلم الفيزياء والكيمياء والأحياء وبقيّة العلوم الإنسانيّة والتقنيّة والفنّيّة والمهنّيّة والعلوم النظميّة وبقيّة العلوم كلّها مسـتنبطة ومنطويـة على قواعـد كفيلة بالكمال الأرقى المنشود للبشـريّة الذى لا يخترمه أىّ فساد ولا يعاوقه أىّ عقبة ممانعة، إلّاأنّ القدرة البشـريّة على اسـتخراج هذه الكنوز من تلك العلوم غير متوفّرة بنحو دفعىّ راهن إلّاعند فرد بشـرىّ أعدّه اللّه ووفّر فيه القدرة على ذلك، فرساميل بديهيّات العلوم ليس فيها إعواز كفيل بازدهار ورقىّ البشـريّة، وإنّما العجز والضعف فى عموم البشريّة، فلا- محالـة تقتضـى الحكمـة البـاهرة المودعـة فى الخلقـة الكونيّة وجود إنسان كامل مزوّد بعلم وعلوم إحاطيّة بـذلك تفعّل وتنشـط وتستثمر هذه الأنظمة من العلوم فى الظواهر الكونيّة.

فيتبيّن أنّ فى القرآن التنزيلىّ، والقرآن الكونىّ أىالكون بمـا اودع فيه من محكمـات القواعـد، كـلّ منهمايهتف‌بضـرورة وجود إنسان كامل قادر على اسـتنطاق واسـتنباط تلك الأنظمـة والقواعـد من العلوم الشاملـة والمؤدّيـة إلى سـعادة البشـر، فالعجز والنقص ليس فى القرآن التدوينىّ ولا القرآن الكونىّ، ولا فى الفرد الكامل، وإنّما فى سائر البشر، والصق ذلك العجز الذى من وصف‌البشر بالثقلين، أى أنّ العجز الذى فيهم نظروا به إلى القرآن وما يحيط بهم من نظام الكون.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۲۹۹

ليلة القدر واستمرار نزول القرآن ... ص: ۲۹۹

ثالثاً: اسـتمرار نزول القرآن الكريم إلى يوم القيامـة فى كلّ عام بلحاظ تأويله لما فى قوله تعالى: (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ* لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِن أَ لْفِ شَهْرٍ* تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِن كُلِّ أَمْرٍ* سَلَامٌ هِىَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ).

وقوله تعـالى: (حم* وَالْكِتَـابِ الْمُبِينِ* إِنَّا أَنزَلْنَـاهُ فِى لَيْلَـةٍ مُبَارَكَـةٍ إِنَّا كُنَّا مُنـذِرِينَ* فِيهَـا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ* أَمْراً مِنْ عِنـدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ* رَحْمَةً مِن رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) («۱»).

وقوله تعالى: (يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ) («۲»).

وقوله تعالى: (يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ) («۳»).

وغيرهـا من الآيات فى السور المرتبطـة بليلـة القـدر التى هى ليلـة نزول القرآن، ومن ثمّ ربط فى سورة القـدر سورة الـدخان بين نزول القرآن وما يتنزّل فى ليلة القدر من تقدير كلّ شىء.

وقـد بيّن فى سورة الـدخان أنّ هـذه التقـادير والمقادير للُامور المتنزّلـة هى المقرّرة ثبوتها فى الكتاب المبين، كما فى قوله تعالى: (وَمَا يَعْزُبُ عَن رَبِّكَ مِن مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِى

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۳۰۰

كِتَابٍ مُبِينٍ) («۱»).

وقوله تعالى: (وَمَا مِن غَائِبَةٍ فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ) («۲»)، وغيرهـا من الآيات التى تبيّن أنّ الامور كلّها قبل وقوعها فى العين والخـارج مقـدّرة ومقرّرة، تقـديرها فى الكتـاب المبين، سواء كـان ذلـك الأمر يقع فى السـماوات أو يقع فى الأرض، والكتاب المبين منزلة من المنازل العلويّة الغيبيّة للقرآن الكريم.

وقد ثبت بضـرورة الآيات والروايات عند الفريقين أنّ تقدير ومقادير الامور لا زال يتنزّل فى كلّ عام ليلة القدر، وهذا تنزّل من الكتاب

المبين بنصّ سورة الدخان، فما يتنزّل من القرآن من تأويل ومقادير وحقائق لم ينضب قطّ، فما توهّم من ارتفاع القرآن وانقطاعه لا مجال له، بل فى روايات أهل البيت عليهم السلام أنّ تنزّلات القرآن فى كلّ ليلة جمعة، بل فى كلّ ليلة، بل فى كلّ آن، وهو مطابق لما فى سورة غافر وسورة النحل من إطلاق النزول والتنزيل من دون تقييده بليلة القدر.

وممّا يشير إلى استمرار تنزّل حقائق القرآن وتأويله وفيوضات علومه، ما فى قوله تعالى: (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ* وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ* إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ* فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ* لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) («۳») الدالّ على أنّ المطهّرين من هذه الامّة وهم أهل البيت عليهم السلام يمسّون المنزلة الغيبيّة فى القرآن المحفوظة عن تناول الجميع فى كِنٍّ مكنون، (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ* فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ) («۴»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۳۰۱

وبعبارة اخرى: أنّ القرآن الكريم قد نعت نفسه بأنّ له منازل علويّة غيبيّة فيها تبيان كلّ شىء، نظير قوله تعالى: (يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) («۱»)، وهذه العلوم الجمّة المحيطة لا زالت تتنزّل على الذى اصطفاه اللّه من عباده ممّن قد ورث الكتاب من النبىّ الأعظم إذ يتنزّل عليه من فيوضات سيّد الأنبياء.

تكرار أو تكرّر السنن التاريخيّة ... ص: ۳۰۱

رابعاً: إنّ من القواعد التى باتت ثابتة فى العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة تكرّر السنن والظواهر فى المجتمعات البشريّة، فالبلدان والأزمنة والبيئات والقوميّات وإن اختلفت، إلّاأنّ الطبيعة البشريّة فى البُعد الفردىّ والاسرىّ والروحىّ والبدنىّ والاجتماعىّ تظلّ متّحدة، ومن ثمّ تكون تداعياتها ورسوم أفعالها ذات صورة متشابهة، فتشاهد أنّ النزعات والمذاهب والاتّجاهات وإن اختلفت أسماؤها، إلّا أنّها ذات مغزىً واحد كما فى قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) («۲»).

وكقوله تعالى: (قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) («۳»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۳۰۲

فإنّ الاعتبار بالسنن التاريخيّة إنّما هو لتفادى الوقوع فى الأخطاء السابقة عند تكرّر الظواهر التاريخيّة فى المجتمعات البشريّة، وهذا هو مغزى علم التاريخ الذى هو من أقدم علوم البشريّة.

ومن ثمّ تكرّر توسيط القرآن بالنظر إلى ما آلت إليه الامم السابقة وعواقب امورهم، ومثله قوله تعالى: (فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا* أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) («۱»).

ومن ثمّ لم يقتصر القرآن كما مرّ فى الأجوبة السابقة على استعراض بيئة مكّة والمدينة، وإنّما توسّع لكلّ الأحداث التاريخيّة منذ نشأة البشريّة، ومن ثمّ لا زالت المدارس القانونيّة والحقوقيّة البشريّة تدرس وتتدارس القوانين الغابرة فى الامم السابقة، كمسلّة حمورابى، والقانون الرومانىّ القديم، واليونانى فى عهد ما قبل الميلاد.

وكذلك شأن أصحاب العلوم الإنسانيّة طرّاً، كعلم الأخلاق وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم التاريخ وعلوم الأدب والثقافة، وما شابه ذلك، وليس ذلك إلّا لما تقدّمت الإشارة إليه.

فما استند إليه فى الوهم من إيراد وطعن هو دعم وتشييد، بل إنّنا نشاهد تأثير التاريخ ليس على العلوم الإنسانيّة فحسب، بل على العلوم النظميّة المرتبطة بمنظومات النظم كالعلوم الإداريّة، بل وكذلك منظومة العلوم التجريبيّة، فإنّ تاريخ كلّ علم بات من القواعد الهامّة المؤثّرة على الهيكل العام له، والشبكة التنجّزيّة لذلك العلم، وكيفيّة نموّه وتطوّره وتوسعته، فما هو الحجر الأساس

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۳۰۳

فی مقالة الإشکال هو من عمدة حجر الأساس فی دفعه، وهو ممّا ینمّ علی عدم إلمام أصحاب هذه المقالة باصول العلوم کی یتمکّنوا من مقارنتها مع الاصول العلمیّة فی القرآن، حیث قد قاموا بتوظیف خاطئ لبحوث الألسنیّات مع عدم مراعاة قواعد منهجیّة فی علوم اخری تکلّموا عنها بالنیابة.

البحث المنهجیّ فی قراءات النصّ والنصّ القرآنی ... ص: ۳۰۳

خامساً: حیث أنّ کیفیّة القراءة للنصّ هی الکفیلة باستخراج الکلّیات من الجزئیات، لو سُلِّم أنّ قوالب الألفاظ وترکیبات المعانی الواردة فی النصّ القرآنی فی مجال التشریع أو المجالات الاخری جزئیّة متأرّخة متقیّدة ببیئة النزول الزمانیّة الخاصّة ذات طابع تاریخانی؛ فإنّ للقراءة والاستنباط منهجاً وقواعد وموازین واسساً، کما أنّ هناک علماً وعلوماً باحثة عن اصول المنهجة، کعلم اصول الفقه وعلم المنطق والعلوم البلاغیّة، وبعض علوم الأدب کعلم الاشتقاق، ورغم اختلاف النظریّات والأحوال فی هذه العلوم الباحثة عن قراءات النصّ، إلّا أنّها تحتکم إلی اصول مشترکة مبرهنة متّفق علیها، کما أنّها منفتحة أمام أیّ قواعد منهجیّة تکتشف لقراءة النصّ، شریطة خضوعها لأدلّة موزونة تنتهی إلی قواعد صحیحة سدیدة مدلّل علیها کی تکون هناک مرجعیّة یحتکم إلیها الجمیع، وإلّا لدبّ المنهج السفسطیّ فی المعرفة.

تفسیر ملاحم المحکمات، ص: ۳۰۵

نظام الإعلام سلطة وسلاح

اشارة

تفسیر ملاحم المحکمات، ص: ۳۰۷

(إِنَّ الَّذِینَ جَاؤُوا بِالْإِفْکِ عُصْبَةٌ مِنکُمْ لَاتَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّکُم بَلْ هُوَ خَیْرٌ لَّکُمْ لِکُلِّ امْرِئٍ مِنْهُم مَا اکْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِی تَوَلَّی کِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِیمٌ أ ۱۱ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَیْراً وَقَالُوا هذَا إِفْکٌ مُّبِینٌ أ ۱۲ لَوْلَا جَاؤُوا عَلَیْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ یَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولئِکَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْکَاذِبُونَ أ ۱۳ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَیْکُمْ وَرَحْمَتُهُ فِی الدُّنْیَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّکُمْ فِی مَا أَفَضْتُمْ فِیهِ عَذَابٌ عَظِیمٌ أ ۱۴ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِکُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِکُم مَا لَیْسَ لَکُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَیِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِیمٌ أ ۱۵ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا یَکُونُ لَنَا أَن نَّتَکَلَّمَ بِهذَا سُبْحَانَکَ هذَا بُهْتَانٌ عَظِیمٌ أ ۱۶ یَعِظُکُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن کُنتُم مُّؤْمِنِینَ أ ۱۷ وَیُبَیِّنُ اللَّهُ لَکُمُ الْآیَاتِ وَاللَّهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ أ ۱۸ إِنَّ الَّذِینَ یُحِبُّونَ أَن تَشِیعَ الْفَاحِشَةُ فِی الَّذِینَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِیمٌ فِی الدُّنْیَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ یَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ أ ۱۹ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَیْکُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِیمٌ أ ۲۰ یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لَاتَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّیْطَانِ وَمَن یَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّیْطَانِ فَإِنَّهُ یَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنکَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَیْکُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَکَی مِنکُم

تفسیر ملاحم المحکمات، ص: ۳۰۸

مِن أَحَدٍ أَبَداً وَلکِنَّ اللَّهَ یُزَکِّی مَن یَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ أ ۲۱) («۱»)

الإفک ... ص: ۳۰۸

الإفک کما فی «اللسان»: «الکذبة العظیمة» («۲»)، وهو قلب الحقیقة، کما فی (وَالْمُؤْتَفِکَةَ أَهْوَی) («۳»)، ائتفکت: انقلبت، کما فی «مجمع البحرین» («۴»)، أفّاک: انتحل صفة الغیر لأغراض النصب والخداع.

والإفک هو الکذب الذی قُلب فیه الأمر عن وجهه کما فی «التبیان» («۵»).

ويتحصّل من هـذه التعاريف: أنّ الإفك كـذب من نمط ونوع خاصّ يتضـمّن التزوير لأباطيل يتمّ بها قلب الواقع عن وجهه وخلق وجهٍ جديد وتدشـين صورة اخرى، فليس يطمس الحقائق فحسب، بل يخلق بيئة تخيّليّة اخرى تعيش الوسط العامّ فى ضمن مسار آخر، ومن ثمّ فإنّ مادّة الإفك مرتبطة بالإعلام العامّ، وأنّ الإعلام من شأنه خلق بيئات وهميّة وأجواء تخيّليّة بعيدة عن الواقع.

ومـورد نزول هـذه الآيـات هـو الطعن والبهتـان الـذى الصـق بماريـة القبطيّـة حيث أنجبت إبراهيم ابن رسول اللّه صـلى الله عليه و آله، وبالتـالى فالأمر يرتبـط بقطب رحى الـدين ومركز الحاكميّـة والسـلطة، فـالتزوير اسـتخدم ومورس بتوسّـط الإعلام العامّ، وهو نوع من الحرب المسـتهدفة للهـدف بآليات تصـنع الرأى العامّ وتصوغه لإبادة شخصـيّات محوريّـة فى أنظمة معيّنة وفى أبنية اجتماعيّة، فمن ثمّ البحث فى

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۳۰۹

هذه الآية مرتبط بالإعلام الذى يصوغ الإعلام العامّ على خلاف الحقائق.

ومن ثمّ يرتبط بهـذا البحث فى هذه الآيات جملة من الآيات فى سور اخرى، المتعرّضة لنفس البحث، والمبيّنة لخطورته، كقوله تعالى: (لَئِن لَمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا) («۱»).

وكذا قوله تعالى فى هذه الآيات: (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِى الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) («۲»).

وأيضـاً قوله تعالى: (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْـتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا) («۳»).

وقوله تعالى: (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْـبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ* فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ* إِنَّمَا ذلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنْتُم مُؤْمِنِينَ) («۴»).

وقوله تعـالى: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَايَحْزُنـكَ الَّذِينَ يُسَـارِعُونَ فِى الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَـالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمّاعُونَ

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۳۱۰

لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْـدِ مَواضِـعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هـذَا فَخُـذُوهُ وَإِن لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْـذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَـيْئاً أُولئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ* سَـمّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُـرُّوكَ شَـيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْـطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) («۱»).

وقوله تعالى: (يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ) («۲»).

قـال فى «التبيـان»: «والإرجـاف: إشاعـة الباطـل للاغتمام به، والمرجفون هم الـذين كانوا يطرحون الأخبار الكاذبـة، ويشـغلون به قلوب المؤمنين» («۳»)، وهو ما يعرف حاليّاً بالحرب النفسيّة.

وفى «اللسان»: «الرجفان: الاضطراب الشديد» («۴»)، وهذا وصف لإشاعة الأخبار والإذاعة وخطورة تأثيرها بأنّها توجب الاضـطراب فى المجتمع، ومن ثمّ تهدَّد اللّه عزّ وجلّ المرجفين وتوعّدهم، وذكر أنّ حكمهم، النفى عن مجاورة النبىّ، ممّا يعنى انقطاع التعايش معهم مدنيّاً. والإرجاف وصف ثانٍ فى القرآن لإشاعة الأخبار والإعلام.

والوصف الثالث إشاعة الفاحشة، فإنّ هذا تأثير ثالث لإذاعة الأخبار السامّة، وهو أثر تربوىّ على سلوك المجتمع ويوجب بزوغ وتولّد ظواهر سلوكيّة فى المجتمع، وأنّه له بالغ التأثير فى ذلك، ومن ثمّ توعّد اللّه تعالى على ذلك بالعذاب

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۳۱۱

الأليم العاجل فى الدنيا فضلًا عن الآخرة.

والوصف الرابع: تأثيره على الأمن الاجتماعى فى كافّة مجالاته، ومن المجّرب فى تاريخ شعوب البشر أنّ الامم والشعوب ربّما تصاب بهزائم ونكسات من جرّاء إشاعة الأخبار السلبيّة وإن كانت صادقة، فضلًا عن أن تكون مزوّرة، ومن ذلك يعلم مدى المسؤوليّة الكبيرة فى نشر الخبر وإفشائه، وأنّ عمليّة الإذاعة والنشر فعل بالغ التأثير فى أوضاع المجتمع البشرىّ، وأنّ الإقدام عليه يتضمّن مسؤوليّة وآثاراً كبيرة جدّاً.

وممّا يتّصل بهذا الوصف ويقاربه أو بالذى قبله، الإرعاب والإخافة، وقوله تعالى: (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِن عَزْمِ الْأُمُورِ) («۱»).

والوصف الخامس: كون الإعلام يوجب الفتنة وهى الاضطراب والإرباك، وتدخل فيها معانى عديدة فى مجالات عديدة يجمعها موارد الفتنة.

ثمّ إنّ ما فى سورة المائدة والتوبة بيان للمسؤوليّة والوظيفة بعد وقوع الإشاعة، كما فى قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) («۲»).

المسؤوليّة تجاه الإشاعة وإعلام السوء ... ص: ۳۱۱

ومفاد السور الثلاث (المائدة والبراءة والحجرات) لزوم التثبّت أمام الإشاعات

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۳۱۲

والأخبار، وعدم المسارعة إلى تصديقها، وعدم الاسترسال لمتابعتها، بل التبيّن والتثبّت والتحرّى عن صدقها، وهذا ما تفيده آيات النور أيضاً، حيث تتعرّض الآيات فيها إلى المصدر الذى تولّد منه الخبر الكاذب بحياكة قالبه عمّا هو عليه من الواقع، كما تبيّن أنّ مقدار إسهام عصابة الإفك والزور فى ذلك قد يختلف، كما أنّ الآيات تبيّن مدى خطورة تأثيرها على المجتمع نفسه، وأنّه شرّ يحيق به.

ومن ثمّ تبيّن أنّ الظنّ (بخلاف ما عليه الإشاعة السيّئة)، هو ظنّ من المؤمنين بأنفسهم خيراً، أى أنّه يعود عليهم بالخير، بخلاف تصديق الإشاعة، فإنّه عامل سوء وشرّ للمجتمع نفسه، مع أنّ أفراد المجتمع عندما يتلقّون الإشاعة لا ينتبهون إلى ارتباطها بهم، بل يقفون أمامها وقوف المتفرّج، بل يسعون فى توسّعها وانتشارها وحدّتها بخوضهم فيها.

ومن ثمّ تؤكّد الآيات على خطورة الإسهام فى الإشاعات ودعمها عبر تلقّيها وإثارتها بالألسن والأفواه، وأنّ هذا الخوض اللسانى هو تضامن داعم للإشاعة ومشاركة وإسهام فيها، ومن ثمّ يعبّر عن ذلك بأنّه تلقّى للإفك باللسان وهو نمط من الترحاب والاحتضان، وهو قبول له ومشايعة، مع أنّ أفراد المجتمع يحسبون أنّ ذلك حياد ومجرّد استطلاع، ومن ثمّ عبّرت الآية بالقول: (وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً) («۱»)، مع أنّه إسهام عظيم فى دعم الإشاعة وإيصال تأثيرها، ومن ثمّ عبّرت (وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ).

وبيّنت الآية أنّ موقف الحياد هو بعدم التكلّم والتنزّه عن الخوض لساناً فيه لأنّ مجرّد فسح المجال له بالتناقل لساناً هو تبنّى له، ومن ثمّ ورد فى الروايات الآتية أنّ الفرد قد يُسهم فى قتل الإنسان بما ينقله من أخبار عن ذلك الفرد فتصل

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۳۱۳

إلى السلطان الغاشم فيبادر إلى قتله فيكون للناقل بلسانه ذلك الخبر نصيب فى قتل الإنسان.

ومن ذلك يعرف أنّ المشاركة فى تناقل الأخبار هى مشاركة فى بناء تلك التهم وإلصاقها بالأبرياء، ثمّ لا تكتفى الآيات بذلك وتبيّن أنّ مجرّد هذا الخوض (الذى يحسبه أفراد المجتمع موقف برىء) جزاؤه عذابٌ عظيم عاجل فى الدنيا قبل الآخرة، وكلّ ذلك للتشدّد فى النهى عن ذلك.

وكذلك قوله تعالى: (يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) («۱»).

وكذلك توعّد الذين يحبّون إشاعة الفاحشة بأنّ لهم عذاب عظيم فى الدنيا قبل الآخرة، وجعل الانخراط فى الإشاعة بتناقلها ثمّ بثّها ممّا يترتّب عليه الإفشاء، هو من اتّباع خطوات الشيطان، وأنّه بالتالى ترويج للفحشاء والمنكر، وأنّه لولا فضل اللّه لشاعت الفاحشة والمنكر فى بيئة المؤمنين، فما يزكو منهم أحدٌ أبداً، وهذا ممّا يبيّن صعوبة أو امتناع ضبط الإشاعات السيّئة، وأنّ منافذ انتشارها وجريان انتشار أمواجها فى المجتمع كثيرة جدّاً، وهذا ممّا يبيّن خطورة الإعلام وشدّة تأثّر البيئة الاجتماعيّة به، وأنّه من العوامل الكبرى المؤثّرة فى تربية المجتمع، وأنّه إمّا إلى الحضيض، وإمّا إلى التعالى، وأنّ الدين الحنيف يولى أهمّيّة فائقة للسطح الظاهر من البيئة الاجتماعيّة، ومن ثمّ وضع الحدود والتعزيرات بما يطفح من الفحشاء فى السطح الظاهر بتوسّط الشهادات الأربع، لأنّ ظهورها وبروزها إلى ذلك السطح ممّا يوجب شيوعها، وأنّ السطح الظاهر من البيئة الاجتماعيّة بالغة التأثير فى أفراد المجتمع، وهى تعرف فى علم الاجتماع بالسلوك الجمعى والأخلاق الاجتماعيّة التى يتحرّك الأفراد فيها

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۳۱۴

ويسبحون فى وسطها تلقائيّاً.

فمع أهمّيّة هذا الوسط، ومع أنّ الشريعة قد حصّنته بإقرار عقوبات الحدود والتعزيرات وقاية له، إلّاأنّ إشاعة الأخبار السيّئة التى سمّاها القرآن تارة بالإفك واخرى بالإرجاف وثالثة أنّه أمرٌ من الأمن الاجتماعى إلى غيرها من الأوصاف الاخرى، هى من العوامل النافذة التأثير فى هذا الوسط البيئىّ الاجتماعىّ، ويستقرب وقوعه بسهولة وعفويّة.

وفى الأحاديث تأكيد حثيث على أهمّيّة وخطورة الإعلام والإذاعة- إذاعة الأخبار- والإشاعة وتأثيراتها.

فقد روى حذيفة بن منصور، قال: «قلت لأبى عبداللّه عليه السلام: شىء يقوله الناس:

عورة المؤمن على المؤمن حرام.

فقال: ليس حيث يذهبون، إنّما عنى عورة المؤمن أن يزلّ زلّة أو يتكلّم بشىء يعاب عليه فيحفظ عليه ليعيّره به يوماً ما» («۱»).

وفى حديث آخر: «إنّما هو إذاعة سرّه» («۲»).

وروى البرقى عن أبى برزة، قال: «صلّى بنا رسول اللّه صلى الله عليه و آله ثمّ انصرف مسرعاً حتّى وضع يده على باب المسجد، ثمّ نادى بأعلى صوته: يا معشر مَن آمن بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قلبه، لا تتّبعوا عورات المؤمنين، فإنّه من تتبّع عورات المؤمنين تتبّع اللّه عورته، ومن تتبّع اللّه عورته فضحه، ولو فى جوف بيته» («۳»).

وعنه: بسنده عن محمّد بن مسلم، قال: «سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إنّ العبد

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۳۱۵

يحشر يوم القيامة وما يدمى دماً، فيدفع إليه شبه المحجمة أو فوق ذلك، فيقال له:

هذا سهمك من دم فلان، فيقول: يا ربّ، إنّك لتعلم أنّك قبضتنى وما سفكت دماً؟

قال: بلى، سمعت من فلان ابن فلان كذا وكذا فرويتها عنه، فنقلت عنه حتّى صار إلى فلان الجبّار، فقتله عليها، فهذا سهمك من دمه» («۱»).

روى الصدوق فى «الفقيه» عن أمير المؤمنين عليه السلام فى وصيّته لابنه محمّد بن الحنفيّة رضى الله عنه: يا بنىّ، لا تقل ما لا تعلم، بل لا تقل كلّ ما تعلم، فإنّ اللّه تبارك وتعالى قد فرض على جوارحك كلّها فرائض يحتجّ بها عليك يوم القيامة، ويسألك عنها، وذكرها ووعظها وحذرها وأدبها ولم يتركها سدىً، فقال اللّه عزّ وجلّ: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا) («۲»)، وقال عزّ وجلّ: (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ)» («۳»).

وفى رواية إسحاق بن عمّار، عن أبى عبداللّه عليه السلام، قال: «قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله:

من أذاع فاحشة كان كمبتدئها» («۴»).

عن محمّد بن عجلان، قال: «سمعته يقول: إنّ اللّه عيّر قوماً بالإذاعة فقال:

(وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ) («۵»)، فإيّاكم والإذاعة» («۶»).

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۳۱۶

روى الصدوق عن محمّد بن فضيل، عن أبى الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام، قال: «قلت: جعلت فداك، عن الرجل من إخوانى بلغنى عنه الشيء الذى أكرهه، فأسأله عنه فينكر ذلك، وقد أخبرنى عنه قوم ثقات.

فقال لى: يا محمّد، كذِّب سمعك وبصرك عن أخيك، وإن شهد عندك خمسون قُسامة وقال لك قولًا فصدّقه وكذّبهم، ولا تذيعنّ عليه شيئاً تشينه به وتهدم به مروّته، فتكون من الذين قال اللّه عزّ وجلّ: (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) («۱»)» («۲»).

وروى القمّى فى الموثّق عن زرارة، قال: «سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: لمّا مات إبراهيم ابن رسول اللّه صلى الله عليه و آله حزن عليه حزناً شديداً، فقالت عائشة: ما الذى يحزنك عليه، فما هو إلّاابن جريح، فبعث رسول اللّه صلى الله عليه و آله عليّاً عليه السلام وأمره بقتله، فذهب علىّ عليه السلام إليه ومعه السيف، وكان جريح القبطى فى حائط، فضرب علىّ عليه السلام باب البستان فأخبر جريح ليفتح له الباب، فلمّا رأى عليّاً عليه السلام عرف فى وجهه الغضب، فأدبر راجعاً ولم يفتح الباب، فوثب علىّ عليه السلام على الحائط، ونزل إلى البستان واتّبعه وولّى جريح مدبراً، فلمّا خشى أن يرهقه صعد فى نخلة وصعد علىّ عليه السلام فى أثره، فلمّا دنا منه رمى جريح بنفسه من فوق النخلة فبدت عورته، فإذا ليس له ما للرجال، ولا ما للنساء، فانصرف علىّ عليه السلام إلى النبىّ صلى الله عليه و آله فقال له: يا رسول اللّه، إذا بعثتنى فى الأمر أكون له كالمسمار المحمى فى الوبر أم أتثبّت؟

قال: بل تثبّت.

فقال: والذى بعثك بالحقّ ما له ما للرجال ولا ما للنساء.

تفسير ملاحم المحكمات، ص: ۳۱۷

فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: الحمد للّهالذى يصرف عنّا السوء أهل البيت» («۱»).

روى بسنده عن عبداللّه بن بكير، قال: «قلت لأبى عبداللّه عليه السلام: جعلت فداك، كان رسول اللّه صلى الله عليه و آله أمر بقتل القبطىّ وقد علم أنّها قد كذبت عليه أو لم يعلم، وإنما دفع اللّه عن القبطىّ القتل بتثبّت علىّ عليه السلام.

فقال: بل كان واللّه عَلِم، ولو كانت عزيمة من رسول اللّه صلى الله عليه و آله ما انصرف علىّ عليه السلام حتّى يقتله، ولكن إنّما فعل رسول اللّه صلى الله عليه و آله لترجع عن ذنبها، فما رجعت ولا اشتدّ عليها قتل رجل مسلم بكذبها» («۲»).

وقريب منه رواه الصدوق بسنده عن عامر بن واثلة عن أمير المؤمنين («۳»).

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلّامة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – "رَحِمَهُ اللهُ" – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و

بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة "للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ– فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جهةٍ أُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثُلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِع أُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائى/ "بناية "القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵–۲۳۵۷۰۲۳– (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مركز القائمية اصفهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹